

روايات مصرية للجيب

حرب الجوواسيس

سلسلة الأعداد الخاصة

4

و. نبيل فاروق

قاهر الجوواسيس

Looloo

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)



على الرغم من الانتصارات الضخمة ، التي حققتها جيوش ( ألمانيا ) النازية ، في بدايات الحرب العالمية الثانية ( 1939-1945م ) ، وهي تجتاح دول الجوار ، بلا رحمة أو هوادة ، وتسحق جيوش ( أوروبا ) سحقاً ، على نحو درامى مثير ، ظل رجال مخابراتها يشعرون بالتوتر الشديد ، في صراعهم مع جهاز المخابرات البريطاني ، المعروف بالمكتب السادس ..

فمنذ حمى وطيس المعركة ، وأبرز الرايح الثالث أنيابه ومخالبه ، نشطت المخابرات البريطانية ، على نحو غير مسبوق ، لزرع جواسيسها وعيونها ، في المجتمع النازي ، ومطاردة واصطياد كل جواسيس النازية ، في قلب ( بريطانيا ) ..

ومع نجاحات القوات العسكرية النازية ، في شق طريقها عبر ( أوروبا ) ، ذاق جهاز مخابرات ( هتلر ) الهزيمة تلو الأخرى ، على يد رجال المكتب السادس البريطاني ، وتساقط جواسيس النازي ، في قبضة رجال المكتب الخامس ، المسئول عن مكافحة الجاسوسية ، في قلب ( بريطانيا ) ..

ولما كانت الخسائر متوالية وسريعة .. وعنيفة أيضاً ، كان

من الضروري أن تتخذ المخابرات النازية إجراءً حاسماً ، لإيقاف انهيار شبكات جاسوسيتها ، ولمنع نزيف المعلومات الرهيب من داخلها ..

لذا ، فقد اجتمع مسئولو المخابرات النازية ، وعلى رأسهم الجنرال ( هملر ) شخصياً ؛ لمناقشة الأمر ، والبحث عن الحلول المناسبة ..

وبكل التوتر والصرامة ، قال ( هملر ) :

- لن يمكننا احتمال هذه الضربات طويلاً ؛ فسقوط ( بريطانيا ) في قبضتنا ، يحتاج إلى حصولنا على كل المعلومات اللازمة ، عن قياداتها العسكرية والسياسية ، ومع ما يحدث ، سيصبح ذلك أمراً عسيراً للغاية .

وهنا ، انبرى الماجور ( شرودر ) ، أحد أقوى ضباط جهاز المخابرات النازي ، يقول في حزم :

- اسمح لي يا جنرال .. كل ما حققه المكتب السادس البريطاني ، كان بفضل براعة وخبرة ومهارة نائب مديره ( جون كارنبر ) .. ذلك الرجل وحده ، أسقط دسنة من جواسيسنا ، خلال الأشهر الثلاثة الماضية وحدها .

انعقد حاجبا ( هملر ) في غضب هادر ، وهو يقول :

- إنه مجرد رجل واحد يا ماجور ( شرودر ) ، ومن العار أن تنسب هزائمنا كلها لرجل واحد .

وعلى الرغم من أن باقى الرجال قد اتكمشوا فى مقاعدهم ، مع غضبة ( هملر ) ، إلا أن الماجور ( شرودر ) ظل هللاً متمسكاً ، وكأنما لا تعنيه هذه الغضبة ، من قريب أو بعيد ، وهو يقول :

- ومن الخطأ أيضاً أن نتجاهل هذه الحقيقة يا جنرال ؛ فالفوز فى أية معركة ، لا يأتى من تجاهل الحقائق ، بل من مواجهتها ، بمنتهى الوضوح والحزم .

ثم نهض من مقعده ، أمام العيون الذاهلة ، وهو يواصل :

- ( جون كارنبتز ) رجل مخابرات قديم محنك ، ولديه خبرة طويلة فى كشف الجواسيس واصطيادهم ، وهو ينتقى رجاله يوماً بمنتهى الدقة والعناية ، ويمنحهم الكثير من معارفه وخبراته ، كما يقودهم فى برامج تدريب عملية ، فى كل مرة يلقون فيها القبض على أحد جواسيسنا ، وكل هذا يعنى أن ( جون كارنبتز ) ليس مجرد رجل واحد ، وإنما هو بذرة لطاقم ضخم من مكافحي الجاسوسية ، ولو أننا تركناه الآن ، فسيكون علينا ، بعد عام واحد ، أن نواجه مائة ( جون كارنبتز ) .. وربما أكثر .

انتهى من كلماته ، فران على قاعة الاجتماعات صمت مطبق رهيب ، وتراجع ( هملر ) فى مقعده ، وهو يتطلع إليه طويلاً ، قبل أن يتساءل فى اهتمام :

- وماذا تقترح يا ماجور ( شرودر ) ؟!

توقف ( شرودر ) ، وعقد كفيه خلف ظهره فى حزم ، وهو يقول :

- عملية اغتيال يا جنرال .

اعتدل ( هملر ) ، وهو يردد فى حماس :

- اغتيال ؟!

أجاب ( شرودر ) فى حزم أكبر :

- نعم يا جنرال .. اغتيال ( جون كارنبتز ) ، على يد قاتل محترف من أفضل رجالنا ، بحيث نوقف خطره ، وننهي خبراته ونجاحاته ، ونبلغ رسالة إلى البريطانيين ، فى الوقت ذاته ، بأننا لن نسمح لهم بالتفوق أبداً ... فى أى مجال .

مرة أخرى ، ران على القاعة صمت مهيب طويل ، قطعه ( هملر ) ، وهو ينهض ، ويقول بمنتهى الحزم والصرامة :

- ابدأ التنفيذ فوراً ، يا ماجور ( شرودر ) .

ووفقاً لنظم المخابرات ، كانت العبارة تعنى إسناد المهمة للماجور ( شرودر ) ..

مهمة الاغتيال ..

\*\*\*

لأن ( جون كارنبتير ) رجل مخابرات قديم ومحترف ، فقد كان يدرك جيداً أن أسوأ ما يفعله رجل مثله ، فى ظروف الحرب ، هو أن يتخذ نمطاً معيشياً ثابتاً ، بأى حال من الأحوال ..

فالنمط الثابت أمر يسهل رصده ، وتسجيله ، وتعبئه ، وبناء خطط دقيقة ومضمونة لمواجهة ، والتعامل معه ..

لذا ، كان ( كارنبتير ) يتبع دوماً نظاماً متغيراً ، فلا مواعيد ثابتة ليَقْظته ، أو صحوه ، أو خروجه أو عودته ..

إنه يعمل فى أية لحظة ، من الليل أو النهار ، ويتخذ مسارات مختلفة فى كل مرة ، ويستقل وسائل مواصلات متغيرة دوماً ..

باختصار ، كان وضع خطة واضحة لاصطياده ، أمر غاية فى الصعوبة .. بل هو أمر مستحيل عملياً ..

وهذا أول ما رصده ، وأدركه الماجور ( شرودر ) ، وما قضى ليلالى طوالاً ، فى دراسته وبحثه ..

كان يؤمن تماماً بأن هناك حتماً نقطة ما ، أو لمحة ما ، تتضمن نوعاً من الثبات أو النمطية ، فى حياة ( جون كارنبتير ) ..

فكل بشرى ، مهما بلغت براعته ، أو بلغ إصراره وحرصه على التنوع ، يحتفظ دوماً بنمط ما ، يرتبط بشخصيته الرئيسية ، ويصعب التخلص منه أو تفاديه ، بأى حال من الأحوال ..

وكان عليه أن يعثر على ذلك النمط ..

وبأى ثمن ..

ومن أجل هذا الهدف ، ظل ( شرودر ) يبحث .. ويبحث ..

وطوال الوقت ، كان الجنرال ( هملر ) يستحثه على الإسراع ، ويشير توتره وقلقه ، وهو يطالبه بالنتائج ، التى يريد تقديمها إلى الفوهرل ؛ لنيل رضاه وثقته ، و ...

وفجأة ، وعلى الرغم من أن الظروف كلها كفيلة بإفساد الموقف ، قفز ذلك النمط الثابت إلى ذهن الماجور ( شرودر ) ، الذى أسرع يستدعى ذلك القاتل المحترف ، السويسرى الجنسية إلى مكتبه ، ويغلق بابيه عليهما ، وهو يقول فى حماس :

- ما الشىء الوحيد الذى يحرص عليه ( جون كارنبتير ) ، ولا يتنازل عنه أبداً ؟

حدَّق القاتل السويسرى فى وجهه بدهشة ، قبل أن يجيب فى حذر حائر :

- لست أدرى هذا فى الواقع يا ماجور ، فكل مهمتى تقتصر على ..

ولم يمهل ( شرودر ) ليتم عبارته ، وإنما قاطعه ، قائلاً :

- تواجدته أثناء الإيقاع بالجواسيس .

مرة أخرى ، حدّق فيه القاتل السويسرى ، فتابع فى حماس ،  
وكانما يتحدث إلى نفسه فقط :

- ففى كل عملية إلقاء قبض ، على أحد جواسيسنا ، كان  
(كارنبتير) حاضراً ، مما يعنى أنه لا يميل إلى تفويت هذه الفرصة  
أبداً .

ثم لوّح بسبّابته ، مضيفاً فى جدل :

- وهنا تكمن نقطة ضعفه .

ولأن السويسرى قاتل محترف ، وخبير فى مضماره ، فقد  
استوعب الموقف على الفور .. وابتسم ..

ابتسم ابتساماً قاتل .... محترف ..

\*\*\*

« كشفنا أمر جاسوس نازى جديد .. »

نطق أحد أفراد فريق (جون كارنبتير) بالعبارة ، فى أول لحظات  
الاجتماع اليومى ، مما جذب انتباه الجميع ، وعلى رأسهم (كارنبتير)  
نفسه ، الذى تساعل فى اهتمام :

- من هو !؟

دفع الشاب أمامه ملفاً صغيراً ، وهو يجيب :

- (إيوارد . ب. جيمس) .. سكرتير عسكرى ، فى وزارة الدفاع .

ارتفع حاجبا (كارنبتير) ، وهو يقول :

- سكرتير فى وزارة الدفاع !؟!.. لقد تطوّرت المخابرات النازية  
كثيراً .. كيف أمكنهم تجنيد رجل فى موقع كهذا!؟!

أجابه الشاب فى سرعة :

- لم نتوصّل إلى الوسيلة بعد ، ولكننا رصدنا الاتصالات  
اللاسلكية ، التى يتم بثها من منزله .. إنه يستخدم موجة سبق لنا  
كشفها ، منذ عدة أشهر .

انعقد حاجبا (كارنبتير) ، وهو يتراجع فى مقعده ببطء ، وداعب  
نقته بسبّابته وإبهامه ، شأنه كلما واجه لغزاً ما ، وتساعل فى اهتمام :

- وهل يعلم النازيون أننا قد كشفنا تلك الموجة !؟!

هزّ الشاب رأسه نفيّاً ، وهو يجيب :

- لسنا نظن هذا .

اعتدل (كارنبتير) بحركة حادة ، وهو يقول فى صرامة :

- لا تظنون ، أم أنكم واثقون !؟!

بدت الحيرة على وجه الشاب ، وهو يجيب :

- لا أحد يمكنه الجزم ، فى مثل هذه الأحوال يا سيدي .

ازداد انعقاد حاجبى ( كارنيتز ) ، واستغرق فى التفكير بضع لحظات ، لاذ أفراد فريقه خلالها بالصمت التام ؛ ليفسحوا له مجال التفكير ، حتى اعتدل فجأة ، وقال بمنتهى الحزم :

- السؤال الآن هو : هل ننهى هذه العملية فوراً ، أم نحاول استغلالها ، إلى أقصى درجة ممكنة ؟!

راحوا يناقشون الأمر لما يقرب من ساعة كاملة ، قبل أن يستقر قرارهم على حتمية إنهاء العملية ؛ نظراً لأن الموقع الذى يحتله الرجل شديد الحساسية ، وسيكون من العسير إحكام السيطرة التامة عليه ، ومنع تسريب المعلومات العسكرية من خلاله ..

وفى نهاية الاجتماع ، حدد الفريق موعد وأسلوب إنهاء العملية ، وتقرر اقتحام منزل ( إدوارد جيمس ) ، فى الخامسة والنصف ، من فجر اليوم التالى مباشرة ..

وفى الموعد المحدد بالضبط ، جرت الترتيبات فى هدوء ودقة مدهشين ، فتحركت فرقة من القوات الخاصة ، لتحاصر منزل ( إدوارد ) تماماً ، وتغلق كل الشوارع المحيطة به ، وهبطت مجموعة أخرى على سقف المنزل ، المكون من ثلاثة طوابق فحسب ، فى حين تسللت مجموعة المخابرات إلى المدخل ،

وصعد أفرادها على أطراف أصابعهم ، إلى الطابق الثالث ، الذى يقيم فيه ( إدوارد ) ، وبدأ الكل العد التنازلى ، حتى أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة والنصف تماماً ..

ثم حدث الاقتحام ..

مجموعة المخابرات حطمت الباب ، وتدفعت داخل المنزل ، فهب ( إدوارد ) وزوجته من فراشهما فزعين ، ليجدا فوهات أسلحة الرجال فى وجهيهما مباشرة .. وبكل رعب الدنيا ، هتف ( إدوارد ) :

- ما ... ماذا يحدث ؟! .. من أنتم ؟!

أجابه أحد أفراد الفريق فى صرامة ، وهو يلوح بمسدسه فى وجهه :

- ( إدوارد . ب . جيمس ) .. إننا نلقى القبض عليك ؛ بتهمة التجسس ، لحساب جهاز المخابرات النازى .

اتسعت عينا ( إدوارد ) عن آخرهما ، فى ذهول حقيقى ، فى حين أطلقت زوجته شهقة قوية ، هاتفة :

- تجسس ؟!

أما هو ، فهتف فى ارتياح :

- ولكن هذا غير صحيح .. أنا مواطن صالح .. لا يمكننى أن أخون ( بريطانيا ) أبداً .

في نفس اللحظة ، التي انتهى فيها هتافه ، برز أحد رجال  
المخابرات البريطانية ، وهو يقول في توتر :

- لم نعثر على أية أجهزة اتصال لاسلكية .

انتقل توتره إلى ذلك الذي يصوب مسدسه إلى ( إدوارد ) ،  
وهو يقول في عصبية شديدة :

- ولكن كيف ؟؟

قبل أن يتم عبارته ، كان ذلك القاتل السويسري ، المستقر  
على سطح المبنى المواجه عبر الشارع ، يضغط جهاز التفجير  
البدائي ، الذي يمتد منه سلك رفيع ، أخفاه بمهارة حول أسلاك  
الهاتف ، المتصل بمنزل ( إدوارد ) ..

ومع ضغطته ، دوى الانفجار ..

انفجار رهيب عنيف ، أطاح بشقة ( إدوارد ) ، بكل ما فيها ،  
ومن فيها ، وهزّ المبنى كله في قوة ، حتى إن رجال القوات  
الخاصة على سطحه ، قد فقدوا توازنهم ، وسقطوا جميعهم أرضاً ..

وعندما نهضوا ، كان الموقف مأساوياً بحق ..

فالنيران كانت تندفع من كل نوافذ شقة ( إدوارد ) ، مع سحب  
كثيفة من الدخان ، والشظايا تملأ الشارع ، والمنطقة المحيطة  
كلها ، مع أشلاء محترقة ، متناثرة على مساحة واسعة ..

وفي خفة فهد جبلي ، غادر القاتل السويسري المحترف موقعه ،  
وهو يتمتم في سخرية ظافرة :

- أعتقد أن هذا يعني أن المهمة قد تمت بنجاح .

وكان هذا بالضبط ما سجلته أوراق جهاز المخابرات النازي ..

أن عملية اغتيال ( جون كارنبتز ) قد تمت بنجاح ، حتى إن الفوهرلر  
شخصياً قابل القاتل السويسري ، ومنحه مكافأة ضخمة ، مع وسام  
خاص ، يعتبر ثلثي أرفع وسام عسكري ، في ( ألمانيا ) النازية ..

وتنفس الماجور ( شرودر ) الصعداء ، وتصوّر أنه قد حقق  
أعظم انتصار ، في حياته العملية كلها ..

إلا أن نشاط المكتب الخامس البريطاني ، لمكافحة الجاسوسية ،  
لم يتوقف قط .. لقط تواصل على نحو مدهش ، وراح يوقع  
بجواسيس النازية ، بنفس أسلوب ومهارة ( جون كارنبتز ) ..

وبدأ الرايخ الثالث مرحلة التراجع والانسحاب ، وراح ينسحب  
من ( أوروبا ) ، وصار كل همه هو الحفاظ على ( ألمانيا ) ، التي لم  
تلبث أن سقطت في يد الحلفاء ، الذين أسرعوا بتقسيمها ، والاستيلاء  
على كل خيراتها وأوراقها ، ووثائقها ..

ومن بين الوثائق السرية ، كانت خطة ( شرودر ) ، لاغتيال  
( كارنبتز ) ..

## الأسير ..

على الرغم من البداية المبهرة ، والانتصارات المدهشة ، للجيش النازية الألمانية في أوائل الحرب العالمية الثانية ( 1939 - 1945م ) ، ومن اجتياحها التام لنصف ( أوروبا ) ، خلال عام واحد ، إلا أن تطوّر الأمور أدى إلى مجموعة من الأخطاء النازية ؛ بسبب ديكتاتورية ( هتلر ) المطلقة ، وسيطرته التامة على كل مقاليد في ( ألمانيا ) ، على الصعيدين السياسى والعسكرى ، على الرغم من انعدام ، أو ضعف خبراته العسكرية ، مما أدى بالتالى إلى عدة خسائر ، فى أكثر من جبهة ، ففى ( أفريقيا ) ، انهزم ( روميل ) ، ثعلب الصحراء الشهير ، بعد أن تقدّم بقواته عبر الصحراء الليبية ، وعبر الحدود المصرية ، وبلغ بها منطقة العلمين ، مكتسحاً أمامه القوات البريطانية ، التى لم تلبث أن أعادت تنظيم صفوفها ، وعلاج نقاط ضعفها ، على يد ( مونتجمرى ) ، الذى حاصر قوات ( روميل ) ، وأجبرها على التراجع ، وكبدها خسائر جسيمة ، فى الأرواح والمعدات ..

وفى ( موسكو ) ، وفى الوقت الذى أيقن فيه السوفيت من الهزيمة ، وأخلوا عاصمتهم بالفعل ، أصدر ( أدولف هتلر ) قراراً مفاجئاً ، بإيقاف الزحف على ( موسكو ) ، وانتقال التركيز كله إلى الجبهة البريطانية ..

ولقد قرأها البريطانيون ، وهم يبتسمون فى سخرية ..

فالواقع أنه ، وعلى الرغم من الخسائر الفادحة ، التى نجمت عن انفجار شقة ( إوارد ) ، لم يمس ( جون كارنبتز ) بخدش واحد ..

هذا لأنه ، وبكل بساطة ، لم يرافق فريقه ، فى مهمة إلقاء القبض على ( إوارد ) .. وكلفت المرة الأولى ، التى يتنازل فيها عن هذا ..

وفى الوثائق البريطانية ، التى نشرت بعد نصف قرن من الواقعة ، لم نجد إشارة واحدة إلى سبب عدم ذهابه ، فى تلك المرة بالتحديد ، فربما يكون السبب هو فراسسته الشديدة ، أو هى حاسة خاصة ، تتكون لدى رجال المخابرات ، مع تقدمهم فى العمر والخبرة ..

المهم أن ( كارنبتز ) ظل حيّاً ، حتى مات فى فراشه ، فى نوفمبر 1961م ، ليعلم أنه قد نجا من تلك المحاولة الفادحة ، وظل يعمل فى الخفاء لسنوات ، حتى لا يتعرض لمحاولة جديدة .

محاولة اغتيال ..

نازية ..

\*\*\*



وعلى الرغم من توسلات قادته ، ومحاولاتهم المستميتة ، لإقناع الفوهرل بدخول ( موسكو ) ، التي لم تكن تبعد سوى ثلاثين كيلو متراً فحسب ، والتمركز فيها ، بدلاً من البقاء في العراق ، مع مدخل الشتاء ، أصر ( هتلر ) على قراره ، واعتبر أن كل من يعارضه خائن أثيم ، يستحق حكم الإعدام فوراً ..

لذا فقد اضطر القادة إلى التمرکز خارج ( موسكو ) ..

وجاء الشتاء .. أعنف وأقسى شتاء ، شهدته الاتحاد السوفيتي ، منذ أكثر من قرنين من الزمان ، حيث انخفضت درجات الحرارة إلى الخمسين تحت الصفر ، وحاصرت الثلوج القوات النازية ، التي لم تعتد قط مثل هذه البرودة القاسية ، وانهارت المعنويات ، مع تجمد الأطراف ، وسقوط الضحايا اليومي ، بالإضافة إلى قوات الكوماتدوز السوفيتية ، المعروفة باسم القوات البيضاء ، أو الجيش الأبيض ، والتي يتسلل أفرادها ، بأزيائهم البيضاء تماماً ، وسط الجليد في الغابات ، لاصطياد الجنود والضباط النازيين يومياً ..

وتحطم الجيش النازي ، على بعد ثلاثين كيلومتراً من ( موسكو ) ، واضطر إلى التراجع ، لتطارده القوات السوفيتية ، في عنف وشراسة ، صنعها انقلاب الأوضاع ، وبدأت أعنف ملحمة قتلة ، بالنسبة للرايخ الثالث ..

وهكذا لم يعد هناك أمل ، للجيش النازية ، سوى في سيطرتها على قلب ( أوروبا ) ، وشواطئها ، وسواحلها ..

وبوساطة المخابرات الألمانية ( إس دي ) ، أدرك النازيون أن البريطانيين والأمريكيين يخططون لعملية إنزال بحرية ، تستهدف تحرير ( فرنسا ) ، والانطلاق منها إلى ( أوروبا ) ، لمحاصرة الجيوش النازية ، بينها وبين السوفيت ، الذين يزحفون من الشرق ..

ولأن حماية الساحل الفرنسي بأكمله كان أمراً مستحيلاً ، من الناحية العملية الفعلية ، بدأ الألمان يدرسون الموقف كله ، لتحديد الأماكن المحتملة ، لذلك الغزو الأنجلو أمريكي المنتظر .. وبعد دراسة مستفيضة ، تمت الاستعانة فيها بأفضل الخبراء ، توقع الألمان أن يتم الغزو في إحدى منطقتين ، إما ( نورماندي ) ، أو ( كاليه ) ..

وكان من المستحيل حسم الأمر ، بين المنطقتين ، دون معلومة مؤكدة حاسمة ، لا تقبل الشك ..

وهنا ، راح الألمان يدرسون كيفية الحصول على تلك المعلومة ، بأي ثمن ..

ولأن أعمال المخابرات سجال ، فقد أدرك البريطانيون أيضاً ،

من خلال أحد أهم عملائهم في (برلين) ، بحيرة الألمان ، وباحتمالية معرفتهم لموضع الهبوط ، حتى يمكن تركيز كل الدفاعات القوية عنده ، ومنع نجاح الغزو ..

وأدرك البريطانيون ، والأمريكيون أيضًا ، أن نجاح عملية الغزو المنتظر ، بل والانتصار في الحرب كلها ، أصبح يعتمد على حسم هذه النقطة بالغة الخطورة والأهمية ..

أهى (نورماندى) ، أم (كاليه) ؟!..

ولأن الغزو قد تقرّر له ، فى سرية بالغة مطلقة ، أن يتم فى منطقة (نورماندى) ، كان من الضرورى القيام بعملية دقيقة للغاية ، لإقناع الألمان بأن الغزو سيتم فى (كاليه) ..

وأيضًا بأى ثمن ..

وفى واحدة من المرات القليلة النادرة ، اجتمعت المخابرات البريطانية مع مجموعة من العسكريين الأمريكيين ، حيث لم تكن المخابرات الأمريكية قد تكوّنت بعد ، وبدأ البحث عن الوسيلة ..

أية وسيلة ..

فى ذلك الوقت ، كان البريطانيون قد أعدّوا بالفعل عملية مدهشة ، تعتبر واحدة من أكثر العمليات عبقرية ، فى تاريخ المخابرات كله ،

وهى عبارة عن إرسال جثة لشخص ما ، بحيث تطفو عند سواحل (إسبانيا) ، مع حقيبة تحوى بعض الوثائق الرسمية الزائفة ، التى توحى بأن الغزو سيتم فى (كاليه) ، وليس فى (نورماندى) ..

ولكن عمل المخابرات لا يمكن أن يعتمد على اتجاه واحد ، خشية أن يحاط بالشك ، مهما بلغت براعته ، فتفشل اللعبة كلها ..

لذا كان من المحتم أن تكون هناك عملية ثانية ؛ لتدعيم وتأكيد عملية الجاسوس الميت ، ودفع النازيين إلى التيقن من أن الغزو سيتم من (كاليه) ..

ولقد اقترح العسكريون الأمريكيون عدة اقتراحات ، تصوّروا أنها عبقرية ، إلا أن رجال المخابرات البريطانية المحنكين كانوا يعترضون ، فى كل مرة ، ويناقشون الاقتراح ، الذى يثبت خطأ الفكرة من أساسها ، حتى أصيب العسكريون الأمريكيون بالغضب والإحباط ، فهتف أحدهم فى حدة :

- إنكم ترفضون كل فكرة نقترحها ، وتتعاملون معنا كما لو كنا مجرد أسرى ، لا جنرالات من جيش حليف .

اعتدل أحد رجال المخابرات البريطانية ، عند هذه النقطة ، وهتف فى اهتمام بالغ :

- ماذا قلت يا جنرال ؟!

انعقد حاجبا الجنرال الأمريكى فى غضب ، دون أن يجيب ،  
وقد تصوّر أن البريطانى يوجّه إليه اللوم ، فاتبرى آخر يقول ،  
محاولاً تهدئة الأمور ، وتلطيف الموقف :

- الواقع أن الجنرال كان يقصد ..

اندفع رجل المخابرات البريطانى ، يقول :

- لا يعينى ما كان يقصده .

تفجّرت دهشة مستنكرة ، فى وجوه الجنرالات الأمريكين ،  
وبدا وكأن الموقف سيتطوّر إلى نوع من عنف الحوار ، لولا أن  
استدرك رجل المخابرات البريطانى فى لهفة :

- كل ما يعينى هو الإشارة إلى الأسرى ، فالواقع أن هذا  
ما نحتاج إليه تماماً أيها السادة .

ثم التقط نفساً عميقاً ، ليضيف فى حماس :

- أسير .

ملأت الدهشة وجوههم هذه المرة ، وانتقلت إلى وجوه رجال  
المخابرات البريطانية أنفسهم ، ولكن الرجل بدأ يشرح فكرته ،  
فأرهب الجميع أسماعهم لمتابعته ، وبدأ الحماس يجرفهم أيضاً ،  
حتى إنه لم يكذب ينتهى ، حتى كان الأمر قد تغيّر تماماً ..

فلقد وافق الجميع على اقتراحه ... ولا استثناء ..

وبعد ثلاثة أيام بالضبط ، قامت القوات الجوية ، الأنجلو أمريكية  
المشتركة ، بشن غارة عنيفة على ( برلين ) ..

وفى رد فعل طبيعى ، راحت المدفعية النازية المضادة للطيران ،  
ترد الهجوم ، وتدافع عن سماء ( برلين ) ، عاصمة الرايخ الثالث ،  
ومقر الفوهرر العظيم ( أدولف هتلر ) ، فى استماتة ما لها مثيل ..

وكأمر طبيعى أيضاً ، أصابت تلك المدفعية بعض الطائرات ،  
وأسقطتها ، أو نسفتها فى السماء ..

وبين تلك الطائرات ، كانت هناك طائرة بريطانية سليمة ..

طائرة لم تصب بدانات المدافع المضادة ، ولكن قائدتها جذب  
ذراعاً إضافية داخلها ، فاتبعث دخان أسود من مؤخرتها ، ثم  
تخلّى عن عجلة قيادتها ، وتركها تهوى وسط ( برلين ) ، وهو  
يجذب ذراع قذف المقعد ، ليثب معه خارج الطائرة ، ويبدأ فى  
الهبوط بمظلة الطوارئ ..

ولأن العديدين قد رصدوا ما حدث ، وتصوّرُوا أن طائرته قد  
أصيبت وسقطت فقد اندفع رجال الشرطة و ( الجستابو ) ، يحاصرون  
المنطقة ، التى سقط فيها ذلك الطيار البريطانى ، ويضيقون الخناق  
عليه ، وهو يستमित فى محاولة الفرار منهم ، حتى أطبقوا عليه  
تماماً ، وسقط فى قبضتهم ، بعد مقاومة عنيفة ، وقتال ضار ..

قصة مدروسة ملفقة ، صاغها رجال المخابرات البريطانية  
بمنتهى الدقة والبراعة ..

والعبقريّة هنا تكمن في أن القصة ، التي رواها الطيار البريطاني  
لم تشر قط إلى ( كاليه ) صراحة ..

لقد ذكر فيها الطيار شيئاً عن التدريبات ، التي تتلقاها فرقته ،  
حول الانطلاق من على متن حاملات طائرات ، لحماية عملية  
إنزال بحرية ، وراح يدلي ببعض التفاصيل ، التي ستقود الخبراء  
الألمان حتماً ، إلى أن كل التدريبات تتم لغزو ( كاليه ) ..

وفي الوقت ذاته ، عثر رجال مكافحة التجسس على خريطة  
دقيقة ، مخفاة بمهارة فائقة ، في بطانة سترة الطيار ، على نحو  
يوحي بأن واضعها لم يشأ أن ينكشف أمرها أبداً ..

ولم تكن تلك الخريطة تحوى أية بيانات ، أو حتى إشارات  
اتجاهات ، وإنما حوت بعض الخطوط بقلم أحمر ، على نحو  
يوحي بأنها مسارات طيران ، تبدأ من حاملات طائرات وهمية ،  
وتمر فوق ( كاليه ) ..

وعندئذ ، لم يعد هناك مجال للشك ..

وعاد رجال ( الجستابو ) يضغطون على الطيار البريطاني أكثر  
وأكثر ، حتى اعترف في النهاية بأنه وفرقته تدرّبوا على حماية  
عملية إنزال مرتقبة ، عند شاطئ ( كاليه ) الفرنسي ..

وكما يحدث دوماً ، تم نقل ذلك الأسير إلى مقر ( الجستابو ) ،  
الذي يطلق عليه اسم ( بيت الثعالب ) ؛ لاستجوابه بمنتهى الدقة  
والقسوة ، وانتزاع كل المعلومات الممكنة منه ، قبل نقله إلى  
معسكرات الاعتقال المعتادة ، خارج ( برلين ) ..

وفي مقر ( الجستابو ) ، تم تجريد الطيار البريطاني من كل  
ما يحمله ، وإرساله إلى قسم مكافحة الجاسوسية ، وتمحيصه ،  
ومعرفة إذا ما كان يخفي شيئاً ما في أعماقه أم لا ..

أما الطيار نفسه ، فقد بدأ استجوابه بمنتهى العنف ، ومنتهى  
القسوة ، ومنتهى الشراسة ..

ولقد احتمل الطيار البريطاني ذلك التعذيب ببسالة حقيقية ،  
وأصرّ لفترة طويلة على ألا يدلي بأكثر من اسمه ، ورتبته ، وفرقته  
العسكرية ..

ولكن النازيين لا يرحمون ... وبالذات رجال ( الجستابو ) ..

لذا فقد تطوّر التعذيب أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

وانهار الطيار البريطاني أخيراً ..

انهار ، وراح يدلي باعتراف ، بدا صادقاً ، منطقيّاً ، معقولاً ،  
حتى إن أحدهم لم يتصوّر لحظة واحدة أن كل ما يسمعه مجرد

وقبل أن تمضي نصف الساعة ، كان ( هملر ) ، قائد ( الجستابو ) ، ينقل هذا الخبر إلى الفوهرل شخصياً ، وهو يهتف بكل الحماس :

- إنها ( كاليه ) .

هبَّ الفوهرل من مقعده ، على نحو يتعارض مع رصانته المعتادة ، وصراسته المعهودة ، وهو يهتف :

- أنت واثق !؟

هتف ( هملر ) :

- كل الثقة أيها الزعيم ..

ولساعة كاملة ، راح يروي للفوهرل العظيم قصة ذلك الجاسوس الميت ، وما كان يحمله من وثائق ، عند الساحل الإسباني ، وما أيده من أقوال ذلك الطيار الأسير ، الذي لم يُدلِّ بما لديه ، إلا بعد تعذيب رهيب ، لا يمكن أن يحتمله بشر ..

وهزَّ ( أدولف هتلر ) رأسه ، كعادته كلما اقتنع بشيء ما ، ثم تنهَّد في عمق وهو يتراجع في مقعده ، مغمغماً :

- عظيم .. عظيم .

وعلى الفور ، ودون أن يضيع ثانية واحدة كعادته ، أصدر قراره بتركيز كل الدفاعات الأساسية في ( كاليه ) ، على أن يحاط هذا الأمر بمنتهى الحذر ، ومنتهى السرية ..

كانت هذه أوامر ( هتلر ) ، التي تم تنفيذها بمنتهى الحذر والدقة ، ولكن أمراً كهذا لا يمكن إخفاؤه أبداً ، مهما اتخذت أسباب الحيلة ..

لقد التقط جواسيس ( بريطانيا ) وعيونها ما يحدث ، وأدركته المقاومة الفرنسية الباسلة ، ونقلته بأساليبها المبتكرة المدهشة إلى قوات الحلفاء ، التي اطمأنت إلى أن ( نورماندى ) قد صارت بعيدة تماماً عن فكر وذهن النازيين ..

وأن موعد الهجوم قد حان ..

وفي السادس من يونيو ، عام 1944م ، وبقيادة الجنرال ( أيزنهاور ) ، انقض الحلفاء على ( نورماندى ) ..

ولم تكن ( نورماندى ) خالية تماماً من الدفاعات ، إلا أن ما بها لم يكن يكفي لصد غزو ساحق كهذا ..

لذا فقد سقطت الدفاعات الألمانية ، وانسحقت انسحاقاً ، في غرب ( فرنسا ) ، في نفس الوقت الذي أنزلت فيه قوات ضخمة في جنوبها ، لتدك الدفاعات النازية هناك دكاً ..

وهبط الحلفاء في ( فرنسا ) ، وأدرك الألمان أنها بداية النهاية ، فبدعوا في التراجع والفرار ، على الرغم من مقاومتهم الشرسة العنيفة ..

هتف رجل المخابرات البريطاني ، وهو يربّت على كتفه في  
حرارة :

- بل أكثر من واجبك أيها الفارس .

ولم يكن رجل المخابرات البريطاني يستخدم اللقب عفويًا ، فقد  
أنعمت الملكة على ذلك الطيار بلقب ( فارس ) بالفعل ، ومنحته  
وسام الشجاعة ، إلا أن ما تعرّض له ، على يد ( الجستابو ) ، لم  
يمنحه فرصة العودة مرة أخرى إلى صفوف القوات الجوية  
الملكية ، وإنما صار وسامًا آخر على صدره ، وهو يروى  
مذكراته ، التي منحها عنوانًا مختصرًا معبرًا ..

عنوان ( الأسير ) .

\*\*\*

وبدأت قوات الحلفاء تزحف ، من الغرب والجنوب ، في نفس  
الوقت الذي راحت فيه القوات السوفيتية تكتسح من الشرق ، بعد  
انتصارها الساحق في ( بولندا ) ، و ( هنغاريا ) و ( البلقان ) ..

وفي نهاية عام 1944م ، تحرّرت ( فرنسا ) و ( بلجيكا ) من  
الاحتلال النازي ، واتجه القتال إلى ( هولندا ) و ( قلب ( ألمانيا )  
التي أبيدت مراكزها الصناعية والعسكرية تمامًا ، لتنهيار في  
إبريل 1945م ، وتعلن استسلامها دون قيد أو شرط ، في السابع  
من مايو ، عام 1945م ..

ومع سقوط ( ألمانيا ) النازية وانهارها ، تم إطلاق سراح  
جميع الأسرى ، من الأمريكيين والبريطانيين والسوفيت ، واستقبلهم  
رفاق السلاح بالفرح والسعادة ومظاهر الانتصار ..

أما ذلك الطيار البريطاني ، فقد استقبله أحد رجال المخابرات  
البريطانية بابتسامة كبيرة ، وصافحه في حرارة ، قائلاً :

- مرحبًا بعودتك يا بطل ... فلتعلم أنك واحد من الفرسان ،  
الذين اعتمد عليهم انتصارنا هذا .

ابتسم الطيار بابتسامة هادئة ، وهو يقول :

- لقد أديت واجبي فحسب يا سيدي .

## الجاسوس الخفى ..

اشتعلت الأمور كلها ، على نحو لم يعهده العالم من قبل ، فى تلك الفترة من بدايات أربعينات القرن العشرين .. ( ألمانيا ) النازية انطلقت كالنار فى الهشيم ، تلتهم دول ( أوروبا ) المجاورة بلا رحمة أو هوادة ، وتحقق انتصارات مذهشة مبهرة ، على كل الجبهات ، وتخرق الجيوش ، والأسوار ، والخطوط الدفاعية كسكين حاد ، يعبر قالبًا من الزبد الطازج ، وهى تحلم بالانتصار الكبير على الجبهة البريطانية ..

وفى ( برلين ) ، انتفخت أوداج قادة النازية فى ثقة ظافرة ، وهم لا يتلقون سوى أخبار الانتصارات والفتوحات من كل الجبهات وبتوا يحلمون بالضربة القاصمة التى ستخضع ( بريطانيا ) العظمى ، التى توشك على الانهيار والخضوع ، و ...

وفجأة ، أصدر الفوهرل قرارًا أدهش الجميع بلا استثناء بوضع خطة محكمة لغزو الاتحاد السوفيتى .. وفى حيرة مذعورة ، تساعل القادة عن سر هذا القرار العجيب ، فى هذا التوقيت بالتحديد ، وأعلنوا خشيتهم من أن يؤدى تحول القتال من الجبهة البريطانية إلى السوفيتية إلى أن يلتقط البريطانيون أنفاسهم ، ويستعيدوا قوتهم ، وينهضوا من كبوتهم ..

ولكن ( أدولف هتلر ) لم يتراجع أبدًا ..

لقد أصر أكثر على موقفه ، وأمر بالبداية فى خط الغزو ، التى أطلق عليها اسم ( بارباروسيا ) ..

ولم يكن أمام القادة والجنرالات إلا الإذعان ، وهم يضربون كفًا بكف ، فى صمت بالطبع ، ويتساءلون عن سر هذا التحول العجيب المفاجئ ..

( هملر ) قائد فرق ( الجستابو ) وحده كان يعلم السبب أو يتصور أنه يعلمه على الأقل ..

فمن ناحيته ، كان ( هملر ) واثقًا إلى حد كبير ، من أن هذا القرار يرتبط بذلك الضيف المهول ، الذى التقى به الزعيم النازى ( أدولف هتلر ) ، فى سرية تامة ، وتحت غطاء من الغموض الشديد ، قبيل إصدار قراره بيوم واحد .. اللقاء الذى كان يغضبه ويستفزه إلى أقصى حد ، فبحكم منصبه ، كان من الطبيعى أن يطلع على كل ما يخص الفوهرل ، وعلى هوية كل من يلتقى به ، أو حتى يتصل به .

ولكن أوامر ( هتلر ) كانت صارمة واضحة فى ذلك الأمر ..

لقد استدعى ( هملر ) إلى مكتبه ، فى الساعة صباحًا ، وقال فى صرامة ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ..

إننى أنتظر زائراً ، سيأتى فى تمام الساعة ، وحول عنقه وشاح أبيض ، لا أريد أن يعترضه أحد ، أو يوقفه أو يطالبه إبراز أية أوراق ، أريده أن يأتى من الباب الأمامى إلى مكتبى مباشرة .. هل تفهم !؟

لم يرق هذا لقائد ( الجستابو ) الشرس ، وحاول أن يعترض ، وظل نصف ساعة كاملة ، فى محاولة لإقناع الفوهرل بالتراجع ، وبالسماح للحراس بإيقاف القادم والتيقن من هويته ، قبل أن يدخل إلى المستشارية ، ولكن الزعيم النازى رفض بشدة وحزم وصرامة وإصرار ..

و غادر قائد ( الجستابو ) حجرة الزعيم ، وهو يغلى غضباً ، بكل معنى الكلمة ، وتشعر كل خلية من جسده بمهانة ما بعدها مهانة ..

كيف يمكن أن يعامله الزعيم بهذا الأسلوب !؟ .. كيف يحجب عنه معلومات هامة ومباشرة كهذه !؟ ..

ولأنه لم يستطع هضم الموقف بأكمله ، ولم يستطع كتمان غضبه وفضوله ، فقد طلب من رجال فرقته الخاصة الانتشار حول المستشارية ، وإبلاغه فوراً عن أى غريب يظهر ، وحول عنقه وشاح أبيض ..

وحتى التاسعة إلا خمس دقائق كان كل رجاله يؤكدون عدم ظهور أى شخص بهذه المواصفات فى المنطقة ، وعلى الرغم من هذا ، فلم تكد عقارب الساعة تشير إلى تمام الساعة ، حتى ظهر ذلك الشخص بغتة ، وكأنما برز من عدم ، وهو يرتدى معطفاً أسود طويلاً ، يصل حتى منتصف ساقيه ، وقبعة سوداء ، تغطى رأسه كله ، فى حين اختفى نصف وجهه خلف ذلك الوشاح الأبيض الأنيق ، والنصف الآخر خلف منظار داكن ، من طراز سويسرى الصنع .

وفى ثبات تام ، وبثقة رجل يؤمن بأنه ليس من حق أى مخلوق اعتراضه ، عبر ذلك الغامض مدخل المبنى ، وقطع دهاليزه الطويلة ، واتجه نحو حجرة مكتب الفوهرل شخصياً ، وتجاوز حارسيتها ، اللذين لم يحاولوا الاعتراض ، طبقاً لما لديهما من أوامر ، ثم دفع باب المكتب دون حتى أن يطرقة ، ودلف إليه فى ثقة ..

وفى اللحظة التى استغرقها دخوله ، لمح ( هملر ) من خلفه ( أدولف هتلر ) ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، فى لهفة واهتمام غير عاديين ، لاستقبال الزائر ..

ولقد استغرق اللقاء سبعة وعشرين دقيقة ، غادر الزائر بعدها المكتب بنفس الثقة والحزم ، وهو يحمل تحت إبطه كتاباً صغيراً ، له غلاف من الجلد الأحمر ، كان يحمله أيضاً عند وصوله .



ودون أن يضع ( هملر ) لحظة واحدة ، أمر رجاله بمراقبة ذلك الزائر وتعقبه ، ومحاولة كشف هويته بأى ثمن .. ولقد أطاع الرجال أوامر قائدهم ، وكانت فى انتظارهم مفاجأة مذهلة ، فعلى الرغم من دقتهم وبراعتهم ، نجح ذلك المجهول فى مراوغتهم ، واختفى وسط ( برلين ) دون أن يترك خلفه أى أثر ..

وجن جنون ( هملر ) ، وعقله البوليسى يطرح عليه ألف سؤال .. ما هوية ذلك الجاسوس بالضبط؟! .. وكيف بلغت براعته هذا الحد؟! .. بل وكيف وجد سبيله للاتصال بالفوهرل شخصياً دون المرور به كالمعتاد؟! ..

مجموعة من الغوامض والتحديات كان من المستحيل على رجل مثله أن يتجاهلها أو يغمض عينيه عنها ، خاصة وأنها تستفزها استفزازاً لم يعهده من قبل ..

ثم أعلن ( هتلر ) عن رغبته فى شن الحرب على ( روسيا ) ، فى اليوم التالى مباشرة ..

وهنا ربط ( هملر ) ما بين زيارة ذلك الجاسوس الغامض ، والقرار النزق ، الذى اتخذه ( هتلر ) ، فى مثل هذه الظروف ..

ولأنه يتميز بإصرار لا يقبل التراجع ، تجاهل ( هملر ) كل الفرق التابعة له ، واستدعى واحداً من أبرع رجال المخابرات الألمانية عبر التاريخ .. ( إيريك فون كلايست ) ..

ومنذ تلك اللحظة ، أصبح الأمر كله مسئولية ( فون كلايست ) ، الذى كتب عن هذه المهمة فى مذكراته ، يصفها بأنها كانت أصعب وأخطر مهمة أسندت إليه ، فى حياته كله .. على الإطلاق ..

البداية كانت عند ذلك المنزل المهجور نصف المتهدم ، الذى اختفى عنده ذلك الرجل الغامض منذ أيام قليلة ، فقد كان ( فون كلايست ) يؤيد تماماً نظرية ( هملر ) قائد ( الجستابو ) ، فى حتمية وجود نفق أو سرداب سرى ، فى ذلك المنزل ، يبرر اختفاء الرجل على هذا النحو العجيب ، لذا فقد انتحل رجل المخابرات الألمانية شخصية مقاول هدم ، وابتاع أنقاض ذلك المنزل من الحكومة ، بمعاونة ( هملر ) بالطبع ، وأحضر عرباته فى اليوم التالى ، لرفع الحطام والأنقاض .. باختصار ، كان قد اتخذ قراره بفحص ذلك المنزل حتى القاع ..

ولقد استغرقت عملية إزالة الأنقاض هذه ثلاثة أيام كاملة ، عمل فيها ( فون كلايست ) ورجالها ليلاً ونهاراً ، لانتهاء من المهمة ، قبل أن يبلغ الأمر ( الفوهرل ) ، فيتدخل لمنع استمرار المهمة ، وحماية ذلك الشخص ، الذى لا يدري أحد هويته بالضبط ..

ولكن ( هتلر ) كان مشغولاً تماماً فى تلك الفترة ، فى الإعداد لخطة ( باياروسيا ) ، لغزو ( روسيا ) ، لذا فقد نبش ( فون كلايست ) بقايا ذلك المنزل ، ورفع أطلاله ، وفجأة عثر على ذلك السرداب ..

سرداب خفى ، مصنوع بإتقان مدهش ، حتى إن مدخله لم ينكشف إلا مع هدم آخر الجدران المتبقية وكان السرداب بطول ثلاثين متراً ، وينتهى عند منزل صغير على الجانب الآخر من الطريق .. وبسرعة نقل ( فون كلايست ) الخبر إلى ( هملر ) ، الذى أصابته دهشة عارمة ، على الرغم من أنه صاحب نظرية وجود السرداب ، وطلب ملف ذلك المنزل الصغير ، فى محاولة لجمع كل المعلومات الممكنة ، ومعرفة كيف يمكن حفر سرداب بهذا الطول يمر أسفل طريق حيوى ، دون أن تشعر جهات الأمن بهذا ..

والواقع أنه - وكما تقول يوميات ( فون كلايست ) - لم يتمكن من كشف ذلك السر أبداً .

أما ( فون كلايست ) نفسه ، فكان كل ما يعنيه من هذا الأمر ، هو التيقن من أنه يواجه شخصاً بارعاً فحسب وليس شبحاً يتلاشى مع ضوء النهار ، ومن هذا المنطلق ، بدأ يضع خطة البحث ..

ومع التسهيلات والصلاحيات التى منحه إياها ( هملر ) راح ( فون كلايست ) يمشط ( برلين ) شارعاً بشارع ، ومنزلاً بمنزل ، ومقهى بمقهى ، بحثاً عن أى شخص يشتبه فى أمره ، وقد أدت حملته المكثفة هذه إلى إلقاء القبض على عدد من الجواسيس البريطانيين ، أرضى رؤسائه ، ومنحه المبرر الكافى لمواصلة مهمته السرية ، وعندما انتابه اليأس ، من التوصل إلى

هوية ذلك الغامض ، وثبت إلى ذهنه فجأة فكرة لم تخطر بباله مطلقاً ، فذاك الجاسوس الخفى التقى بالفوهرلر ، ليقتعه بشن الحرب على الجبهة الروسية ، ولقد حمل إليه حتماً معلومات بالغة الخطورة والأهمية ، تبرر إقدام ( ألمانيا ) النازية على تحول خطير كهذا ، على الرغم من أن الجبهة البريطانية توشك على الانهيار ، وهناك معاهدة دفاع مشترك ، سبق توقيعها مع الروس ، وهذا يعنى أن ذلك الغامض أحد اثنين ، لا ثالث لهما ، إما أنه جاسوس ألماني رفيع المستوى ، إلى الحد الذى دفع الفوهرلر إلى الاحتفاظ بسر هويته لنفسه ، لينقل إليه كل ما خفى من أسرار ، حتى أسرار جنرالاته أنفسهم ، أو أنه جاسوس أجنبى ، نجح بخطة شيطانية فى اكتساب ثقة الفوهرلر ، بحيث تكفى معلومة زائفة منه لتغيير مسار الحرب كلها ..

وفى الحالتين هناك خطر داهم ، على ( ألمانيا ) كلها ، بوجود مثل هذا الجاسوس الخفى .. خطر التورط فى حروب سابقة لتوقيتها ، مما قد يحمل معه رياح الهزائم أو الهزيمة الكبرى ، التى يخشاها الجميع ..

ولأنه رجل مخابرات محنك ، يعرف جيداً قدرات أجهزة الأمن النازية ، رجح ( فون كلايست ) الاحتمال الثانى ، على الرغم من صعوبته وخطورته ، أو على الأقل ، قرر أن يبدأ مهمته ، انطلاقاً

من الاحتمال الأكثر خطورة ، حتى يثبت العكس .. ولكن مهمة ( فون كلايست ) لم تكن سهلة أبدًا ، فقد راجع ملفات كل المشتبه فيهم ، في ( ألمانيا ) كلها ، وليس في ( برلين ) وحدها ، ونبش كل شبر توصل إليه ، دون أن يحظى بمعطومة واحدة .

ولقد جن جنون ( هملر ) ، عندما أخبره ( فون كلايست ) بهذا ، وثار في وجهه ، وطالبه ببذل مزيد من الجهد ، وإلا .. ولكن ( فون كلايست ) لم يكن من ذلك الطراز ، الذي يمكن أن يهتز أمام التهديد والوعيد ، لذا فقد واجه قائد ( الجستابو ) في حزم ، وأخبره أنه ، وبعد بحث طويل شاق ، لا يجد أمامه سوى سبيل واحد ..

أن يظهر ذلك الجاسوس الخفى مرة أخرى ، وأن يتعقبه هو بنفسه هذه المرة ..

ولقد غضب ( هملر ) لهذا الرأي ، واعترض بأنه ليس هناك منطق أن يظهر ذلك الغامض مرة أخرى .. ولكن ( فون كلايست ) كان له رأى مختلف .. لقد كان واثقًا من أن الرجل الغامض سيعاود الظهور حتمًا ، مع تطور الأمور .. وعلى الرغم من أنه لم يصارح ( هملر ) بوجهة نظره وتفاصيلها ، إلا أن ما دونه في يومياته كان يشف عن عبقرية مدهشة ، في التنبؤ بالتطورات العسكرية والسياسية ..

لقد كتب ( فون كلايست ) أن عودة ذلك الغامض ستكشف حتمًا هويته وسترجح أحد الاحتمالين ، اللذين وضعهما لشخصيته .. ( ألمانيا ) كانت تحقق انتصارات كبرى على الجبهة الروسية حتى إن جيوشها أصبحت على مسافة خمسة وسبعين كيلومترًا فحسب من ( موسكو ) ، وحكومة ( ستالين ) فرت من العاصمة ، واختفت في قلب البلاد ، وكل شيء يوحى بأن السقوط الروسى صار وشيكًا .. ولكن هذا كان مفيدًا ، فى الوقت ذاته للجبهة البريطانية ، إذ إن التركيز على الجبهة الروسية منحها الوقت لالتقاط أنفاسها ، وإعادة تنظيم صفوفها وتسليحها ، حتى بات من الوشيك أن تهدد أمن وسلامة ( ألمانيا ) بعد حين ..

ومن وجهة نظر ( فون كلايست ) ، كانت كل مهمة ذلك الجاسوس الخفى هى أن ينقل الحرب إلى الجبهة الروسية ، قبل أن تنهار الجبهة البريطانية أمام الضغط الألمانى القوى .. ولو أن نظريته هذه صحيحة ، فالبريطانيون لن يسمحوا بانتهيار حليفهم ( روسيا ) أيضًا ، لذا فسيسعون إلى إيقاف الحرب الروسية فى الوقت المناسب الذى يضمن هزيمة ( ألمانيا ) وسط الثلوج ، وتحطيم جيشها هناك لإضعاف العملاق النازى كله ..

ولأن ( فون كلايست ) كان يخشى رد الفعل ، لم يصارح ( هملر ) عما يعتمل فى أعماقه ، بل طلب منه أن يمنحه سلطات

أوسع ، للإيقاع بذلك الجاسوس الخفى ، فى الوقت المناسب ،  
ولقد كان عبقرياً فى استنتاجاته إلى أقصى حد .. فذات يوم ،  
وبينما كان ( هملر ) يعرض بعض الأوراق على ( هتلر ) ، عقد  
هذا الأخير حاجبيه فى صرامة قائلاً :

الرجل سيأتى فى تمام التاسعة من صباح الغد ، كالمرة  
السابقة .

سرت قشعريرة فى جسد ( هملر ) عندما سمع عبارة زعيمه ،  
وراح قلبه يدق فى عنف ، وهو يغمغم :  
سنتخذ كل الإجراءات أيها الفوهلر .

وعندما عاد إلى مكتبه ، كان أول ما فعله هو الاتصال بـرجله  
( فون كلايست ) ..

ومنذ الثامنة والربع ، راح ( فون كلايست ) يحوم حول مبنى  
المستشارية ، ويفحص كل شخص يقترب منها بعينى خبير ، ثم  
راح يوزع رجاله فى كل الشوارع المحيطة بها ، على نحو  
عبقرى مدروس ، و ...

وفى تمام التاسعة ، ظهر الجاسوس الخفى .. ظهر مرتدياً ذلك  
المعطف الطويل ، والوشاح الأبيض ، الذى يشترك مع القبعة فى  
إخفاء وجهه كله تقريباً .. وبمنتهى الثقة والثبات والهدوء ، عبر

الرجل الغامض ، رجال الحراسة ، واتجه نحو حجرة الزعيم  
النازى مباشرة ، واستقبله ( هتلر ) بنفسه فى مكتبه ، فى  
التاسعة تماماً .

وقضى معه ساعة كاملة هذه المرة ، اتخذ بعدها ، وعلى نحو  
منفرد ، ودون استشارة قادته ، قراراً بإيقاف الحرب على الجبهة  
الروسية فوراً ..

وبنفس الهدوء الواثق ، غادر الجاسوس الغامض مكتب  
( الفوهلر ) ، دون أن يعترضه أحد .. ولكن ( فون كلايست )  
انطلق خلفه ، فور خروجه .

كان الجاسوس بارعاً بحق ، يتخذ طرقاً شديدة التعقيد ، توحى  
بأنه يحفظ خريطة ( برلين ) عن ظهر قلب ، حتى الشوارع التى  
تهدمت فى الغارة الأخيرة ، فمن الواضح أنه يتلقى معلوماته من  
مصادر بالغة القدرة والدقة . ولكن كل حيله لم تخدع ( فون كلايست ) .

لقد واصل مطاردته بنفس البراعة والمهارة ، وضيق عليه  
الخناق ، حتى توقف الجاسوس الغامض عند هاتف عمومى ،  
ليجرب اتصالاً أدرك ( فون كلايست ) طبيعته على الفور فلقد  
شعر الجاسوس الخفى بالمطاردة ، وقرر الاتصال بالفوهلر  
شخصياً ليصدر أوامره بمنع وإيقاف التعقب فوراً ..

وكان من المحتم أن يمنع ( فون كلايست ) هذا الاتصال . وبأى ثمن .. لذا فقد تجاوز الخطة التي وضعها هو بنفسه ، وأصدر أوامره المباشرة بالهجوم وانقض رجاله على كابينة الهاتف العمومي ، قبل أن يدير الجاسوس القرص برقم واحد .

ولأن الجاسوس رجل محنك ، كما توحي كل تحركاته وتصرفاته ، فقد أدرك ما يحدث على الفور ، وانطلق خارج كابينة الهاتف العمومي كالصاروخ .. وانطلق ( فون كلايست ) ورجاله خلفه ..

وهنا ظهرت موهبة جديدة ، من مواهب الجاسوس الخفى ، لقد كان يعدو ويناور ويحاور كرياضى من الطراز الأول ، أو كأحد أبطال الألعاب الأولمبية ، فى رياضة تخطى الحواجز .. ففى مهارة مذهشة ، ومرونة لا وصف لها ، كان يتفادى انقضاضة رجال ( فون كلايست ) ، ويقفز فوق عقبة اعترضت طريقه ، ثم يدور حول أخرى ، ويعبر أسفل ثلاثة .. باختصار ، شعر رجال ( فون كلايست ) بأنهم يطاردون شيطاناً ، وليس بشراً عادياً .. ولكن رجل المخابرات الألماني كان مصراً على الانتصار فى هذا السباق .. مهما كان الثمن .. ثم فجأة ، وثب الجاسوس داخل منزل قديم ، من منازل ( برلين ) الخالية ، واختفى داخله ..

وهنا توقف ( فون كلايست ) ، فلقد كان واثقاً من أن الجاسوس ليس غيبياً ، ليختفى فى منزل صغير ، يمكن محاصرته والسيطرة

عليه ، وأن هناك سرداباً آخر حتماً .. سرداب يقود إلى مبنى آخر .. مبنى قريب .. أو بعيد .. لذا فقد انتشر مع رجاله فى المنطقة كلها ، وراحوا يفتشون ويفحصون كل مكان ، وكل شخص فى الطرقات ..

وفجأة توقف ( فون كلايست ) وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحرق فى شيخ أشيب الشعر متغضن الوجه ، غادر أحد المنازل وهو يتكى على عصا خشبية غليظة ، يسير بها على نحو يوحى بأنه مصاب بالشلل الرعاش ، ولم يكن من الطبيعى أو المنطقى ، أن يلفت شخص كهذا انتباه أحد ، ولكن ( فون كلايست ) كان رجلاً يتميز بمهارة لا تقارن ، فى قوة الملاحظة ، لذا فقد جذب الحذاء انتباهه .. حذاء الرجل ، الذى يسير فى صعوبة ، متكئاً على عصاه السميكة ، كان مترباً بشدة ، كحذاء شخص ظلَّ يركض طويلاً ، وسط الأحياء القديمة .

وبكل انفعاله ، أشار ( فون كلايست ) إلى رجاله ، ثم اندفع معهم نحو ذلك الشيخ ، وبعنف شديد وانقض الرجال على الشيخ ، وأمسكوا به ، وهنا تحول الشيخ المريض إلى وحش كاسر ، فانطلقت قبضته تحطم أنف أحد الرجال ، وارتفعت قدمه تضرب ركبة آخر ، ثم دار حول نفسه ، ولكم ثالثاً فى معدته ..

ولكن ( فون كلايست ) لم يكن مستعداً للتراجع أو الهزيمة ..

أبداً .. وبصيحة هادرة منه ، ترك كل رجاله مكانهم ، وانقضوا  
على ذلك الجاسوس الخفى ، وهو يصرخ فيهم :  
لا تسمحوا له بالفرار .. أريده حياً ..

بذل الرجال جهداً لا مثيل له على الرغم من الركلات واللكمات  
التي تنهال عليهم كالمطر للسيطرة على الرجل ، الذى أدهش  
( فون كلايست ) بقتاله الشرس والعنيف ، على الرغم من  
المناورات الطويلة ، التي قام بها أثناء المطاردة .. ولكن كما  
يقولون .. الكثرة تغلب الشجاعة لذا فقد نجح الرجال أخيراً ، فى  
السيطرة على الجاسوس الخفى ، ومال ( فون كلايست ) لينزع  
تنكره قائلاً :

أخيراً ، يمكننا رؤية وجهك الحقيقى.

تجمد فى مكانه ، عندما انطلقت ضحكة ساخرة عالية من  
الجاسوس قبل أن يفتح كفه ، فتبدو داخله قنبلة يدوية منزوعة  
الفتيل ، وبكل ما يملك من قوة ، وبأقصى سرعته ، انطلق ( فون  
كلايست ) يعدو مبتعداً وهو يصرخ برجاله:

تراجعوا .. بسرعة.

لم تكد صرخته تكتمل .. حتى دوى الانفجار من خلفه ، انفجار  
قوى دفع جسده دفعة عنيفة ، جعلته يطير لأربعة أمتار كاملة ،

وهو يشعر بلفح النار فى ظهره ، قبل أن يسقط على وجهه  
ولثوان ، بدا له كل شيء مشوشاً ، ثم لم يلبث أن استعاد صفاء  
ذهنه ، فنهض فى سرعة وأسرع يلقى نظرة على ما حدث .

لقد حافظ الجاسوس الخفى على غموض هويته ، حتى اللحظة  
الأخيرة ..

فالقنبلة اليدوية مزقت جسده تماماً ، وحولت وجهه وجمجمته  
إلى أشلاء وقتلت فى الوقت ذاته ثلاثة من رجال ( فون  
كلايست ) وأصابت اثنين آخرين بإصابات خطيرة.

وعندما أبلغ ( فون كلايست ) ( هملر ) بالأمر ، لم يستقبله  
هذا الأخير بالدرجة التي تتناسب مع الموقف فصحيح أن الجاسوس  
الخفى لقد لقي مصرعه ، ولكن بعد أن أنجز الجزء الأخير من  
مهمته بنجاح منقطع النظير إذ أصدر ( هتلر ) بالفعل قراره  
بإيقاف القتال فوراً على الجبهة الروسية ، ورفض بإصرار كل  
محاولات جنرالاته ، لإقناعه بالمضى فى القتال حتى يتم سقوط  
( موسكو ) على الأقل .. وتوقف الجيش الألمانى ، على مسافة  
كيلومترات قليلة من ( موسكو ) ..

وجاء الشتاء .. أعنف شتاء شهدته ( روسيا ) منذ نصف  
قرن ..

## الجليد الدامى ..

فجأة ، ودون مقدمات منطقية ، وعلى الرغم من معاهدة عدم الاعتداء بينهما ، شن ( هتلر ) هجومه الضارى على الاتحاد السوفيتى ، فى الحرب العالمية الثانية .

أسباب ومبررات عديدة ساقها التاريخ ، وقدمتها وثائق سرية ، نشرتها كل الأطراف التى شاركت فى الحرب ، فيما عدا الاتحاد السوفيتى بالطبع ، فى محاولة لتحديد سر إقدام ( أدولف هتلر ) وقوات الرايخ الثالث ، على تلك الخطوة العجيبة ، فى وقت كانت ألمانيا النازية فى أشد الحاجة فيه ، لحشد كل جندى فى جيوشها ، على الجبهة البريطانية التى أوشكت بالفعل على الانهيار .

ولكن أيًا من هذه الأسباب والمبررات لم يكن يعنى الشعب السوفيتى ، أو الجيش الأحمر ، الذى بوغت بالهجوم النازى ، وراح ينسحب ويندحر أمامه ، غير قادر على الصمود أو المقاومة أو صد الهجمات العنيفة الشرسة .

وبسرعة أذهلت وأفزعت ( أوروبا ) كلها ، راح الجيش النازى يتقدم ويتقدم ، فى الأراضى السوفيتية ، ويسحق أمامه كل مقاومة ، بمنتهى القسوة والوحشية ، حتى صار على مشارف العاصمة ( موسكو ) مما دفع القيادة السياسية والعسكرية السوفيتية إلى ترك المدينة ، والفرار إلى مدن أخرى ، وكأنها تعلن هزيمتها المريرة .

وانهزم الجيش الألمانى ، وسط ثلوج ( موسكو ) ، وتغير مصير الحرب كلها ، منذ ذلك الحين ..

ولولا مذكرات ( إيريك فون كلايست ) التى عثر عليها المؤرخون فى منتصف الستينات ، لما أدرك أحد أن شخصًا واحدًا ، كان له الفضل فى تغيير المسار ، جاسوس واحد اخترق كل نظم الألمان الصارمة ، حتى وصل إلى ( هتلر ) نفسه ..

جاسوس لم يعترف جهاز مخابرات واحد بانتمائه إليه ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ، لذا فقد حمل حتى يومنا هذا ، لقبًا فريدًا ، فى عالم المخابرات ..

لقب الجاسوس الخفى ..

\*\*\*

وانتظر العالم كله فى قلق ، دخول قوات النازى إلى ( موسكو )  
وسقوط العاصمة العريقة ، وارتفاع علم الصليب المعقوف على  
الكرملين ..

ولكن ( هتلر ) فاجأ العالم مرة أخرى ، بتوقفه بغتة عن القتال ،  
وكمون قواته وسط الغابات المحيطة بالعاصمة السوفيتية ، وعلى  
بعد خمسة وأربعين كيلو مترًا منها فحسب ..

وكان أول من باغتهم هذا هو قائده أنفسهم ، والذين لم يفهموا  
قط سبب التوقف المباغت ، على هذه المسافة القليلة ، من عاصمة  
أعلنت استسلامها بالفعل ، وسلمت مفاتيحها معنويًا ، ولم يعد  
بأقيا سوى استسلامها ، وفتح أبواب المدينة على مصاريعها .

كل شيء كان يؤكد أن قرار الفوهرر خاطئ بكل المقاييس ..

كل شيء بلا استثناء ..

ولكن من يجرؤ على معارضة أعظم ديكتاتور ، عرفته ( أوروبا ) ،  
فى العصور الحديثة؟! ..

وأطاع الكل ..

الجيش والضباط والجنرالات ..

وعلى الرغم من اقتراب الشتاء ، وبرودة الطقس ، توقف  
الجيش النازى على مشارف موسكو ، ولم يحاول دخولها ، لينعم  
فيها بالدفء ، والجدران وحياء المدن ..

ولسوء حظ النازيين ، وحسن حظ السوفيت ، جاء الشتاء  
قاسيًا للغاية ، على نحو لم تعرفه تلك المنطقة ، منذ ما يزيد على  
نصف القرن .

وكانت فرصة مدهشة للسوفيت ، لا يمكن إضاعتها أبدًا ..

مهما كان الثمن ..

وتحت الجليد المنهمر ، حملت سيارة قديمة ضابطًا سوفيتيًا  
شابًا ، لتشق به شوارع ( ليننجراد ) ، التى خلت تمامًا من  
المارة ، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، دون أن يتبادل  
ركابها حرفًا واحدًا مع الضابط الشاب ، الذى أطبق شفتيه فى  
تماسك ، على الرغم من أن عقله يكاد يلتهب بالتساؤل ، عن  
سبب إيقاظه بعد منتصف الليل ، وحمله فى سيارة مدنية إلى جهة  
مجهولة ، بأمر يحمل توقيع مدير المخابرات السوفيتية شخصيًا .

وفى ذهنه ، وضع الضابط الشاب عشرات الاحتمالات ..

ولكنه لم يستقر على أحدها أبدًا ..

كل احتمال يبدو منطقيًا فى البداية ، ثم لا يلبث عقله أن  
يرفضه أو يلفظه ، لوجود خلل ما هنا ، أو قصور ما هناك .

لذا فقد ألقى كل محاولاته جانبًا ، وقرر أخيرًا أن يسترخى فى  
مجلسه ، وأن يترك الجواب للوقت ..



ولكن حتى الاسترخاء بدا أشبه بحلم صعب المنال ، فى تلك اللحظات ..

وأخيراً ، وبعد نصف ساعة من الانطلاق ، تحت الجليد المنهمر ، توقفت السيارة عند مبنى عريق ، ودعاه قائدها للهبوط ، حيث استقبلتهما خلف أبوابه موجة من الدفء ، سرت فى عروق الضابط السوفيتى الشاب ، فانتعش ، وملاً صدره بالهواء ، وشعر بشيء من الهدوء ، وهو يسير عبر ممرات المبنى ، خلف ذلك المدنى ، الذى قاده إلى حجرة كبيرة ، ثم التفت إليه ، قائلاً فى حزن :

- اخلع معطفك ، وعدل هندامك .

أطاعه الضابط الشاب فى سرعة ، فطرق الرجل الباب ، وتحنج ، ثم دفعه ، قائلاً وهو يفسح الطريق أمام الضابط :

- الملازم ( إيزاك ميلا نوفيتش ) يا جنرال .

ومع عبارته ، أدرك الشاب ، وهو يخطو داخل الحجرة ، أنه سيلتقى لسبب ما بأحد جنرالات الجيش السوفيتى ..

ولكنه لم يكد يذلف إلى المكان فعلياً ، حتى شعر بكل نرة فى كياته ترتجف .. وبمنتهى العف .. فالحجرة لم تكن تضم جنرالاً واحداً ..

بل خمسة جنرالات دفعة واحدة ..

ولكن ذلك الجنرال فى المنتصف ، والذى حدجه بنظرة نارية ، كان هو السبب الرئيس لانتفاضته ..

هذا لأنه كان مدير المخابرات السوفيتية شخصياً ..

وبمنتهى القوة والحزم ، شد ( إيزاك ) قامته ، وأدى التحية العسكرية بمنتهى القوة ، وهو يقول :

الملازم ( إيزاك ميلانوفيتش ) يا سادة ..

تطلع إليه الجنرالات الخمسة فى صمت ، ثم تهامسوا مع بعضهم لدقيقة كاملة تقريباً ، قبل أن يقول مدير المخابرات السوفيتية فى هدوء :

تقدم أيها الملازم ..

تقدم ( إيزاك ) نحوه بخطوة عسكرية ، فتراجع الرجل فى مقعده ، وسأله فى اهتمام شديد :

ما جنسية أمك أيها الملازم !؟

لم يكن السؤال متوقعاً على الإطلاق ، لذا فقد اتسعت عينا الملازم الشاب ، وسرت فى جسده قشعريرة باردة ، وهو يجيب بمنتهى الحذر :

- ألمانية يا سيدى الجنرال .

كان ينوى الاكتفاء بهذا القول ، إلا أنه وجد نفسه يندفع  
مستطرذا:

- ولكنها كانت شيوعية مخلصه ، وعضوا بارزا في الحزب ...

قاطعة الجنرال بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

- لا بأس أيها الملازم .. لا بأس ..

أطبق ( إيزاك ) شفتيه ، وإن لم يستطع منع تلك الارتجافة ،  
التي سرت في جسده ، والجنرال يسأله :

- هل علمت أمك اللغة الألمانية؟!!

نطقها الجنرال بالألمانية ، فأوما الشاب برأسه ، وأجاب باللغة  
نفسها :

- هذا ما نصحتها به خبراء الحزب يا سيدي .

سأله جنرال آخر:

- هل تحفظ شيئا من الشعر الألماني؟!!

راحت الأسئلة تنهال على الضابط الشاب بالألمانية ، وهو يجيب  
بمنتهى السرعة والطلاقة ، وبثقافة واسعة ، جعلت أحد الجنرالات  
يتوقف ، ويقول بالروسية :

- إنه مناسب تماما .

غمغم مدير المخابرات السوفيتية :

- بالتأكيد .

ثم أشار إلى ( إيزاك ) ، مستطرذا في حزم :

- اجلس أيها الملازم .

تنحج ( إيزاك ) ، مغمما في حرج :

- عفوا يا سيدي الجنرال .

انعقد حاجبا الجنرال الكئيب ، وهو يقول في صرامة :

- اجلس .. هذا أمر .. الحديث سيطول ، وأريدك أن تسترخي

تماما ، لتستوعب كل حرف منه .

وجلس ( إيزاك ميلانوفيتش ) ..

وبدأت العملية ..

الجلد انهمر بكثافة ليس لها مثيل ، في ذلك الموسم بالذات ..

اللون الأبيض غطى كل شيء ، وسيطر على كل ما يقع عليه

البصر .

الأرض ، والجبال ، والأشجار ، والأنهار ...  
كل شيء بلا استثناء ..

ومع انهيار الجليد ، انخفضت درجات الحرارة على نحو مخيف ،  
حتى بالنسبة للسوفيت أنفسهم ..

ولأن السوفيت قد اعتادوا ذلك الطقس البارد جدًا ، والذي  
تضاعفت برودته مرتين على الأقل ، فقد كانت ثيابهم ، المدنية  
والعسكرية ، مؤهلة للتعامل معه على نحو ما ..

صحيح أنها تفتقر إلى الأناقة ، وتجعلهم أشبه بالدببة البرية ،  
أو برجال الكهوف القدامى ، إلا أنها كانت تمنحهم الدفء اللازم .

هذا بالإضافة إلى أنهم يقيمون في العاصمة ، داخل بيوت  
مغلقة ، وجدران محكمة ، ونظم تدفئة عريقة متقنة .

على عكس الألمان تمامًا ..

فالنازيون كانوا يقيمون في العراء تقريبًا ، والجليد يحيط بهم  
من كل صوب ، والنيران التي يشعلونها ، على الرغم من  
شدتها ، لا تكفي لبعث الدفء في عروقهم .

ثم إن ثيابهم كانت أنيقة أكثر مما ينبغي ..

أنيقة حتى إنها لا يمكن أن تقيهم ذلك البرد القارص ، الذي  
بلغ في ذلك العام ما يقل عن على الخمسين تحت الصفر .

وراحت أقدام الألمان تتجمد في أحذيتهم الأنيقة ، وبولهم أخذ  
يتجمد ، فور خروجه من أجسادهم ، وآذانهم تساقطت على نحو  
مخيف ..

وانهارت الروح المعنوية الألمانية ..

وعلى نحو لم يحدث قط منذ بدأت الحرب العالمية الثانية ..

وسط كل هذا ، جاء دور ( إيزاك ميلا نوفيتش ) ..

فوسط صفوف الجيش النازي ، الذي يلتهمه الجليد بلا رحمة ،  
ظهر ضابط شاب ، يرتدى معطفًا سميكًا ، فوق حلته النازية  
العسكرية ، وراح يتجول بين الصفوف ، ويلقى أوامره الحازمة  
هنا وهناك ..

ولأنه كان ألماني الملامح واللغة ، ولأن الظروف لم تكن  
توحى باحتمال تسلل أي جاسوس سوفيتي إلى الصفوف النازية ،  
فقد تقبل الكل وجوده في استسلام تام ، حتى أصبح مرآه معتادًا ..

وفي كل مرة ، يتوقف فيها ذلك الضابط الشاب ، وسط جنود  
الجيش النازي ، كان يتحدث إلى الرجال بأحاديث تبدو بريئة ،  
ولكنها كانت تكفي لتحطيم الروح المعنوية لهم أكثر وأكثر ..

فمرة يذكر عدد الضباط والجنود ، الذين بترت أقدامهم ، بعد  
أن تجمدت داخل أحذيتهم طويلة الأعناق ..

ومرة أخرى يتحدث عن القوات السوفيتية ، التي انتهزت فرصة انهيار الجليد ، وراحت تعيد تنظيم صفوفها ، وتطلق رجالها لمحاصرة الجيش النازي ، استعدادًا لتصفيته وسحقه ، فور ذوبان الجليد ..

ومرة ثالثة يتحدث عن هزائم مزعومة للجيش النازي في قلب ( أوروبا ) ..

باختصار ، كان ( إيزاك ميلانوفيتش ) يعمل كإذاعة موجهة متنقلة ، تبث إرسالها في قلب الجيش النازي مباشرة ..

وعلى الرغم من أن عمله هذا كان يحقق نتائج مبهرة ، ويحطم بلا رحمة كل ذرة من الأمل والمقاومة ، في أعماق ضباط وجنود الجيش النازي ، إلا أن ( إيزاك ) - الذي أطلقوا عليه فيما بعد اسم ( ثعلب الجليد الأبيض ) - لم يكتف بهذا الدور المهم ، والبالغ الخطورة إلى حد كبير ..

لقد قام أيضًا بدور آخر ، لا يقل عنه أهمية وخطورة ..

كان يحدد مواقع القوات الألمانية ، وأماكن أسلحتها ونخائرها ..

ثم يترك الباقي لما أطلقوا عليه اسم ( الجيش الأبيض ) ..

والجيش الأبيض هذا كان فرقة من رجال الكوماندوز السوفيت ، حملت هذا الاسم لأن رجالها يرتدون زيًا أبيض ، وقبعات رأس بيضاء ، ويستخدمون الزلاجات في تحركاتهم وسط الجليد الأبيض ، بحيث يصبحون أشبه بجيش من الأشباح ..

وعندما يتحرك أفراد الجيش الأبيض في الليل ، كان من المستحيل تمييزهم عما يحيط بهم من جليد ..

ولكن رصاصاتهم كانت تميز النازيين بمنتهى السهولة .. ومنتهى الدقة ..

وعبر مجموعة من الهجمات ، بأسلوب حروب العصابات ، تساقط ضباط وجنود الجيش النازي على الجليد السوفيتي .. وأريق دماؤهم أنهارًا ..

وحتى تلك الدماء ، تجمدت على الجليد ..

وأصبح ذلك الجليد الدامي نفسه سلاحًا رهيبًا ، لتحطيم الروح المعنوية النازية ..

وبمنتهى العنف ..

وخلال شهرين فحسب ، في شتاء الاتحاد السوفيتي الرهيب ، فقد الجيش النازي ما يزيد على ثلاثين من المائة من قواته ..

وأكثر من سبعين من المائة من معنوياته ..

وصلت الأنباء إلى القيادة النازية في ( برلين ) ، وإلى الفوهرر شخصياً ..

وكانت أسوأ أنباء بلغته ، منذ أن أعلن الحرب على ( أوروبا ) كلها ، خاصة وأن الجبهة البريطانية ، التي انضمت إليها القوات الأمريكية ، كانت قد بدأت في تحقيق انتصارات واضحة ، على الجبهة الأوروبية ، مستغلة انشغال وإرهاق القوات النازية ، على الجبهة السوفيتية ..

وكان على ( هتلر ) أن يتخذ أصعب قرار في حياته ..

قرار الانسحاب من الجبهة السوفيتية ..

ولقد جاء هذا القرار متأخراً للغاية ..

ومع بدء الانسحاب ، تلقى ( إيزاك ميلا نوفيتش ) أوامر جديدة ، بتحديد مواقع قيادات الجيش النازية المنسحبة ..

ومرة أخرى قام السوفيتي الشاب بواجبه خير قيام ..

ومع المعلومات الغزيرة ، التي راح يرسلها إلى القيادات السوفيتية ، من قلب الجيش النازي ، راح السوفيت يوجهون ضرباتهم إلى الألمان ..

وتساقطت قوات النازي أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

ومع أخبار تساقطها ، وزحف السوفيت خلفها ، عبر شرق ( أوروبا ) ، انهارت الروح المعنوية الألمانية في عنف ، وانحسرت إلى حد كبير روح الحماسة ، تجاه حكومة الرايخ الثالث ، وقائدها الأسطوري ..

وعلى الجبهة الأوروبية الغربية ، حقق الحلفاء انتصاراً ساحقاً ، بالهبوط في ( نورماندى ) ، وتحرير ( فرنسا ) ، والزحف نحو ( برلين ) ..

والعجيب أن ( إيزاك ) ظل يقوم بدوره ، داخل صفوف الجيش النازي ، دون أن تثار حوله الشكوك ، أو ينكشف أمره مرة واحدة ، مما يعكس حالة الاضطراب والفوضى ، التي سادت القوات النازية ، مع الهزيمة ، والاندحار ، والانسحاب ..

وعندما بلغ مشارف ( برلين ) ، تلقى ( إيزاك ) أوامر صارمة من القيادة في ( موسكو ) ، بنزع الثوب النازي ، والعودة إلى زيه العسكري السوفيتي ، لقيادة فرقة خاصة ، مهمتها اعتقال الجنرالات والضباط النازيين .

وهنا .. هنا فقط انكشفت هوية السوفيتي الشاب ..

ولأنه عايشهم شخصياً ، كان من السهل على ( إيزاك ) أن

يوقع بعدد هائل من جنرالات وضباط الجيش النازي ، وتقديمتهم  
للمحاكمة باعتبارهم مجرمي حرب ..

ووضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها أخيراً ، في ( أوروبا ) ،  
ليصبح ( إيزاك ميلانوفيتش ) أسطورة مبهرة ، لكل من عرف  
بأمره أيامها ، وخاصة أنه لم يصب بخدش واحد ، طوال عملية  
تعد من أطول العمليات الاستخباراتية المباشرة ، في تاريخ الحرب  
العالمية كلها ..

ولم ينكشف أمره أبداً ، على الرغم من قضائه ما يزيد على  
عامين وسط صفوف أعدائه في قلب الجليد ..

الجليد السوفيتي ..

الدامي .

\*\*\*

## الخيرة ..

على الرغم من اندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939م ،  
وامتداد لهيبتها إلى أماكن شتى في ( أوروبا ) و ( آسيا ) و ( أفريقيا ) ،  
إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية ظلت تكتفي بدور المشاهد والمراقب ،  
وتبدي تعاطفها مع ( بريطانيا ) وباقي دول ( أوروبا ) ، عن طريق  
إمدادها بالأسلحة والذخائر فحسب ، وربما ببعض خبراتها العسكريين  
والسريين ، الذين اكتسبوا من ( أوروبا ) وحربها خبرات واسعة ،  
كان من المستحيل اكتسابها ، دون احتكاك مباشر ، وباستماتة  
قاتلت ( أوروبا ) وناضلت لإقناع الأمريكيين بدخول الحرب العالمية ،  
لترجيح كفة ( بريطانيا ) ، وتزويدها بحليف قوى ، وممول عسكري  
بعيد عن ميدان القتال الفعلي ، ولكن الأمريكيين استبعدوا الفكرة  
تماماً ، باعتبار أنهم على الجانب الآخر من المحيط وليس من المنطقي  
أن يمتد إليها القتال بأي حال من الأحوال ..

ولكن ( اليابان ) كان لها رأى آخر .

ففجأة ، ودون مقدمات أو مبررات أو أسباب منطقية واضحة ،  
خرج الأسطول الياباني إلى المحيط الهادي ، حاملاً عدة أسراب من  
الطائرات المقاتلة ، ليشن غارة مباغتة على الأسطول الأمريكي  
في ( بيرل هاربور ) ..

وكانت صدمة عنيفة للغاية ، بالنسبة للأمريكيين ..

لقد انسحق أسطولهم في (بيرل هاربور) تمامًا ، وانتهى أمره في دقائق معدودة ، وغاصت معظم قطعه في أعماق المحيط ، مع عدد هائل من القتلى والضحايا ، الذين صبغت دماؤهم مياه المحيط بذلك اللون الدموي القاني المخيف ..

وهنا لم يعد هناك مفر .

وأعلنت ( أمريكا ) دخولها الحرب العالمية الثانية .

وبدأ الأمريكيون مرحلة جديدة ، تنفس معها البريطانيون الصعداء ، وشعروا بالارتياح لأن حليفًا قويًا قد انضم إليهم ، وضاعف من قوتهم ثلاث مرات على الأقل .

وعلى الرغم من قوة الأمريكيين وعظمة تسليحهم ، إلا أنهم بدوا كالتلاميذ الصغار ، وهم يتلقون نصائح ، وخبرات حلفائهم البريطانيين ، أصحاب الباع الطويل في الحروب الاستعمارية ، على مدى عدة قرون .

وعلى يد البريطانيين تعلم الأمريكيين عشرات الخبرات الحربية ، والعسكرية والقتالية ، وعلى رأس كل هذا ، تعلموا أن الحروب لا تنحسم بالقتال المباشر وحده ، ولكنها تحتاج أيضًا إلى حروب غير مباشرة ، يكون لها دومًا أكبر الأثر ، في تحديد مصائر الشعوب ، في الحرب والسلام أيضًا .

ورويذا رويذا بدأ الأمريكيون يدركون أهمية عمليات التجسس والمخابرات خاصة وهم يسعون لتوجه ضربة ثأرية مضادة لليابانيين .

ولكن التجسس على اليابانيين لم يكن قط بالأمر السهل ، السبب جيني بحت ، ألا وهو أن ملاحظهم مميزة للغاية ، ومن المستحيل دس أي غريباء وسطهم ، دون أن ينكشف أمرهم ، كما لو كانوا بقعة سوداء ، فوق أرضية ناصعة البياض .

الروس أمكنهم تجاوز هذه العقبة ، بتجنيد أحد العاملين في السفارة الألمانية في ( طوكيو ) ، أما الأمريكيون ، فقد لجئوا إلى وسيلة مختلفة تمامًا ..

إلى البحث عن طبعة أمريكية من الملاح اليابانية الخالصة .

في تلك الفترة ، كانت السلطات الأمريكية قد احتجزت كل من يقيم على أرضها من أصحاب الأصول اليابانية ، كإجراء وقائي ، لاتقاء نمو طابور خامس وسط أراضيها ، لذا كان من السهل ، أن تبحث إدارات الأمن الأمريكية عن هدفها وسط المحتجزين .

وأثناء اتهمك الكل في مراجعة آلاف الملفات فاجأهم الكولونيل ( جون إدواردز ) في إدارة الشرطة الحربية بعثوره على العميلة المثالية لهذه المهمة .

( سوماتيانى ) ..

و ( سو ) هذه حالة خاصة للغاية ، التقى بها الكولونيل ( إدواردز )  
بالمصادفة البحتة ، أثناء زيارته لشقيقته المتزوجة من إيطالي ثرى ،  
فى أحد أحياء ( واشنطن ) الراقية .

فهناك ، عند شقيقته ، التقى ( إدواردز ) بتاجر اللحوم الإيطالى  
( ألبرتو مانياز ) ، وابنته ( سو ) ، التى تتحدث وتتفاعل بروح  
إيطالية صرفة ، على الرغم من أنها تحمل ملامح يابانية لا يتطرق  
إليها أدنى شك .

ولأن هذا يدخل فى نطاق عمله ومهمته ، راح ( إدواردز ) يتجانب  
أطراف الحديث مع تاجر اللحوم الإيطالى ، فى محاولة لمعرفة  
تاريخ ابنته ( سو ) .

وكانت قصة بسيطة للغاية فى الواقع .

فقد هاجر والد ( ألبرتو ) إلى ( أمريكا ) مع مطلع القرن ،  
وبدأ تجارة صغيرة محدودة فى اللحوم ، ورثها ابنه بعد هذا بربع  
قرن ، ليحولها إلى إمبراطورية ضخمة ، فى نفس الوقت الذى  
وصل فيه اليابانى ( أساشى ) إلى ( أمريكا ) ، ليبدأ مع عائلته  
تجارة محدودة فى أدوات المطابخ وموائد الطعام .

وعن طريق عالم التجارة ، التقى الطرفان ، وسقط الإيطالى  
( ألبرتو ) فى غرام ابنة اليابانى ( أساهى ) من النظرة الأولى ،

وقرر أن تصبح زوجته .. ومهما كان الثمن ، لم يكن الأمر سهلاً  
أبداً ، ولقد عارضت الأسرتان هذا الزواج بمنتهى العنف ، ولأن  
الإيطاليين واليابانيين يتميزون بالعناد والإصرار ، لذا فقد قاتل  
( ألبرتو ) ، وقاتل .. وقاتل ..

ثم فاز بالغنيمة فى النهاية ..

وعلى الرغم من غضب الأسرتين ، إلا أن كل أفرادهما قد  
حضروا حفل الزفاف الأنيق ، الذى بدا فيه العروسان فى أوج  
أناقتهما وسعادتهما ..

وبعد أقل من عام واحد ، جاءت ( سو ) إلى الوجود ..

جاءت لتسعد أهل أمها بملامحها اليابانية الصرفة ، ولتعيد  
السخط إلى عائلة ( ألبرتو ) ، وخاصة عندما توسلت أمها إلى  
والدها ، ليمنحها اسم ( سو ) وهو اسم يابانى شائع .

ونمت ( سو ) بين عائلتين ، واحدة إيطالية ، والأخرى  
يابانية ، فى مجتمع أمريكى متحرر ، لتبلغ الثامنة عشرة ، وهى  
تتعایش مع المجتمعات الثلاثة بمهارة وذكاء مدهشين ، إذ لم  
تكن تتحدث سوى الإيطالية مع عائلة والدها واليابانية مع عائلة  
أمها ، والأمريكية الصرفة مع زملاء شارعها ومدرستها ، دون  
أن تخطئ بحرف واحد ، ولا مرة واحدة ..



وبالنسبة للكولونيل ( إدواردز ) كانت الفتاة مدهشة ، ومثالية للعمل المنشود ، خاصة أن العائلات الثلاثة قد نشأتها على الشعور بالانتماء لوطنها الجديد ( أمريكا ) ..

ولم يصارح ( إدواردز ) الفتاة بالأمر بالطبع ، وإنما طرح الفكرة أولاً على رؤسائه ، الذين استقبلوا الأمر بنوع من التحفظ ، خاصة وأن عمر الفتاة لم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة بعد ، والمهمة التي ستوكل إليها بالغة الأهمية والخطورة إلى حد كبير ، ولكن الكولونيل ( إدواردز ) دافع عن وجهة نظره باستماتة ، وأكد أن الفتاة بالغة الذكاء ، وأنها ستتعلم كل ما يمكن تلقينها أياه بسرعة كبيرة ..

ولقد استغرقت مناقشة الفكرة أسبوعين كاملين ، قبل أن يصدر القرار بالموافقة ، ويتم إسناد العملية كلها إلى الكولونيل ( آلان راسيل ) ، الوحيد الذي عمل يوماً مع المخابرات البريطانية ، واكتسب منها لمحة في الخبرة في هذا المضمار ..

وبعد أسبوعين آخرين من المراقبة والمتابعة ، التقى الكولونيل ( راسيل ) بانيابانية الإيطالية الأمريكية ( سوماتياتي ) ، وجلس يتحدث معها ثلاث ساعات كاملة ..

ولقد كانت الفتاة ناضجة للغاية بالفعل ، وعقلها يفوق عمرها

بعدة سنوات ، لذا فقد استوعبت الموقف كله ، وألقت عددًا محدودًا من الأسئلة يؤكد ذكاءها وتفتحها ، قبل أن تعلن موافقتها على القيام بالمهمة ، ولكن بشرط واحد ..

أن يتم نقل أسرة أمها كلها ، من معسكرات الاحتجاز العامة ، إلى مكان آخر ، يلقون فيه أفضل معاملة ممكنة .

ولقد وافق الكولونيل ( راسيل ) على شرطها فوراً ، وبلا تردد ..

وبدأت العملية ..

الأمر الوحيد ، الذي لم تتضمنه الوثائق الأمريكية التي نشرت مؤخراً حول عملية ( سوماتياتي ) ، هو كيفية إقناع والدها الإيطالي القح ، بأن تقوم ابنته بمهمة على درجة عالية من الخطورة كهذه ..

ولكن المهم أن ( سو ) ، قد سافرت بعد ثلاثة أشهر فحسب إلى ( أوروبا ) ، وهي تحمل مجموعة من الأوراق والوثائق ، التي تؤكد يابانيتها ، وانتماءها إلى الجزر اليابانية ..

أما تلك الأشهر الثلاثة ، فقد خضعت ( سو ) خلالها لدورات تدريبية مكثفة ، درست خلالها كل شيء عن ( اليابان ) ، وكيفية التعايش هناك ، وأساليب إرسال المعلومات ، عن طريق البريد ، والبرق اللاسلكي ، واستخدام الشفرة ، وغير ذلك ..

وحتى لا يثير أمرها الشكوك أو الشبهات ، قضت ( سو ) في ( أوروبا ) ، أربعة أشهر أخرى ، منها ثلاثة أسابيع في ( برلين ) نفسها ، قبل أن تتجه إلى ( طوكيو ) ، التي وصلتها في أواخر عام 1942م ، لتبدأ عملية تثبيت أقدامها هناك .

ولأن تثبيت الأقدام هو أهم وأخطر مرحلة ، في عمليات الزرع المخبرانية ، فقد تلقت ( سو ) أوامر مشددة ، بالألا تحاول القيام بأية عمليات تجسسية ، خلال تلك الفترة ، مهما تكن الأسباب ..

ولقد التزمت الفتاة بالأوامر تمامًا ، وراحت تعمل على تأكيد وضعها في المجتمع الياباني ، باعتبارها من أبناء إحدى الجزر اليابانية الصغيرة ، الساعية للوقوف مع حكومتها ، خلال مرحلة الحرب والمواجهة ..

ولأن ملامحها رقيقة بريئة ، وابتسامتها العذبة لا تفارق شفتيها أبدًا ، فقد نجحت ( سو ) في اكتساب عشرات المتعاطفين ، والمتعاونين ، والأصدقاء الذين تبنا أمرها ، وتحمسوا لحمايتها ، وراحوا يسعون لتوفير عمل لها ، تستغل فيه إجادتها للغة الإنجليزية ، التي لقيتها إياها خادمة هندية قديمًا ، على حد روايتها المصطنعة المتقنة .

وبعد خمسة أشهر كاملة ، استقرت ( سو ) في العمل مترجمة

في إدارة مسؤولة عن تقديم تقارير شهرية عما تنشر الصحف البريطانية والأمريكية ، التي يتم تهريبها إلى ( طوكيو ) .

ولأنها أبدت تفوقًا ملحوظًا ، على الرغم من صغر سنها ، فقد تم نقلها إلى قسم خاص باعتراف الإشارات اللاسلكية ، التي بدأت تتزايد على نحو ملحوظ خلال النصف الثاني في الحرب العالمية الثانية ..

ولقد قامت ( سو ) بعملها على خير وجه ، وراحت تترجم كل ما تسمعه ، على الرغم من أنه يبدو أحيانًا وكأنها لا معنى له ، وخاصة مع استخدام أنواع الشفرة الجديدة ، التي ابتكرها البريطانيون ..

وظوال كل هذا ، وعلى الرغم من وجودها في قلب الأحداث كما يقولون ، لم تحاول ( سو ) القيام بأي عمل ، يمكن أن يثير حولها الشبهات ، بل لقد بدت أكثر التزامًا وحسمًا من اليابانيين الأصليين أنفسهم وهي تقدم تقاريرها بمنتهى الدقة والانتظام ، إلى الحد الذي جذب إليها انتباه القيادة العسكرية اليابانية ، التي رأت ضرورة الاستفادة من براعتها في عمل أكثر أهمية وخطورة ..

أما ( سو ) نفسها ، فقد بدأ التوتر يتصاعد في أعماقها ، مع

مرور الوقت وبدأ الوقت يمضى بالنسبة لها فى بطء شديد ،  
وهى تتساءل ، ترى متى ستبدأ عملها الحقيقى ، الذى تركت من  
أجله أسرتها ، وقبلت عملية زرعها فى قلب عدو ، لن يتردد  
لحظة فى قطع عنقها ، وتقطيعها إربًا ، إذا ما انكشف أمرها ..

وقبل أن يبلغ توترها منتهاه ، صدر قرار بتعيينها فى قسم  
الشفرة السرى مسئولة عن بث البرقيات الشفريّة ، التى ترسل  
إلى عملاء ( اليابان ) السريين ، فى قلب ( بريطانيا ) و ( أمريكا ) .

وكان هذا القرار مفاجأة مذهلة لها ، ودليلاً قوياً على نجاح  
عملية زرعها فى قلب المجتمع اليابانى إلى أقصى حد ، خاصة  
أن اليابانيين قد تحروا أمرها حتمًا ، قبل وضعها فى منصب  
شديد الحساسية كهذا ، ومن الواضح أنهم قد اقتنعوا بالتاريخ  
الزائف ، الذى صنعه لها الأمريكيون ، والذين اعتمدوا فيه على  
وقائع حقيقية ، فى قلب مجتمع الجزر اليابانية الصغيرة العديدة ..

وفى موقعها هذا ، أصبحت ( سو ) قادرة على الاطلاع على  
كل ما يبث إلى عملاء المخابرات اليابانية فى ( أوروبا )  
و ( أمريكا ) ، وقادرة على معرفة الأسماء الكودية لكل هؤلاء  
العملاء .. وإن ظلت عاجزة عن تحديد هويتهم الحقيقية  
بالطبع .. كل هذا ، وإشارة البدء لم تصل بعد ..

وعاد التوتر يتصاعد فى أعماقها أكثر وأكثر ، وبدأ لها أنها  
تعمل ، فعليًا .. لصالح المخابرات اليابانية ، وليس لصالح  
الأمريكيين ، الذين لم يكن لديهم جهاز مخابرات فعلى ، حتى تلك  
اللحظة ..

ومع منتصف عام 1943م ، شارفت ( سو ) على الانهيار ،  
وتصورت أن الأمريكيين قد أرسلوها إلى ( اليابان ) ثم نسوا  
أمرها تمامًا ، وحكموا عليها بالعمل لحساب جهة تبغضها إلى  
الأبد ..

ولكن فجأة ، وفى أوائل أكتوبر 1943م ، وبعد أن بلغ منها  
اليأس مبلغه ، وصلتها الإشارة المتفق عليها ..

برقية لاسلكية شفريّة ، وصلتها للقيام بترجمتها ، وبدأت  
عادية للغاية ، ككل البرقيات الشفريّة التى يتم اعتراضها ، ولكن  
قلب ( سو ) انتفض بين ضلوعها ، وهى تترجم كلماتها القليلة ،  
التي حوت العبارة السرية الخاصة ..

وبعدها توالى البرقيات الشفريّة ، التى تحمل لها أخبار وأوامر  
الأمريكيين ..

وكم كانت دهشتها ، عندما اكتشفت أنهم على دراية تامة بكل  
تطوراتها ، وبالمصعب الذى استقرت فيه أخيرًا ، فى قلب القيادة

اليابانية !! مما يعنى أن هناك من يتابعها ، ويرصد تحركاتها  
وتطوراتها منذ البداية ، وحتى هذه اللحظة ..

ولم بغضبها هذا ، وإنما على العكس ، بث فى نفسها شعورًا  
بالارتياح والاطمئنان والثقة ، لأنها ليست وحدها فى قلب الأحداث ..  
وبدأت ( سو ) العمل ، الذى تكريت على القيام به منذ البداية ..

ومن موقعها هذا ، فى القيادة اليابانية ، كان الأمر أسهل مما  
يمكن تصوره ، فبين أيديها حفنة من المعلومات والأسرار  
لا حصر لها ، وهى تملك نظم البث والاستقبال ، دون الحاجة إلى  
التعمية أو التورية أو التخفى ..

كلمات قليلة تضاف هنا أو هناك ، أو تبث خارج الجدول ،  
يكفيان لإرسال كل المعلومات المنشودة للأمريكيين ، الذين رتبوا  
دوريات خاصة لبعض سفنهم الاستطلاعية ، مع غواصتين ،  
لاستقبال البث وإعادة إرساله إلى ( واشنطن ) ، من قلب المحيط  
الهادى ..

وعبر خبيرة الاتصالات التى تجاوزت بالكاد العشرين ربيعًا ،  
راحت المعلومات تنهال على الأمريكيين كالسيل ، لتكدير دفة الحرب  
تمامًا ، بحيث راحت الهزائم تتوالى على اليابانيين ، فى جنوب  
شرق آسيا ، و( ميدواى ) حيث سحق البريطانيون والأمريكيون

الأسطول اليابانى ، ودحروا جيوش الإمبراطورية ، وجعلوها تفر  
من أمامهم كالأرانب المذعورة .

ثم سقطت ( ألمانيا ) النازية ، وأدرك الكل أن الحرب قد  
وضعت أوزارها فعليًا ..

وعلى الرغم من هذا ، لم تستسلم ( اليابان ) ..

وعبر بثها المشفر ، أكدت ( سو ) للقيادة الأمريكية أن حالة  
الجيش الإمبراطورى سيئة للغاية ، وأن الهزائم المتوالية قد  
قصمت ظهره ، ولكن بقايا الكرامة فقط هى ما يدفع ( اليابان )  
لمواصلة القتال .

ولكن القيادة الأمريكية لم تجب رسائلها هذه قط .

لقد تجاهلتها تمامًا ، على نحو لم تفهمه أو تستوعبه ( سو )  
التي راحت تواصل البث ، وتعلن انهيار الإمبراطورية اليابانية  
الوشيك ، و ...

وفجأة ، وصلت أخبار ما حدث فى ( هيروشيما ) ..

قنبلة ذرية ، سقطت على المدينة ومحتها من الوجود فى  
لحظات ، مخلقة وراءها أبشع مذبحة عرفها التاريخ ..

فى البداية لم يفهم اليابانيون أو تفهوا ( سو ) ما حدث ،

وتصور الكل أن الأمريكيين والبريطانيين قد شنوا غارة مفاجئة  
بآلاف الطائرات ، التي ألقت حمولتها كلها في لحظة واحدة ..

ثم أعلنت ( أمريكا ) خبر قبيلتها الذرية ، ليسود الرعب العالم  
كله ، ولتتسع عينا ( سو ) ويهوى قلبها بين قدميها ، بكل هلع  
الدنيا ..

ولو أن البث اللاسلكي يحمل مشاعر مرسله ، لتلقى الأمريكيون  
فيضًا من الدموع ، مع برقيتها التالية ، التي ناشدتهم فيها عدم  
تكرار ما حدث ، لأن ( اليابان ) سترجع حتمًا في غضون أيام قليلة .

ولكن الأمريكيين تجاهلوا برقيتها هذه المرة أيضًا ، وألقوا  
قبيلتهم الثانية ، في قلب ( ناجازاكي ) ..

وانتهت الحرب بالفعل ، باستسلام ( اليابان ) غير المشروط ،  
إلا بما يحفظ ما تبقى من كرامتها وماء وجهها ..

وبعد ثلاثة أشهر من الاستسلام عادت ( سو ) إلى أسرتها في  
( أمريكا ) ..

كان الأمريكيون قد بروا بوعدهم فقد أكدت أسرة أمها أنها قد  
عوملت أحسن معاملة ، في مزرعة خاصة في ( كنتاكي ) ، طوال  
فترة الحرب ، وأنهم يعلمون أن الفضل في هذا يرجع إليها كما  
استقبلتها أسرة والدها استقبال الأبطال .

ولكن ( سو ) وحدها لم تشعر بالفخر قط ، فعلى الرغم من أن  
تجربتها قد صنعت منها خبيرة في مضمار لم تتوغل فيه  
( أمريكا ) في المخابرات الأمريكية ، عندما أنشئت رسميًا بعد  
الحرب ، كما رفضت وسام الشجاعة ، الذي قدمه لها الرئيس  
الأمريكي حينذاك ، بل وظلت حتى آخر أيامها تؤكد أنها تشعر  
بالانتماء إلى ( أمريكا ) ، ولكنها لا تستطيع أن تغفر لنفسها  
ما حدث في ( هيروشيما ) و ( ناجازاكي ) ..

أبدًا ..

\*\*\*

## الخيط السميك ..

« (رودلف) سقط .. »

انطلقت العبارة القصيرة ، من بين شفتي أحد رجال المخابرات البريطانية ، الذي افتتح حجرة الاجتماعات الكبرى ، في ذلك اليوم في بدايات عام 1941م أوج الحرب العالمية الثانية فَتَفَجَّرَ قوله كقنبلة من الدهشة والتوتر والانزعاج ، وسط رجال المخابرات ، الذين اجتمعوا لمناقشة تطورات المواقف الأخيرة ، بعد سقوط (فرنسا) في قبضة الجيوش النازية ، التي اجتاحت (أوروبا) وحققت انتصارات ساحقة ، أوحى بأن الرايخ الثالث قد يصبح ، في غضون أشهر قليلة ، المالك الأوحد للقارة ، وربما القارات المجاورة أيضا ..

والعبارة التي ألقاها رجل المخابرات ، على حين غرة ، كادت تتسلف ، ودون أدنى مبالغة ، أحد الآمال العريضة ، في استعادة السيطرة على مجريات الأمور ، والتصدي للغزو النازي ، الذي كاد يثب على الجزيرة البريطانية نفسها ، عبر بحر (المانش) في عملية أطلق عليها اسم «أسد البحر» ..

هذا لأن (رودلف) هو الاسم السري والكودي ، لأهم وأخطر

عملاء المخابرات البريطانية في قلب (برلين) والذي يعرف الآن ، بعد كشف الأوراق ، باسم (هانز ديتريتش) ، الألماني الجنسية ، والبريطاني المولد ، والديمقراطي النزعة ، على نحو يتعارض تماما مع المبادئ والنظم النازية .. تماما ..

ولقد ولد ونشأ (هانز) في قلب (لندن) في العقد الثاني من القرن العشرين ، من أب ألماني ، يعمل في السلك الدبلوماسي ، في منصب رفيع ، وأم بريطانية ، كانت تعمل آنذاك مترجمة أولى ، في السفارة الألمانية هناك ..

وعلى الرغم من أن الأب كان شديد التعصب لألمانيته ، مما جعله يصر على منح ابنه اسما ألمانيا صرفا ، إلا أن الأم كانت أكثر حكمة وذكاء ، عندما راحت تلقن ابنها اللغة البريطانية ، ومبادئ الديمقراطية ، إلى جوار اللغة الألمانية ، التي لا يقبل الأب لها بديلا ولا يرضى عن غيرها لغة للتخاطب والمحادثة .

وهكذا نشأ الصبي على نحو يتوافق تماما مع عالم الجاسوسية ، منذ أيام حدائته الأولى ، إذ كان عليه أن يتقن دور الألماني الصرف ، في وجود والده ، فلا يتحدث أو يتخاطب إلا بالألمانية ، بل ولا يفكر إلا بأساليبها ، مما يسر والده ويسعده ، ثم يتحول فجأة ، بلغته وأفكاره ، إلى صبي بريطاني من الطراز الأول ، عندما يختلئ بوالدته ، فيتحدثان الإنجليزية

ويتضاحكان ويتبادلان الدعابات بها ، أو يطالعان معا رواية لأحد الأدباء البريطانيين ..

ولأنهما يعيشان في ( لندن ) كان من الطبيعي أن تصحب الأم ابنها ، بين حين وآخر ، لمشاهدة أحد الأفلام البريطانية ، أو زيارة بعض الأقارب ، أو السفر إلى الريف البريطانى ، وقضاء بضعة أيام فى مناخ إنجليزى جميل ، راق كثيرا للصبي وانبهر به ، وأحبه حتى النخاع ، خاصة أنه يتعارض تماما مع النظام الصارم شديد التحفظ الذى يميز مجتمع والده وأسرته .

وفى عام 1925م ، وعندما كان الصبى فى الرابعة عشرة من عمره ، أصيبت أمه بورم خبيث فى صدرها ، عانت منه لأشهر قليلة ، قبل أن تسلم الروح ذات صباح كئيب اختفت شمس خلف سحب رمادية كثيفة كعادة العاصمة البريطانية العريقة .

ومع موت الأم ، أصيب ( هانز ) بصدمة قاسية ، لنصفه البريطانى السرى والمحبوب ، وشعر وكأن نصف كيانه قد تحطم بغتة ، ودون مقدمات ، فانزوى منظويا فى حجرته لشهر أو يزيد ، دون أن يشعر الدبلوماسى الألمانى المتحفظ والنشيط بما يعانىه ابنه ، أو يبالى بمحاولة إخراج منه ، أو تخفيف وقع غياب الأم عن حياته .

ولكن الصبى كان قويا بحق ، لذا فقد تجاوز محنته وحده ، وغادر حجرته ذات صباح ، وقد اتخذ فى أعماقه قرارين حاسمين ، لم يتراجع عنهما أبدا ، حتى آخر يوم فى حياته .

لقد قرر أن يواصل الاحتفاظ بنصفه البريطانى سرا ..

وأن يعتبر نفسه بريطانيا فقط .

وفى عام 1930م ، وبعد أن بلغ ( هانز ) مرحلة الشباب ، بكل رونقها وجمالها ، وتمردها أيضا ، صدر قرار بنقل الوالد إلى وظيفة إدارية رفيعة ، فى قلب ( برلين ) فحزم متاعه ومتاع ابنه الوحيد ، وغادر ( لندن ) ، والشاب يخفى دموعه خلف عينين باردتين صارمتين ، كما كان يخفى انتماءه الذى حفرته أمه فى أعماق أعماقه ..

وفى ( برلين ) وجد الشاب نفسه فى مجتمع يختلف تماما الاختلاف ، عن المجتمع الذى نشأ وترعرع فيه ، وشعر بالانزعاج والتوتر منه ، وشمله حذر عجيب ، جعله يتحاشى الاندماج فىمن حوله وما حوله ، ويخفى أفكاره وعقليته أكثر وأكثر ، حتى لقد اشتهر بين أقرانه بأنه منطو ، قليل الكلام والحديث ، عزوف حتى عن إقامة أية علاقات مع الشبان والشابات ، فى مثل سنه ، على الرغم من تهذيبه الجم ، وأدبه المثير للاهتمام والإعجاب ،

وشجاعته في الوقت ذاته ، في مواجهة أية محاولة للسخرية منه ،  
أو العبث به ..

وكم من مرة جرت محاولة للتحرش به ، أو اختلاق المشكلات  
معه !! ولكنه أثبت في كل مرة أنه قوى الشكيمة ، شديد الحزم  
والعزم ، ومقاتل لا يشق له غبار في الوقت ذاته ، بفضل إصرار  
أمه الراحلة ، على تلقينه سبل ورياضات الدفاع عن النفس منذ  
تعلمت عضلاته أن تنقبض .

وبسبب كل هذا ، حظى ( هانز ) بمزيج من الرهبة والاحترام ،  
في أوساط الدراسة الجامعية ، في جامعة ( برلين ) التي درس  
فيها التاريخ ، وأثبت تميزاً وتفوقاً في مادة التاريخ البريطاني  
بالتحديد .

ثم بدأ الحزب النازي يظهر على نحو سريع ومخيف ، وتألقت  
نجم ( أدولف هتلر ) وراحت خطبه الملتهبة تذهب العقول وتلهب  
المشاعر وتدعو الشعب الألماني إلى التخلي عن كل مبادئه ،  
والانطلاق لتعويض هزيمته في الحرب العالمية الأولى ، وإثبات  
قوته وتفوقه ، في قلب ( أوروبا ) تمهيداً لانطلاقه إلى العالم كله  
بلا استثناء .

وشعر قلب الشاب بالخطر القادم وامتلاً نفسه بالقلق ، وراح

عقله يرسم صورة سوداء مخيفة للمرحلة القادمة ، في ظل  
الحكم النازي الرهيب ، وتحت قيادة دكتاتور مثل ( هتلر ) .

وفي الوقت الذي اكتسح فيه النازيون النظام الألماني كله ،  
وارتفع فيه علمهم الأحمر والأبيض ، والأسود ، ذو الصليب  
المعقوف ، على مبنى المستشارية . معلناً بدء الرايخ الثالث ، في  
تاريخ ( ألمانيا ) العظمى ، كان الشاب يستقل القطار إلى  
( سويسرا ) ويتجه مباشرة إلى السفارة البريطانية ، ليعلن  
رغبته في التعاون مع البريطانيين ، لصد الغزو القادم .

وكما يحدث دوماً في عالم المخابرات ، استقبل البريطانيون  
الأمر بمنتهى الشك والحذر ، وتعاملوا مع الشاب بأسلوب مهذب  
رصين ، وطلبوا منه تقديم كل بياناته ، وتحديد وسيلة الاتصال  
المناسبة ، في حالة الموافقة على عرضه ..

وبمنتهى الهدوء والرصانة ، اللذين ورثهما عن أمه ، نفذ  
( هانز ) ما طلبوه منه ، ثم غادر مبنى السفارة ، وعاد في أول  
قطار إلى ( برلين ) .

وقبل حتى أن يستقل الشاب قطاره ، كان عرضه يطير إلى  
( لندن ) مع كل بياناته ..

وفي ( لندن ) استقبل رجال المخابرات العرض بمنتهى الدهشة



ومنتهى الحذر أيضًا واجتمعوا حول مائدتهم لدراسة الأمر ،  
وتبادل الآراء بشأنه ، على أعلى مستوى من الدقة والاهتمام .

وبعد أقل من ساعة ، كان ملف ( هانز ديتريتش ) كله بين  
أيديهم ..

وهنا كانت أكبر مفاجأة في القصة كلها ..

فدون أن يدري كانت علاقة ( هانز ) بالمخابرات البريطانية  
تمتد إلى فترة لا يمكنه هو نفسه أن يستوعبها .

هذا لأنها بدأت قبل مولده شخصيًا ، عندما كانت أمه تعمل  
لحساب المخابرات البريطانية أثناء عملها مترجمة في السفارة  
الألمانية في ( لندن ) .

ومن المؤكد أن هذا كان له كبير الأثر ، في الموقف كله ، فبعد  
أسبوع واحد ، ( وهذه مدة قياسية في عالم المخابرات ) أصبح  
( هانز ) يعمل بالفعل لحساب المخابرات البريطانية ، ويسافر  
مرة أخرى إلى ( سويسرا ) ليلتقى برجال المخابرات هناك .

ولم يضع البريطانيون دقيقة واحدة ، وهم يبدعون في تدريب  
( هانز ) على الفور على قواعد عالم المخابرات ودقائقها ..

وكان الشاب موهوبًا بحق ، وعلى نحو مذهش ، إذ راح يستوعب

كل القواعد والتدريبات بسرعة هائلة ، كما لو أنه أرض جافة ،  
تستقبل الماء بكل شراهة الدنيا ..

وفي الوقت الذي بدأ فيه ( هتلر ) استفزازاته للعالم أجمع ،  
كان ( هانز ديتريتش ) ، الذي أصبح أستاذًا للتاريخ في جامعة  
( برلين ) أحد أهم وأخطر جواسيس المخابرات البريطانية في  
( ألمانيا ) كلها ..

وبحكم منصبه وعلاقاته برجال الأرب والسياسة ، وبراعته التي  
صنعتها التدريبات البريطانية في اكتساب الصداقات الجديدة ، راح  
( هانز ) ينهل من المعلومات ويرسل عشرات البرقيات والرسائل  
اللاسلكية إلى ( لندن ) على نحو أدهش البريطانيين وأصابهم  
باتبهار لا محدود تجاهه .

وتغيرت طبيعة ( هانز ) على نحو مذهش ، خلال الأشهر  
القليلة التالية ، إذ صار منفتحًا ، اجتماعيًا ، شديد الرقة والوسامة ،  
عذب الحديث ، كثير المجاملة ، وثيق الصلة بعشرات من  
جنرالات الجيش بمن فيهم ( هملر ) قائد ( الجستابو ) نفسه ..

وبدأت رائحة الحرب تفوح ، في ( أوروبا ) كلها ، وازدادت  
خطب ( هتلر ) التهايبًا وحماسًا ، وأصبحت تحمل تهديدات  
واضحة صريحة ..

وبدأت المخابرات البريطانية تنقل ( هانز ) إلى مستوى جديد من العمل ، ومنحته الاسم الكودي ( رودلف ) في اتصالاتها ومخاطباتها ..

وفي كل يوم ، كان ( هانز ) يتلقى طلبات وأوامر جديدة ، ويرسل معلومات ووثائق جديدة ..

وفي تلك المرحلة ، وقبيل اندلاع الحرب مباشرة ، التقط رجال المخابرات النازية ، ذلك الفيض من الاتصالات اللاسلكية ، وأدركوا أن هناك جاسوسًا بريطانيًا خطيرًا في قلب ( برلين ) ، يحمل الاسم الكودي ( رودلف ) ، ولكنهم عجزوا تمامًا عن معرفة حقيقته ، أو تحديد هويته ، على الرغم من جهودهم المستميتة في هذا الشأن .

والطريف ، وفقًا لما جاء في الوثائق البريطانية ، أن ( هملر ) قد شكوا يومًا لصديقه الصدوق ( هانز ديتريتش ) ، من وجود ذلك الجاسوس المجهول ، المتوغل في المجتمع النازي على نحو مخيف ..

واتدلت الحرب في ( أوروبا ) عام 1939م ، واشتعلت في سرعة مخيفة ، وراحت تتطور على نحو مفرع ، و ( هانز ) أو ( رودلف ) يعمل بنشاط جم ، وبراعة متناهية ، امتزجا بغضب شديد من النظام

النازي ، وكراهية بلا حدود لذلك النسق العدواني ، والأسلوب الحربى الوحشى ، الذى اتسمت به سياسته ..

وعندما بلغ الثلاثين من عمره ، كان ( هانز ديتريتش ) أهم جاسوس للمخابرات البريطانية ، فى ( أوروبا ) كلها ، وأكبر مصدر للمعلومات ، على أى مقياس ، من مقياس عالم المخابرات ..

كان هناك خيط سميك يربطه بالبريطانيين ، الذين نشأ وترعرع بينهم والتهم حبهم مع طعامه ، منذ أن رضع لبن أمه ..

ولكن النازيين كانوا يشعرون بغضب لا محدود ، مما يفعله بهم ( رودلف ) هذا ، مما جعلهم يتتبعون الاتصالات اللاسلكية ، ويحصرن منطقة البث رويدًا رويدًا ، وانطلق جواسيسهم يعملون بأقصى طاقتهم وراح خبراء ( الجستابو ) والمخابرات يدرسون كل كلمة وكل حرف ، و ...

وأحاطت الشبهات أخيرًا بأستاذ التاريخ ، ورجل المجتمع الأول ( هانز ديتريتش ) ، وإن خشى الكل اتخاذ أى موقف أو قرار فى هذا الشأن ، دون الرجوع إلى صديقه الصدوق ورفيق سهراته رقم واحد ( هنريش هملر ) ..

ولقد أصيب ( هملر ) بالذهول ، عندما وضعوا أمامه ملف ( هانز ) ، وكل الدلائل التى تثبت أنه ( رودلف ) ، الذى يبحثون

عنه منذ زمن طويل ، ثم ما لبث الذهول أن تحول إلى فزع ، ثم غضب هادر جعل قائد ( الجستابو ) يأمر بإلقاء القبض على ( هانز ) فوراً ، ودون إبطاء ..

وبعد ساعة واحدة من أوامره ، افتتح رجال ( الجستابو ) منزل ( هانز ) أشهر عازب في ( ألمانيا ) كلها ، وتم إلقاء القبض عليه ، ونقله فوراً إلى مقر ( الجستابو ) المعروف باسم ( بيت الثعالب ) ..

وعن طريق جاسوس آخر ، أقل شأنًا ، طار الخبر إلى البريطانيين ، قبل حتى أن يُودع ( هانز ) زنزانتة الرطوبة الصغيرة خافتة الضوء ، في قبو ( بيت الثعالب ) ، الذي بدا ليلتها أشبه بالجحيم ..

أو أشد هولاً ..

وبأمر ( هملر ) ، بدأت عملية انتزاع المعلومات ، من ( هانز ) ، بأشرس الوسائل النازية المعروفة ، في عالم ( الجستابو ) الرهيب .

وعلى الرغم من أن ( هانز ) يبدو وسيماً هادناً رقيق المشاعر ، إلا أن النازيين قد كشفوا أنه أكثر صلابة من الفولاذ نفسه ، عندما احتل تغذية رهيباً ، وصل إلى حد إحراق أصابع قدميه ، وتهشيم عظام يده اليسرى ، بأسلوب وحشي ، دون أن يبوح بحرف واحد ..

بل على العكس تمامًا ، لقد أصر باستماتة على أنه ليس جاسوسًا للبريطانيين أو لأية جهة أخرى ..

وجن جنون رجال ( الجستابو ) ، وعلى رأسهم ( هملر ) وأصروا على مواصلة تعذيب ( هانز ) ، بناء على أوامر ( هملر ) ، الذي قرر أنه يفضل أن يموت ( هانز ) من فرط التعذيب ، على أن يعلن أنه قد أخطأ بشأنه ..

ولكن فجأة ، حدث ما قلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

لقد التقطت أجهزة الاعتراض اللاسلكي النازية بثًا مباشرًا ، من داخل ( برلين ) ، يحمل أسلوب وتوقيع ( رودلف ) .. وهنا تجمد الموقف كله ..

وأصيب ( هملر ) بصدمة قاسية ..

وقبل أن يفيق زعيم ( الجستابو ) من صدمته ، التقط أجهزته رسالة لاسلكية ثانية . وثالثة .. ورابعة ..

وكان هذا يعني أمرًا واحدًا ..

أن كل ما توصل إليه رجال ( الجستابو ) خاطئ تمامًا ، وأنهم قد اتهموا وأوقعوا الرجل الخطأ ..

وبسرعة ، اتجهت الشبهات كلها نحو رجل آخر ، أصدر ( هملر ) قرار إلقاء القبض عليه على الفور ..

ولكن الرجل الآخر اختفى تمامًا ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ، وإن ترك في منزله كل ما يكفي ، لتأكيد أنه هو ( رودلف ) المنشود ، وليس ( هانز ديتريتش ) ، بأى حال من الأحوال .. .

لقد ترك خلفه جهاز اتصال لاسلكى ، بريطانى الصنع ، وكتاب شفرة ، يتوافق تمامًا مع كل الرسائل الملتقطة سابقًا وحاليًا ، ومسودات لبعض البرقيات التى أرسلها من قبل ، والتى تحمل توقيع ( رودلف ) ..

وشعر ( هملر ) بأنه قد تلقى أكبر صدمة فى حياته كلها ، وراوده شعور قاس ، بأنه قد ارتكب أكبر خطأ مهنى فى تاريخه كله ، وشعر لأول مرة بالارتياح ، لأنه لم يبلغ ( هتلر ) بالأمر ، انتظارًا لإضافة اعتراف ( هانز ) ..

وبالطبع ، تم إطلاق سراح ( هانز ديتريتش ) دون تقديم أية توضيحات أو اعتذارات ، وتم نقله إلى أكبر مستشفى عسكري فى ( برلين ) ، لعلاج حروق قدميه وتحطم كفه اليسرى ..

واستسلم ( هانز ) للأمر تمامًا ، حتى تماثل للشفاء ، ثم قرر أن يسافر إلى ( سويسرا ) ، ليقضى فترة النقاهة هناك ..

وفى ( سويسرا ) ، استقبله رجال المخابرات البريطانية بمنتهى اللهفة ، واتخذوا كل الإجراءات والاحتياطات اللازمة لنقله فورًا

إلى ( لندن ) ، التى استقبلته استقبال الأبطال ، ونقلته فورًا إلى مستشفى سرى فى الريف ، ليشرح له رجال المخابرات البريطانية كيف قاموا بالتخلص من أحد أتباع ( هملر ) ، بعد أن نقلوا كل أدوات التجسس إلى منزله ، وصنعوا كل ما يلزم ، للإيجاء بأنه ( رودلف ) ، بل أكدوا له أن هذه كانت خطتهم الاحتياطية ، منذ عدة سنوات ، وأنهم قد أعدوا كل شىء لتنفيذها بأقصى سرعة ، فى حالة الطوارئ القصوى ..

ولأول مرة ، منذ زمن طويل ، نام ( هانز ) ملء جفنيه ، ليحلم بأمه ، وبابتسامتها الساحرة ، وهى تلقى نحوه بخيط ، التقطت أحد طرفيه ، وأشارت إليه أن يلتقط طرفه الآخر ..  
طرفه البريطانى .. السميك ..

وابتسم ( هانز ) فى نومه وقد أدرك أنه قد أدى واجبه أخيرًا نحو الوطن الحقيقى ، الذى ينتمى إليه فى أعماقه ، على الرغم من جنسيته الرسمية .. الوطن الأم ..

\*\*\*

بدا الطقس صحواً منعشاً ، فى صباح ذلك اليوم ، من أبريل عام 1944م ، على غير العادة ، على الساحل الفرنسى ، الذى اعتاد الغيوم الكثيفة ، والبرودة الشديدة ، فى هذا الوقت من العام ..

وعلى الرغم من القوات النازية ، التى تحتل (فرنسا) كلها ، وتضع استحكامات شديدة على السواحل ، بعد أن وصلت الحرب العالمية الثانية إلى مرحلة شديدة الحرج ، بالنسبة لكل الأطراف ، استقل الصيادون الفرنسيون زوارقهم البسيطة ، وهم يحملون تصاريح الصيد الخاصة ، التى حصلوا عليها من السلطات النازية ، وخروجاً للبحث عن أرزاقهم ، من صيد البحر وأعماقه ..

كانت ملامحهم تحمل منتهى المقت والكرهية ، لجنود الاحتلال النازى ، شأن أى شعب ، يحكمه شعب آخر بالقوة والقهر ، ولكنهم أشاحوا بوجوههم ، وراحوا يعدون شباكهم ، من منطلق أن أسماك وكائنات البحار لا شأن لها بالاحتلال ومشكلاته وتعقيداته ، وأنها مجرد رزق ، أتاحه الله - سبحانه وتعالى - لكل من سعى إليه ..

ومن بعيد ، ومن خلف تحصيناتهم ، راح الجنود النازيون يتابعون حركة الصيادين فى حذر متحفر ، وأصابعهم تستعد لإطلاق النار ، ونسف كل شىء بلا رحمة ، عند أول بادرة للشك ..

كان هذا يحدث يومياً ، منذ وقعت (فرنسا) فريسة للاحتلال النازى ، وحيث تسير الأمور على نمط واحد متصل ، و ... ولكن فجأة ، وفى ذلك الصباح بالتحديد ، اختلفت الأمور كلها ، دون سابق إنذار ..

فبغته ، انتبه الصيادون ، وانتبه معهم جنود النازية ، إلى زورق غريب ، يسير فى عكس اتجاه الزوارق الأخرى ..

زورق ظهر من عرض البحر ، والتيارات مع الأمواج تدفعانه نحو الشاطئ .. وعلى الفور ، وعلى الرغم من أن أحداً لم يتبين ما يحويه ذلك الزورق ، الذى بدا من بعيد خالياً تماماً ، انطلقت صفارات الإنذار الألمانية ، مع نداءات صارمة للصيادين ، بالعودة فوراً إلى الشاطئ ، فى نفس الوقت الذى اتجهت فيه كل فوهات البنادق والمدافع نحو الزورق .

الزورق المتواضع الصغير ..

وقبل أن تمر دقيقة واحدة ، كان زورق مطاطى ألمانى ، مزود

بمحرك آلي ، يشق طريقه في البحر ، نحو الزورق الصغير ،  
الذي تتلاعب به الأمواج بلا هوادة ، والذي ظل يبدو خالياً ، حتى  
بعد أن أصبح الزورق المطاطي الألماني ، الذي يحمل خمسة ،  
من الجنود النازيين المسلحين ، على مسافة متر واحد منه ..

ثم فجأة ، اتضح لهم ذلك الجسم الراقد داخله ..

وما إن لمحتهم عيونهم ، حتى سرت في أجسادهم رجفة عصبية ،  
وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية بحركة غريزية صارمة ، نحو ذلك  
الشخص ، الفاقد الوعي في قلب الزورق ..

كل هذا لأن ذلك الشخص كان يرتدي زيًا عسكريًا ..

أمريكيًا !! ..

كان الموقف عجيبيًا وغريبًا ، وغير متوقع على الإطلاق ، في  
فترة شديدة الحساسية كهذه ، إلا أن جنود النازية اتخذوا الإجراءات  
المحددة ، في الأمور المماثلة ، فتحفظوا على الزورق والجندى  
الفاقد الوعي ، وتم إرسال الجندى إلى أحد المستشفيات الفرنسية  
القريبة ؛ ليتلقى العلاج ، تحت حراسة مشددة ، في نفس الوقت  
الذي تم فيه إبلاغ وحدة ( الجستابو ) المحلية ، التي أبلغت  
بدورها مركز ( الجستابو ) الرئيس في ( باريس ) ، والذي أبرق  
الأمر فورًا إلى مقر ( الجستابو ) في ( برلين ) مباشرة ..

ولم يمض نصف الساعة ، على تلقى البرقية المشفرة  
العاجلة ، حتى كان رئيس ( الجستابو ) ( هملر ) ، يلتقى بالفوهرلر  
( أدولف هتلر ) شخصيًا ، وي طرح أمامه الأمر ، وهو يقول في  
حزم ، يشف عن مدى أهمية الأمر وخطورته الشديدة :

- السؤال الآن هو : كيف وصل جندى أمريكي إلى سواحل  
( فرنسا ) ، أيًا كان أسلوب وصوله ، في حين لم ترصد طائراتنا  
وغواصاتنا أية سفن أو مدمرات أمريكية ، على مسافة مئات  
الأميال البحرية عن هناك!؟

اتعتقد حاجبا الفوهرلر بدوره ، وهو يدرس الأمر في ذهنه ، ثم  
لم يلبث أن عقد كفيه خلف ظهره ، وراح يتجول في حجرة مكتبه  
لدقيقة أو يزيد ، قبل أن يلتفت إلى ( هملر ) ، متسائلًا :

- أين رسا ذلك الزورق الأمريكي بالضبط!؟

اعتدل ( هملر ) ، وارتسمت على شفثيه ابتسامة باهتة ، وقد  
بدأ له أنه قد انتبه إلى ما يرمى إليه الزعيم النازي ، وهو يجيب :

- في منتصف المسافة تقريبًا ، بين ( نورماندى ) و ( كاليه ) .

وإزداد اعتقاد حاجبي الفوهرلر في شدة ..

ففي تلك المرحلة من الحرب العالمية الثانية ، كانت ( ألمانيا )  
النازية قد اجتاحت معظم ( أوروبا ) ، واتجهت نحو ( روسيا ) ،

وكادت تكتسحها بدورها ، لولا أن منيت بهزيمة ساحقة فى (ستالينجراد ) ، عام 1943م ، قامت (روسيا ) بعدها بهجوم مضاد عنيف ، على طول الجبهة ، لطرد الألمان ، ومطاردتهم ، ووصلت جيوشها بالفعل إلى (بولندا ) و(المجر ) ، وطردت القوات النازية من (البلقان ) ، فى نفس الوقت الذى انتهت فيه معركة الأطلنطى بطرد الغواصات الألمانية ، وهزيمة الأسطول البحرى النازى ، ولم يعد أمام الحلفاء ، بعد انتصارهم فى (إيطاليا ) ، سوى الانقضاض على الألمان فى (فرنسا ) ، وتحريرها ، واتخاذها ركيزة انطلاق ، نحو تحرير (أوروبا ) كلها ..

وكان النازيون يدركون هذا جيدا ، ويثقون تماما فى أن القوات المتحالفة ستسعى للغزو عن قريب ، ولكن نقطة التساؤل الوحيدة ، والمهمة جدا كانت حول موقع الغزو ..

ومن حيث الدراسة الإستراتيجية العسكرية ، كان الطرفان يدركان أن هناك احتمالين فحسب لموقع الهبوط والغزو ..

إما (كاليه ) ، فى شمال (فرنسا ) ، أو (نورماندى ) ، بالقرب من جنوبها ..

الحلفاء كانوا يدركون هذا ..

وكذلك الألمان ..

وكان من الضرورى أن يتحدد موقع الغزو ، بالنسبة للنازيين ، لأن معلوماتهم تؤكد أن الحلفاء سيجمعون كل قوتهم ، لتوجيه ضربة بالغة الشدة ، والقوة ، والعنف ..

وفى موقع واحد ..

والوسيلة الوحيدة ، لصد غزو شامل كهذا ، هى أن يتم تركيز كل القوات ، فى منطقة الغزو ..

إما فى (نورماندى ) ..

أو فى (كاليه ) ..

لذا كان من المحتم معرفة الجواب ، وتحديد موقع الغزو بمنتهى الدقة ، حتى لا يهاجم الحلفاء منطقة ، ضعفت فيها الاستحكامات الدفاعية؛ لأن القوة تركّزت فى منطقة أخرى ..

ولأن الفكرة نفسها جالت فى عقلى (هتلر ) و(هملر ) معا ، فقد التفت الأوّل إلى الثانى ، وقال بمنتهى الصرامة :

- لابد من استجواب ذلك الجندى الأمريكى ، وانتزاع المعلومات منه .. بأى ثمن .

واعتدل ( هملر ) ، بحركة صارمة قوية ، ومد يده أمامه فى حزم ، وهو يهتف بالتحية النازية الديكتاتورية الشهيرة :

- هايل ( هتلر ) .

ألقاها ، ثم انطلق على الفور لتنفيذ الأمر ، وهو يدرك جيداً - بمفهوم جهاز ( الجستابو ) الرهيب ، الذى يتولى قيادته - ما الذى تعنيه كلمة ، الفوهرلر ( بأى ثمن ) ..

وعبر أجهزة الاتصال اللاسلكية ، طارت أوامر ( هملر ) إلى مقر ( الجستابو ) فى ( باريس ) ، فى نفس الوقت الذى طار فيه ( هملر ) شخصياً إلى هناك ..

ووفقاً لأوامره ، تم سحب ذلك الزورق ، الذى وصل به الجندى الأمريكى الفاقد الوعى ، وقام فريق من المتخصصين بفحص كل سنتيمتر فيه ..

وفى الوقت ذاته ، كان فريق من الأطباء الألمان ، على أرفع مستوى ، يقوم بفحص الجندى الأمريكى نفسه ..

وبمنتهى الدقة ..

وعندما وصل ( هملر ) إلى ( باريس ) ، كانت التقارير كلها فى انتظاره ، فى مقر ( الجستابو ) هناك ، مع تقرير يؤكد أن كل

الإجراءات يتم اتخاذها؛ لنقل الجندى الأمريكى إلى ( باريس ) ، حتى ولو لم يستعد وعيه .

وقرأ ( هملر ) التقارير ..

قرأ كل كلمة منها ..

بل كل حرف ..

كانت كلها تؤكد أن ذلك الجندى قد ظلّ معرضاً للشمس ومياه البحر ، لأكثر من سبعة أيام ، وأنه قد تناول بعض مياه البحر المالحة ، فى فترة من الفترات ، فى محاولة يائسة لإرواء ظمئه ، إلا أن هذا تسبّب فى إصابته بنزلة معوية ، تركت آثارها الواضحة فى ذلك الزورق ، الذى يحمل على جانبه اسم مدمرة أمريكية ، أغرقتها الغواصات الألمانية ، منذ ما يزيد عن تسعة أيام كاملة ..

ثم أن الجندى نفسه يعانى من جفاف شديد ، وتسليخات عنيفة ، وأنه قد فقد وعيه ، من شدة الألم والجوع والعطش ..

وبشئىء من الذكاء ، كان من السهل استنتاج أن ذلك الجندى ، الذى تحمل السلسلة المعدنية المعلقة فى عنقه ، اسم ( جون سميث ) ، ورقم وحدة بحرية أمريكية معروفة ، كان أحد أفراد طاقم المدمرة ، التى قصفتها وأغرقتها الغواصات الألمانية ، وأنه أحد



الناجين من الغرق ، فى أحد زوارق النجاة الخاصة بالدمرة ،  
وأن طول بقائه فى البحر ، هو السبب فى كل ما أصابه ، حتى  
دفعته التيارات البحرية إلى شاطئ ( فرنسا ) ..

ولأن ( هملر ) رجل شديد الشكوك بطبعه ، فقد راجع شخصياً  
كل البيانات ، الواردة فى التقارير ، ودفع المخابرات الألمانية إلى  
الاتصال بأحد أهم جواسيسها ، فى صفوف الجيش الأمريكى ،  
لمراجعة بيانات الهوية المعدنية للجندى ( جون سميث ) ،  
وبالتأكد من أنه بالفعل أحد أفراد طاقم تلك المدمرة الأمريكية  
الغارقة ..

وأيد الجاسوس الألمانى كل البيانات ..

وكل المعلومات ..

بل ولقد استعان ( هملر ) بطاقم من خبراء الملاحة البحرية ،  
لدراسة مسار التيارات المعتادة ، فى منطقة غرق المدمرة  
الأمريكية ، والتأكد من أنه من المحتمل أن تدفع زورق الجندى  
الأمريكى إلى شاطئ ( فرنسا ) أم لا ..

ولم يستطع خبراء الملاحة أبداً أن يجزموا بإمكانية حدوث  
هذا ، كما لم يمكنهم استبعاد حدوثه فى الوقت ذاته ، نظراً لأنهم  
يجهلون تماماً المسار ، الذى اتخذته الجندى الأمريكى بزورق

النجاة ، قبل أن يفقد وعيه ، ويترك زورقه للتيارات البحرية ،  
تعبث به كيفما تشاء ..

باختصار ، كانت نقطة الشك الوحيدة فى الأمر كله ، ممكنة  
ومحتملة ، إلى حد ما ..

لذا فقد اقتنع ( هملر ) وثعالبه بالفكرة كلها ، وأصبح عليهم  
انتظار وصول ذلك الجندى فى ( باريس ) ، لاستجوابه بوسائلهم  
الخاصة ، حتى لو اضطرهم الأمر إلى بتر أطرافه ، واحداً بعد  
الآخر ، للوصول إلى الحقيقة فى أمره ..

لقد بدا لهم هذا مسألة حياة أو موت ، و ...

ووصلت إشارة لاسلكية مشفرة فجأة ، تقول أن الجندى الأمريكى  
قد استعاد وعيه فى المستشفى ، وأن أحد ضباط ( الجستابو ) يقوم  
باستجوابه هناك ، على الرغم من اعتراض الأطباء ، وتأكيدهم  
بأن حالته لم تسمح بعد بالاستجواب ..

وعلى الفور ، أبرق ( هملر ) إلى ضابط ( الجستابو ) هناك ،  
بكل الأسئلة التى ينبغى أن يطرحها على الجندى الأمريكى ، ثم  
أمره بالأبلاغ بآخر هذا إرسال الجندى إلى ( باريس ) ، حتى لو اضطره  
الأمر لاستجوابه فى القطار ، الذى سيحمله إلى هناك ..

ولم يمض نصف الساعة ، حتى وصلت برقية عاجلة ، من ضابط ( الجستابو ) إلى المقر الرئيس في ( باريس ) ..

برقية تحمل عبارة واحدة ، قالها الجندي الأمريكي ، ورأى ضابط ( الجستابو ) النازي أنها تحوى كل ما ينشدون معرفته ، وأنها لا تحتمل الانتظار ، حتى يصل الأمريكي إلى ( باريس ) ..

فأثناء سؤاله عن سبب وجوده داخل زورق صغير ، في بحر ( المانش ) ، بدت كلمات الجندي الأمريكي مضطربة ، وأفكاره غير واضحة ، ولكنه أشار إلى قصف مدمرته ، بواسطة غواصة ألمانية ، عندما كان هو ورفاقه يتلقون بعض التعليمات والتدريبات ، استعدادًا للهبوط ، بعد شهر واحد ، في ( كاليه ) ..

والكلمة الأخيرة كانت أخطر كلمة ، ينتظرها النازيون ..

( كاليه ) ..

وعندما قرأ ( هملر ) تلك الكلمة ، في برقية ضابط ( الجستابو ) الفرعى ، تألقت عيناه ، وقال في حزم وحماس :

- أرسلوا نسخة من هذه البرقية إلى الفوهرل في ( برلين ) فورًا ..

ونفذ ضباط ( الجستابو ) تعليماته على الفور...

ووصلت البرقية الشفوية العاجلة إلى ( أدولف هتلر ) ، قبل حتى أن يتحرك القطار ، الذي يحمل ذلك الجندي الأمريكي ، في طريقه إلى ( باريس ) ..

وقرأ الفوهرل البرقية ، وتألقت عيناه بدوره ، وهو يقول في صرامة ، وسط قاداته وجنرالاته :

= كنت أتوقع هذا ..

ودون أن يضيع دقيقة واحدة ، بدأ يلقي تعليماته الصارمة ، بتركيز الدفاعات الألمانية كلها في ( كاليه ) ، استعدادًا لصد الغزو ..

ولم يدر ( هتلر ) لاحظتها ، أن تعليماته بخذافيرها ، قد وصلت إلى المخابرات البريطانية ، بعد ساعة واحدة من إلقائه إياها ..

وفي مقر المخابرات البريطانية في ( لندن ) ، ارتسمت ابتسامة ظافرة ، على شفתי رجل المخابرات المخضرم سير ( سنكلير ) ، وهو يطالع أوامر ( هتلر ) ، وقال برصانته المعهودة :

= عظيم .. لقد فعلوا ما توقعناه منهم بالضبط .. سيركزون دفاعاتهم في ( كاليه ) ..

ثم التفت إلى أحد الرجال ، مستطردها في ارتياح :

= من الواضح أن جلسات الأشعة فوق البنفسجية قد تركت

أثرها ، على جسد المتطوع الأمريكي ، بحيث اقتنع أطباؤهم  
تماماً ، أنه هناك منذ غرق المدمرة ..

غمغم أحد رجال المخابرات البريطانية :

- الواقع أنها كانت خطة جريئة أكثر مما ينبغي ، يا سير  
( سنكلير ) .

وافقه ( سنكلير ) بإيماءة من رأسه ، ثم قال بنفس الهدوء  
والرصانة :

- هذه هي قواعد النجاح ، في عالم المخابرات .. أفعل دوماً  
ما لا يتوقعونه ، أو ما يبدو لهم جنونياً ، فلا يشكون فيما أمامهم  
أبداً .

ثم لوّح بالبرقية ، الواردة من ( برلين ) ، مستطرداً :

- وهذا هو الدليل .

ولم ينطق الرجال بحرف واحد ، فخطة سير ( سنكلير ) ، التي  
بدت لهم جنونية قبل عدة أيام ، حققت نجاحاً منقطع النظير ، عندما  
تم تطبيقها عملياً ، مع المتطوع الأمريكي ( جون سميث ) ، الذي  
تم تعريضه للأشعة بشكل مكثف ، مع حقنه بعدد من العقاقير ،  
القادرة على خداع الأطباء الألمان ، وحتى الفرنسيين ، ثم نقله

بغواصة بريطانية بعدها ، إلى حيث هبط مع زورقه ، متظاهراً  
بفقدان الوعي .

ولكن أبرع لحظات ( جون سميث ) ، الممثل المسرحي المغفور ،  
كانت عندما تظاهر باستعادته الوعي ، وبارتباك أفكاره وكلماته ،  
وهو يروي تلك القصة الزائفة ، التي يحفظها عن ظهر قلب ،  
من تدريبات غزو ( كاليه ) ، وغرق المدمرة ، وضياعه مع  
زورق الإنقاذ ..

حتى الزورق نفسه ، قام فريق من الخبراء البريطانيين بإعداده ،  
بحيث يتوافق تماماً مع رواية ( جون سميث ) الملفقة ..

ولقد تم نقل ( سميث ) بالفعل إلى ( باريس ) ، حيث استجوبه  
( هملر ) بنفسه ، وسمع منه الرواية نفسها ، التي توافقت مع  
معلومات واردة من عدة جهات أخرى ..

وعاد ( هملر ) إلى ( برلين ) ، دون أن تكون لديه ذرة واحدة  
من الشك ، في أن الغزو سيتم في ( كاليه ) ، وليس في  
( نورماندى ) ..

أما ( جون سميث ) ، فقد قضى بعض الوقت في مستشفى  
صغير في ( باريس ) ، ثم تم نقله بعد ذلك إلى أحد المعتقلات  
النازية ، في أطراف ( فرنسا ) ..

## الضربة الكبرى ..

سرت نيران الحرب العالمية الثانية في ( أوروبا ) ، سرعان النار في الهشيم ، وراح الجيش النازي يجتاح كل ما أمامه ، ويلتهم الدول التي تواجهه التهاماً ، وعينه على الهدف الأول ، الذي وضعه ( أدولف هتلر ) نصب عينيه منذ البداية ..

( إنجلترا ) .. بل الإمبراطورية البريطانية بأكملها ..

ولقد بذل الإنجليز جهداً مضنياً ، لحماية أراضيهم من الغزو النازي ، واحتملوا أهوالاً رهيبية ، والطائرات الألمانية تقصف مدنهم ليلاً ونهاراً ، وأخبار انتصارات الرايخ الثالث ملء الأسماع والأبصار ، والبلدان تتساقط واحدة بعد الأخرى ، ويرتفع فوقها علم النازية بصليبيه المعقوف ، الذي صار رمزاً للقهر والظلم والشراسة والظلم .

وكوسيلة لتخفيف الضغط عن جبهتها ، وكسب بعض الوقت لالتقاط الأنفاس ، لبرت ( بريطانيا ) ، من خلال مخابراتها العريقة ، خطة شيطانية متقنة ، كان من نتائجها أن انزعت بذور الشك في قلب وعقل فوهرر النازية ، تجاه الجبهة الروسية ، فاتخذ قراره المفاجئ المذهل بإعلان الحرب على ( روسيا ) ، وشن ذلك الهجوم الشامل الرهيب ، الذي عرف باسم عملية ( بارباروسا )

وفي ثقة وارتياح ، أغلق النازيون ذلك الملف ، الذي أطلقوا عليه اسم ( عملية رجل الزورق ) ، وتصوّروا أن الأمر قد انتهى ..

ولكن الواقع أنه قد بدأ ..

ففي يونيو 1944م ، وبعد أقل من شهرين ، هبطت قوات الحلفاء في ( نورماندي ) ، وخاضت معركة طاحنة رهيبية ، انتهت بتحرير ( فرنسا ) ، واتخاذها ركيزة بعدها ، للانطلاق إلى ( أوروبا ) كلها ، ومطاردة القوات الألمانية النازية ، حتى قلب ( برلين ) نفسها ..

واندحر الرايخ الثالث ، وانهزمت ( ألمانيا ) النازية ، وانتحر ( هتلر ) و( هملر ) ، وابتسم ( جون سميث ) ابتسامة كبيرة ، وهو يشاهد احتفالات النصر ، في منزله في الولايات المتحدة الأمريكية ، وذهنه يستعيد بكل فخر تفاصيل تلك العملية ، التي جعلته أحد صناع النصر ..

عملية الزورق ..

زورق الخداع .. الناجح .

\*\*\*

أو (نو اللحية الحمراء) التي اجتاحت (روسيا) ، وكادت تلتهمها ،  
على نحو آثار زعر وذهول العالم كله ..

وفي (دوانج ستريت) ، مقر الحكم البريطاني ، وقف مدير  
المخابرات بيتسم في ظفر ، أمام رئيس الوزراء قائلاً :

- خطتنا نجحت يا سيادة رئيس الوزراء .. النازيون انشغلوا  
بحق في الجبهة الروسية ، وخففوا الضغط العنيف على جبهتنا ،  
ونحن نعمل بقصرى جهدنا الآن ، لاستعادة قوتنا ، وإعادة بناء  
قواتنا ، و ...

قاطعته رئيس الوزراء البريطاني في صرامة باردة ، وهو ينفث  
خان سيجاره في قوة :

- هذا لا يكفي .

تسعت عينا مدير المخابرات في دهشة ، وهو يكرر :

- لا يكفي؟! لقد أشعلنا حرباً في الجبهة الروسية؟!!

قال رئيس الوزراء ، في صرامة أكثر :

- لا يكفي يا رجل .. لا يكفي ..

التقط مدير المخابرات نفساً عميقاً ، قبل أن يسأله في حزم :

- فم تفكر بالضبط يا سيادة رئيس الوزراء؟!!

برقت عينا رئيس الوزراء البريطاني ، بذلك الذكاء الذي  
اشتهر به ، وهو يجيب بكلمة حازمة ، حاسمة ، صارمة ، مقتضبة :  
- (أمريكا) .

تردد مدير المخابرات لحظة ، ربما ليتأكد من أنه قد فهم  
ما يقصده رئيس الوزراء بكلمته هذه ، قبل أن يقول في حذر :

- (أمريكا) مازالت ترفض توريط نفسها في حرب مباشرة ،  
والأمريكيون يرون أن كل ما يمكنهم أن يلعبوه هو دور الممول  
بالعتاد والسلاح ، ولقد أرسلوا إلينا أخيراً بعض طيارتهم ، لمشاركة  
قواتنا ، في مواجهاتها الجوية مع سلاح الطيران النازي ، و ...  
قاطعته رئيس الوزراء في صرامة :

- هراء .. الأمريكيون أرسلوا طيارتهم لاكتساب خبرة ومهارة  
طيارينا ، في الاشتباك الجوي المباشر ، وليس لمساعدتنا كما  
تتصور .

التقط مدير المخابرات نفساً عميقاً آخر ، قبل أن يقول :

- الجهود الدبلوماسية ، التي استخدمتم فيها أقصى طاقتكم ،  
لم تنجح قط في إقناع الأمريكيين بخوض الحرب ، ومن الناحية  
المنطقية ، لا يمكنها إقناع أية دولة في العالم بدفع رجالها وشبابها إلى  
حرب طاحنة ، دون مبررات غالية في القوة ، تجعل هذا حتمياً .

استعداد مدير المخابرات حذره ، وهو يتساءل :

- وكيف يمكننا الوصول إلى نتيجة كهذه !؟

- هذه مهمتك .

ثم نهض من خلف مكتبه ، وتابع بنفس الصرامة ، التي امتزج بها حزمه الشهير :

- القاعدة الوحيدة ، التي سنلتزم بها ، هي أن نفكر في مصلحة (بريطانيا) وحدها ، دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى ..

ووضع يده على كتف مدير المخابرات ، مستطردًا :

- الحروب لا قلب لها ولا مشاعر .. ولست أبالي بأن يفقد الأمريكيون نصف شعبهم ، وربيع قواتهم ، لو أن هذا سيدفع من تبقى منهم لخوض الحرب إلى جوارنا .

شعر مدير المخابرات بالقلق الشديد ، وهو يسأله :

- سيادة رئيس الوزراء .. ما الذي يدور في ذهنك بالضبط !؟

وثب شبح ابتسامة إلى شفتي رئيس الوزراء البريطاني ، وهو يرفع يده عن كتف مدير المخابرات ، ويشير بكفيه ، مجيبًا :

- ضربة يا رجل .. ضربة كبرى ، ضربة تكون من القوة والقداحة ، بحيث لا تملك (أمريكا) أمامها سوى إعلان الحرب .

اتخذ حاجبا رئيس الوزراء البريطاني وراح ينفث دخان سيجاره في قوة ، وبدت عليه علامات تفكير عميق ، وتراجع في مقعده ببطء ، على نحو جعل مدير المخابرات يلتزم الصمت التام ، ويكتفي بالتطلع إليه ، في انتظار ما سيسفر عنه عمل ذلك العقل الجبار ، الذي اشتهر بأنه لا يرتبط ، ولو بشعرة واحدة ، بالقلب الذي يمدده بالدماغ ، دون العواطف أو المشاعر ..

ولقد استغرق صمت رئيس الوزراء البريطاني ربع ساعة كاملة ، قبل أن يرفع عينيه بغتة لمدير المخابرات ، قائلاً في حزم :

- فنجعل هذا حتميًا إذن .

اندفع كل ترقب مدير المخابرات عبر شفتيه ، على هيئة هتاف قوي ، وهو يقول في لهفة :

- كيف !؟

اعتدل رئيس الوزراء وهو يقول في صرامة حاسمة ، ودخان سيجاره يصنع فوق رأسه سحابة تكاد من فرط كثافتها تطلق برقًا في سماء الحجره :

- سنوقف الجهود الدبلوماسية تمامًا ، وسنلجأ إلى أسلوب آخر ، كفيل بإقناع الأمريكيين بشن حرب شعواء ، ليس على النازيين فحسب ، ولكن على دول المحور كلها .

اتسعت عيننا مدير المخابرات ، وهو يهتف :

- رباه! هل تعتقد أننا ..

قاطعته رئيس الوزراء البريطاني في صرامة حازمة :

- إننا لسنا أغبياء لنمس أصدقاءنا الأمريكيين .

ثم غمز بعينه ، مستطردًا بخبث :

- ولكننا من الذكاء ، بحيث ندفع الآخرين للقيام بما نريد تألقت عيننا

مدير المخابرات ، وهو يقول في انقضاب يفوح بالإعجاب والانبهار :

- فهمت .

ولأسبوع كامل بعدها ، ومن خلال اجتماعات بلغت في مجموعها

سناً وعشرين ساعة ، بين مدير المخابرات ورئيس الوزراء

البريطاني ، بدأ تنفيذ أكبر وأخطر خطة قامت بها المخابرات

البريطانية ، في تاريخ الحرب العالمية الثانية كله ..

خطة الضربة الكبرى ..

وكانت البداية عبر جاسوس يعمل لحساب ( اليابان ) ، في

قلب الولايات المتحدة الأمريكية .

جاسوس علم البريطانيون بأمره منذ زمن ، ولكنهم لم يبلغوا

الأمريكيين ، وإنما احتفظوا بالسر ، للاستفادة منه في الوقت

المناسب ..

وهاهو ذا الوقت المناسب قد حان ..

وبلعة عبقرية ، تم تسريب شفرة خاصة إلى ذلك الجاسوس

الياباني ، باعتبارها الشفرة السرية الجديدة ، التي تستخدمها

القيادة الأمريكية للتراسل مع القوات البحرية ..

وخلال ثلاثة أيام فحسب ، تأكد البريطانيون من أن تلك الشفرة

قد بلغت المخابرات اليابانية في ( طوكيو ) التي ستستخدمها

حتمًا ، من خلال عمليات التنصت على الاتصالات اللاسلكية

الأمريكية والبريطانية ..

وهنا حان دور الجزء الأكثر أهمية وخطورة في الخطة ..

في البداية ، راح البريطانيون يبثون رسائل وهمية ، باستخدام

تلك الشفرة الخاصة ، باعتبارها مراسلات تقليدية ، بين سفن

وغواصات الأسطول الأمريكي ، وقيادته العامة .

وكإجراء تقليدي ، راح اليابانيون يترجمون كل تلك الاتصالات

ويصنعون منها تقارير وملفات ضخمة ، وضعت بكل تفاصيلها أمام

القيادة العسكرية والحربية ، التي راحت تتابع كل هذا باهتمام محدود ،

باعتبار أن ( أمريكا ) ترفض بشدة التورط في حرب مباشرة .

ثم فجأة ، بدأت تلك الاتصالات اللاسلكية المشفرة تتخذ طابعًا

آخر غريبًا ومخيفًا ..

فالاتصالات بدأت توحى بأن ( أمريكا ) قد قررت التخلي عن فكرة الحياد هذه وقررت أن تخوض الحرب ..

وكان من الطبيعي أن يوضع هذا التطور المخيف أمام القيادة العسكرية والسياسية في ( طوكيو ) ..

بل وأمام الإمبراطور الياباني نفسه .

واجتمع اليابانيون لدراسة هذا التطور الرهيب .

في البداية تساءل الإمبراطور :

- هل تعتقدون أن الأمريكيين سيثنون الحرب بالفعل !؟

أجاب وزير الحرب في حزم :

- البريطانيون يبذلون جهوداً مضنية ، منذ فترة طويلة لإقناع الأمريكيين بخوض الحرب ، باعتبارهم قوة لا يستهان بها ، بإمكانها أن تميل بكفة القتال إلى جانبهم .

قال رئيس الوزراء في سرعة :

- ولكن الأمريكيين يرفضون هذا بإصرار .

قال وزير الحرب في صرامة :

- لن يواصلوا الرفض للأبد .. واتصالاتهم هذه توحى بهذا .

تدخل الإمبراطور ، قائلاً :

- الاتصالات لا تحسم الأمر تماماً ، ولا تحدد الهدف .

شد وزير الحرب قامته ، وهو يقول في حزم :

- لن يضيرنا أن نستعد .. احتياطياً على الأقل .

غمغم الإمبراطور :

- أمر معقول .. ما رأيك يا رئيس الوزراء !؟

تردد رئيس الوزراء الياباني لحظة ، قبل أن يجيب في حذر :

- لن يضيرنا هذا يا مولاي .

وهكذا بدأت ( اليابان ) استعدادها للحرب في صمت وهدوء ، وخبرائها مازالوا يتابعون تلك الاتصالات اللاسلكية الوهمية ، التي يواصل البريطانيون بثها ، باعتبارها أمريكية صرفاً ، وباستخدام الشفرة الزائفة ذاتها .

ووفقاً لخطتهم ، راح البريطانيون يرفعون في حرارة الاتصالات ، ثم انتقلوا إلى مرحلة تحديد الأهداف المباشرة .

وفي هذه المرة كان من المستحيل أن تصبر ( اليابان ) على الأمر ، فالاتصالات كانت تشير ، في وضوح تام ، إلى أن الأسطول الأمريكي يستعد لتوجيه ضربة كبرى قوية للأسطول الياباني ، والجزر اليابانية .



وجن جنون القيادة اليابانية ، وبدأت على الفور اجتماعات مكثفة ،  
لوضع خطة عاجلة متقنة ، لتوجيه ضربة مسبقة للأسطول  
الأمريكي ، قبل أن يتحرك لتوجيه ضربته المزعومة ( لليابان ) .  
في تلك الفترة كانت ( أمريكا ) تعيش حالة استقرار واسترخاء ،  
متصورة أن شبح الحرب بعيد عنها ، بعد السماء عن الأرض ،  
وبالذات هناك ، في أرخبيل ( هاواي ) ..

فهناك في ميناء ( بيرل هاربور ) في يوم الأحد السابع من  
ديسمبر 1941م ، كان الكل يستمتع بالشمس الدافئة ، والهدوء يسود  
المكان باعتباره يوم إجازة رسمية ، حتى إن قائد الأسطول  
الأمريكي هناك ذهب للعب الجولف ، في حين انشغل بحارة سفن  
الأسطول وبالذات السفينة ( أريزونا ) ، والعملاقة ( وست فرجينيا ) ،  
( بنسلفانيا ) ، و ( الكاسين ) في طهي الطعام ، وتنظيف السطح  
والقمرات .

كل شيء كان يوحى بأنه يوم عادي من أيام أسطول قوى ، لم  
يلمح شبح الحرب ، أو يتصور قدومه يوماً ..

ولكن ذلك الهدوء كان يخفي خلفه كارثة ..

ففي السماء ، كان هناك جيش طائر ، بقيادة الياباني  
( ميتسو فوشيدا ) يحلق باتجاه الميناء ..

جيش يتكون من ( 143 ) طائرة منها ( 43 ) مقاتلة من طراز  
( زيكي ) و ( 51 ) قاذفة انقضاضية من طراز ( فال ) و ( 49 )  
طائرة من طراز ( كاتي ) مزودة بطوربيدات بحرية حديثة .

وبالنسبة لليابانيين فقد كانوا يتصورون أن معلوماتهم صحيحة ،  
وأن الأسطول الأمريكي مستعد للقتال ، لذا فقد توقعوا خسارة  
حاملتى طائرات ، وخمسين من المائة من الطائرات في الهجوم ،  
واعتبروا أن هذا ليس بالثمن الباهظ ، في سبيل نجاح ضربة كهذه .

وفي الساعة والنصف صباحاً ، وبينما يسترخى الأمريكيون تماماً ،  
بدأ الهجوم الياباني العنيف .

انقضت الطائرات اليابانية بقعة على الأسطول الأمريكي ، وانهالت  
قنابلها وصواريخها على سفن الأسطول وجنوده الذاهلين ، دون  
رحمة أو شفقة ، لتنسف وتسحق ، وتقتل ، وتغرق كل شيء ..

وأصيب الكل بذهول مذعور ، مع أمر غير متوقع على الإطلاق  
كهذا ، ومع عنف ووحشية وشراسة الضربة ..

وانطلقت صفارات الإنذار في الميناء وفي ( فورت أيلاند ) كلها ،  
واشتعلت النيران في كل مكان ، وراحت الطائرات اليابانية تدك كل  
ما أمامها دون تمييز ، لكنها انتقت بالطبع كل الأهداف العسكرية ..

وبالذات المطارات ..

وشقت الطوربيدات اليابانية السفينة ( وست فيرجينيا ) وأشعلت النيران في ( نيفادا ) ، وأغرقت ( كاليفورنيا ) ودمرت الطائرات وقاذفات القنابل اليابانية المطار الحربى الأمريكى ، والمباني العسكرية ، وأحد مباني المستشفى العسكرى .

وبلغ عدد القتلى والمصابين حدًا رهيبًا مخيفًا ، فاق كل التوقعات ، بحر من الدماء أغرق الميناء كله ..

ولم يكتف اليابانيون بهذا ، ففي الثامنة وأربعين دقيقة ، جاءت موجة الهجوم الثانية ، المكون من 171 طائرة بقيادة ( شيمازاكى ) ..

وكانت مهمتها أكثر صعوبة ، لأن الدخان كان يغطى كل شيء ، ويحجب الرؤية تمامًا ، ثم إنها لم تجد ما تدمره بمعنى الكلمة ..

ومع انهيار وانسحاق الأسطول الأمريكى ، عادت الطائرات اليابانية إلى حاملاتها ، وحاول ( فوشيدا ) إقناع الجنرال ( ناجومى ) قائد العملية ، بالقيام بموجة هجوم ثالثة ، وخاصة أنه لم يفقد سوى ثلاثين طائرة فصب ، أى أقل من خمس الخسائر المتوقعة ، ولكن ( ناجومى ) رأى أن الانتصار كان ساحقًا بالفعل ، وليس هناك ما يبرر القيام بمخاطرة جديدة ، لذا فقد أصدر أوامره بالعودة فورًا إلى ( اليابان ) .

فى الوقت ذاته كانت المدمرات اليابانية تقصف ( ميداوى ) و ( هونج كونج ) وتقوم بعمليات إنزال ناجحة فى ( سيام ) و ( ماليزيا ) و ( الفلبين ) ..

وعندما بلغت أخبار الهجوم مسامح رئيس الوزراء البريطانى ، من خلال مدير المخابرات تألقت عينها هذا الأخير بشدة وابتسم ابتسامة ظافرة واسعة هاتفاً :

- الآن ضمناً أن تعلن ( أمريكا ) الحرب ..

وكان على حق ففى ( أمريكا ) سادت موجة عمياء من الغضب انتهت بإعلان الحرب ..

ولم يدرك الأمريكيون ، ولم يتصوروا أيضاً ، وهم يدفعون أبناءهم وشبابهم إلى الحرب ، أنهم إنما يؤدون دوراً رسمته بخبث وشر ، ودون ذرة واحدة من الرحمة ، مخابرات دولة يفترض أنها حليفة ، وأن الضربة التى تلقتها إنما جاءت فعلياً من أقرب الناس إليها ..

الضربة الكبرى ..

الفاصلة .

\*\*\*

## العميلة السويسرية ..

منذ سطع نجم ( أدولف هتلر ) فى ( ألمانيا ) ، عقب فوزه الساحق فى انتخابات الحزب النازى ، عام 1929م ، بدأ صيته ينتشر ، فى ( أوروبا ) كلها ، وبخاصة مع خطبه الحماسية ، التى التهبّت بها عقول وقلوب الشباب ليس فى دولته وحدها ، ولكن فى عدة دول أوروبية محيطة ، على نحو أثار الكثير من القلق السياسى والعسكرى ، خاصة أن المحللين قد تنبؤوا بأن شخصاً مثله ، لا يمكن أن يهدأ له بال ، قبل يبسط نفوذه على رقعة واسعة فى ( أوروبا ) ولا بد وأن يسعى حتماً للخروج من معاهدة ( فرساي ) التى أذلت ناصية ( ألمانيا ) وسحقت روحها المعنوية ، إثر هزيمتها المؤلمة ، فى الحرب العالمية الأولى ..

وفى عام 1932م ، تقدم ( هتلر ) لترشيح نفسه ، رئيساً مقبلاً لدولته ، إلا أنه وعلى الرغم من أسلوبه الدعائى الجديد ، لم ينجح فى هزيمة ( هندنبورج ) الذى صار رئيساً للبلاد ، وفى نفس الوقت الذى حصل فيه حزب ( هتلر ) النازى ، على أكبر عدد من مقاعد ( الرايشستاغ ) .

ووفقاً للنظام الدستورى والنيابى ، كان من المحتم على ( هندنبورج ) أن يمنح ( هتلر ) رئاسة الوزراء ، على الرغم من اختلافه التام معه ، شخصياً وأيدولوجياً .

ومنذ اللحظة الأولى ، التى استقر فيها ( هتلر ) على مقعد رئاسة الوزراء بدأ سياسة قمعية مخيفة ، واتهم الشيوعيين ، ورجال الأعمال اليهود ، بأنهم المسئولون عن هزيمة ( ألمانيا ) ، فى الحرب العالمية الأولى ، وبدأ فى اضطهادهم واعتقالهم بلا رحمة ، وأنشأ السجون والمعقلات ، وصنع جهاز ( الجستابو ) ( وجهاز إس . دى ) بقيادة الجنرال ( هملر ) ، وأطلق أبواب دعايته ، من خلال وزارة الدعاية ، التى رأسها ( جوزيف جوبلز ) ، أشهر من تعامل مع كل أنواع الدعايات والشائعات فى التاريخ ..

ثم بدأ يبنى جيشه ، ويدعم قوته ، على نحو لم تعرفه ( أوروبا ) من قبل قط .

وفى المصانع الألمانية ، خرجت عشرات الأسلحة والمعدات .

دبابات .. طائرات .. مدرعات .. أسلحة خفيفة .. ذخائر ..

وتكونت قوات العاصفة ، التى استعد شبابها للموت فى سبيل ( هتلر ) ، قبل أن يكون هذا فى سبيل ( ألمانيا ) .

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يطيح ( هتلر ) بمنافسة ( هندنبورج ) ، فى انتخابات الرئاسة التالية ، وأن يصبح رئيس ( ألمانيا ) ، ورئيس وزرائها ، وقلبها النابض بالحماس والقوة أيضاً .

والعجيب أن ( أوروبا ) كلها قد رأت هذا وتابعته ..

ولم يتحرك أحد ..

الكل اكتفى بالمراقبة والمتابعة ، في حذر متوتر ، مع تساؤل كبير ، عما يمكن أن يقدم عليه ( هتلر ) ، في المرحلة التالية !!  
وكان من الطبيعي أن يروى هذا للزعيم ( أدولف هتلر ) ، وأن يتوافق مع هواه ، ومع رغبته في بناء قوته وتنظيم جيوشه التي راحت تنمو .. وتنمو .. وتنمو ..

ولكن فجأة ، وفي ذروة ما يحدث ، وبينما يبذل الكل قصارى طاقاتهم ، لبناء ( ألمانيا النازية ) ، والرايخ الثالث القوي ، اقتحم ( هملر ) مكتب الفوهرلر ، بكل توتر الدنيا ، وهو يلوح بكتاب في يده ، هاتفاً :

- كارثة أيها الفوهرلر العظيم .. كارثة .

اتعقد حاجباً ( هتلر ) في شدة ، وارتسم على وجهه كل توتر الدنيا ، وهو يقول :

- أية كارثة يا جنرال ؟!

وضع قائد ( الجستابو ) الكتاب ، أمام الفوهرلر ، وهو يقول في عصبية :

- صحفى سويسرى ، كشف كل تنظيمات جيوشنا .

هتف ( هتلر ) ، وجسده ينتفض في عنف .

- كشف ماذا ؟!

تابع ( هملر ) بكل غضب الدنيا :

- ليس هذا فحسب ، وإنما نشر كل التفاصيل في كتاب ، طرحه للبيع للعامة ، في المكتبات ودور الصحف .

ولقد كتب ( هملر ) في مذكراته ، أنه لم ير ( هتلر ) أشد انزعاجاً ، في تلك الفترة ، منه عندما سمع هذا الخبر ، حتى إن عينيه قد اتسعتا عن آخرهما ، وبدا أشبه بالشارد المصدوم ، وهو يحدق في الفراغ لبعض الوقت ، قبل أن يتساعل بصوت مختنق ، على الرغم من محاولته الحفاظ على صرامته المعهودة :

- وكيف حصل على كل هذه المعلومات ؟!

اعتدل ( هملر ) وهز رأسه في توتر ، قائلاً :

- لا أحد يدري !!

تراجع ( هتلر ) في مقعده ببطء ، وظلَّ يحدق في وجه ( هملر ) بضع لحظات ، قبل أن تستعيد ملامحه صرامتها الحقيقية ، التي بدت واضحة في صوته ، وهو يضرب سطح المكتب براحته ، هاتفاً :

- أريد ذلك الصحفي يا ( هملر ) .. أريده هنا .. بأسرع وسيلة ممكنة .. هل تفهم !؟

شد ( هملر ) قامته ، وأجاب بمنتهى الحزم والحسم .

- أفهم أيها الفوهلر .. أفهم تمامًا .

وباعتباره رجل ( جستابو ) ومخابرات محنكًا ، بدأ ( هملر ) تحركاته ، فور مغادرته مكتب الزعيم ( أدولف هتلر ) مباشرة .

وبعد مرور ساعة واحدة ، كان قد أصدر أوامره بالقيام بعمليتين سويسريتين ، في آن واحد ..

العملية الأولى ، التي أطلق عليها اسم ( صائد الفئران ) ، كانت تقتصر على جمع كل نسخ كتاب الصحفي ( بروتولد جاكوب ) ، من أسواق ( سويسرا ) و ( أوروبا ) ، على نحو دقيق مدروس ، وبأسرع وسيلة ممكنة ..

أما العملية الثانية ، والتي حملت اسم ( العملية السويسرية ) ، فكانت تخص الصحفي ( بروتولد جاكوب ) نفسه ..

كان الهدف منها معرفة الوسيلة ، التي جمع بها كل ما لديه من معلومات ، عن الجيش النازي ، ومواقفه ، وتفصيله الدقيقة ..

ووفقًا لخطة ( هملر ) ، لم تكن هناك سوى وسيلة واحدة ، للحصول على الحقائق الكاملة ، من الصحفي السويسري ألا وهي استجوابه بالوسائل الألمانية النازية ، المعروفة في ذلك الوقت .. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بوسيلة واحدة ..

إحضار الصحفي إلى ( ألمانيا ) ..

أو بمعنى أدق .. اختطافه ..

وعلى الرغم من أن ( سويسرا ) دولة محايدة وظلت على حيادها ، قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ، لم يتردد ( أدولف هتلر ) لحظة واحدة في الموافقة على تنفيذ العملية السويسرية وفورًا ..

وفي مساء اليوم نفسه ، سافر اثنان من رجال جهاز المخابرات النازي ( إس . دي ) ، إلى ( سويسرا ) ، وهما يحملان حقيبة ضخمة ، حوت بعض الملابس والمعدات القليلة لكليهما ..

والواقع أن عملية اختطاف ( جاكوب ) هذه لم تمثل أية صعوبة ، بالنسبة لاثنتين من رجال ( إس . دي ) المدربين .

فالصحفي لم يكن يتوقع ، أو حتى يتخيل عملية اختطاف ، في قلب بلد محايد رسميًا وفعليًا مثل ( سويسرا ) ، ثم إن الزمن لم يكن زمن حرب .. من الناحية الرسمية على الأقل ..

لذا ، فلم تغرب شمس اليوم التالي ، حتى كان ( جاكوب ) فى طريقه إلى ( ألمانيا ) داخل تلك الحقيبة الكبيرة . وقبل أن تشرق الشمس مرة أخرى ، كان يرتجف ، بكل رعب الدنيا ، داخل مقر المخابرات الألمانية ، المعروف باسم ( بيت الثعالب ) ، فى مواجهة أخطر رجل فى الرايخ الثالث ، بعد ( أدولف هتلر ) مباشرة .

وفى صرامة وحشية ، سأله ( هملر ) :

= كيف حصلت على تلك المعلومات ، التى نشرتها فى كتابك ؟!

حذق فيه ( جاكوب ) بدهشة مذعورة ، وهو يتساءل :

= أى كتاب ؟!

لم يكد السؤال يتجاوز شفتيه ، حتى هوت لكمة قوية على أنفه ، وثانية على فكه ، مع ثلاث صفعات متوالية على وجهه ، جعلت رأسه يدور فى عنف ، والدماغ تغمر وجهه كله ، فهتف وهو يبصق الدم ، من بين أسنانه المحطمة :

= أى كتاب ؟! . أقسم إننى أتساءل بصدق :

زمجر ( هملر ) بغضب هائل ، وهو يصرخ فى وجهه :

= الكتاب الذى كشفت فيه ، كل أسرار الجيش النازى العظيم .

حمل صوت ( جاكوب ) كل دهشة الدنيا ، وهو يهتف :

= أسرارًا؟! .. لم أتصور لحظة واحدة أنها أسرار .

زمجر ( هملر ) مرة أخرى ، واستعدت القبضات القوية ؛ لتهوى على وجه الصحفي المسكين مرة أخرى ، فهتف فى ارتياح :

= لم أتصور هذا ، لأننى جمعتها من الصحف .. صحفكم الألمانية .

صاح فيه ( هملر ) فى شراسة :

= أى قول أحمق هذا؟! .. هل تحاول إقناعى بأننا ننشر أسرارنا العسكرية على صفحات صحفنا ؟

هتف ( جاكوب ) فى رعب :

= ليس كل الصفحات ، بل صفحة واحدة فقط .

ردد ( هملر ) فى عصبية :

= صفحة واحدة؟!!

أجابه ( جاكوب ) ، فى لهجة أقرب إلى البكاء من فرط الرعب والارتياح :

= نعم .. صفحة الوفيات ..

وكان جوابه صدمة حقيقية ..

صدمة عنيفة للجميع ..

وبالذات للفوهرلر ( أدولف هتلر ) ، الذى هتف مستنكرًا ، فور سماعه :

- صفحة الوفيات؟! .. هل يدعى أنه قد حصل على أسرار جيشنا العظيم ، من خلال صفحة الوفيات؟! .. هل يتصور أنه بمقدوره خداعنا ، بهذا الجواب الساذج!؟

تتحنج ( هملر ) ، فى حرج وتوتر ، قبل أن يجيب :

- الواقع أن جوابه حقيقى تمامًا ، أيها الفوهرلر العظيم ، ولقد تأكدنا من هذا بأنفسنا .

تراجع ( هتلر ) كالمصعوق ، وهو يهتف :

- وكيف هذا!؟

التقط ( هملر ) نفسًا عميقًا ليجيب فى أسف :

- صفحات الوفيات كانت تحمل الكثير من المعلومات بالغة الخطورة ، والتي تمضى من تحت أنوفنا ، دون أن نشعر بمرورها ، ففى نعى ما ، تكتب الفصيحة رقم كذا ، المتمركزة فى منطقة كذا ، أنها تنعى شقيق قائدها الكولونيل ( فلان ) ، الذى لقى مصرعه فى حادث طريق مؤسف ، وفى نعى آخر يقدم الجنرال ( فلان ) ، قائد الكتيبة رقم كذا ، والموجودة فى منطقة كذا ، عزاءه البالغ لضابطه ( علان ) ، لوفاة أمه .. وهكذا .. عشرات المعلومات العسكرية ،

يتم نشرها كل يوم فى صفحات الوفيات ، دون أن يدرك أصحابها أنفسهم مدى خطورتها .

لوح ( هتلر ) بيده ، قائلاً فى غضب :

- ومادام صحفى مثل ( بروتولد جاكوب ) هذا قد أمكنه جمعها ، فما الذى يمنع العدو من المثل!؟

أشار ( هملر ) بسبابته ، قائلاً :

- بالضبط .

ضم ( أدولف هتلر ) قبضتيه ، وأسند نقه عليهما لبعض الوقت ، وهو يعيد التفكير فى الموقف كله مرة ، ومرة .. ومرات ، قبل أن يرفع عينيه إلى ( هملر ) ، قائلاً فى خشونة صارمة ، تحمل نبرة غضب واضحة :

- لا بد وأن نستفيد من الدرس يا جنرال .. وبسرعة .

أوما ( هملر ) برأسه ، مغمغماً :

- بالتأكيد أيها الفوهرلر العظيم .. بالتأكيد .

والواقع أن ( هملر ) قد استفاد كثيرًا من درس كتاب ( بروتولد جاكوب ) ..

بل وكل أجهزة المخابرات قد استفادت به من بعده ..

فمنذ ذلك اليوم ، وحتى لحظة كتابة هذه السطور ، لم يعد مسموحاً للجهات العسكرية بنشر أية تفاصيل ، فى صفحات الوفيات بالصحف ، أو حتى فى أية صفحات أخرى ، إلا بعد الرجوع إلى جهة مسؤولة ، وهى المخابرات الحربية فى الغالب ..

بل إن بعض الدول لم تعد تسمح بنشر أى نعى عسكري ، من أية جهة عسكرية ، أو ذكر ما يزيد عن رتبة المتوفى ، فى حالات محدودة جداً ..

ليس هذا فحسب ، ولكن ( هملر ) استفاد بالدرس ، إلى حد يتجاوز هذا بكثير .. وكثير جداً أيضاً ..

لقد أدرك كم يفيد الاطلاع على كتب الخصم ، وأخباره ، و صحفه ، وحتى صفحات وفياته ..

ومنذ ذلك الحين ، أصبح هذا أساساً من أسس عمل المخابرات ، فى كل دول العالم ، من أقصاه إلى أقصاه ، أن يتم الحصول على كل ما يصدر فى الدول المحيطة ، العدو أو الصديقة ، من صحف ، ومجلات ، وكتب ، وأخبار .

ولقد حقق هذا الأسلوب نجاحاً منقطع النظير ، خلال فترة الحرب العالمية الثانية ، وما بعدها ، وحتى لحظة كتابة هذه السطور ، حتى إن هناك سباقاً دائماً للحصول على الطبعات الأولى من الصحف ، عبر عمال المطارات ، فى مختلف أنحاء العالم ..

والأهم من كل هذا وذاك ، أن ( هملر ) قد أدرك أهمية المعلومات ، فى حروب الدعاية الحديثة ، مما جعله ينشئ ما عرف باسم مخابرات الدعاية ، أى المخابرات المسؤولة عن جمع المعلومات ، لتوظيفها فى خدمة الدعاية والحرب النفسية ..

وهكذا ، اعتبر عام 1935م ، وهو عام ( العملية السويسرية ) ، نقطة تحول واضحة وقوية ، فى مسار نظم الاستخبارات العالمية ، انطلاقاً من التطورات التى قام بها ( هملر ) ، والتى كان لها أكبر الأثر ، فى التأثير على الروح المعنوية البريطانية والفرنسية ، من خلال استغلال وزير الدعاية ( جوبلز ) لها ، فيما بيئه من إذاعات موجهة ، وما يلقيه من منشورات قوية ..

أما ( بروتولد جاكوب ) نفسه ، فقد تم الإفراج عنه ، إعادته إلى ( سويسرا ) ، بعد أن حصل على تعويض سخى ، من جهاز



( الجستابو ) النازى ، وربما كان أول وآخر من يحصل على مثل هذا التعويض فى تاريخ جهاز الأمن الألمانى كله .. ولكن التعويض كان مصحوباً بجملة مهمة جداً ..

جملة وجهها إليه ( هملر ) شخصياً ، وهو يقول :

- المال يحتاج إلى شخص حى ؛ لينفقه ويستمتع به .. هل تفهمنى جيداً يا هر ( جاكوب ) ..؟

وفهمه ( جاكوب ) جيداً ..

وأطبق شفتيه تماماً ..

وطوال السنوات العشر ، من 1935 ، وحتى 1945م ، لم ينبس ( بروتولد جاكوب ) بحرف واحد ، عما حدث له ، فى قلب ( ألمانيا ) النازية .

الخوف جعله يطبق شفتيه ، ويمسك لسانه ، .. ولكنه احتفظ بنسختين من كتابه ، الذى تسبب فى اختطافه ..

الكتاب الذى يحوى كل أسرار الجيش النازى ..

وحرصاً على ضمان السريّة ، تم تغيير مواقع كل قوات الجيش النازى ، قبل أن تبدأ الحرب الفعلية ، عام 1939م ..

وكانت نجاحاته واكتساحاته لجيوش ( أوروبا ) مضرب الأمثال .. ولكن ديكتاتورية ( هتلر ) لم تصمد أمام الحلفاء ..

وبدأ الجيش النازى يهزم .. وينهزم .. وينهزم ..

وفى عام 1945م ، سقطت ( ألمانيا ) ، وانتحر ( هتلر ) ، وانمحي من الوجود تماماً الرايخ الثالث .. والأخير ..

وفى أوائل عام 1946م ، نشر ( بروتولد جاكوب ) قصته ، مع إعادة نشر كتابه السابق ..

وعرف العالم كله قصة تلك العملية ، التى كانت السبب فى تغيير كل نظم المخابرات العالمية ..

العملية السوسرية .

\*\*\*

منذ اللحظة الأولى ، التي اعتلى فيها ( أدولف هتلر ) عرش السلطة ، على رأس ( ألمانيا ) النازية ، في عشرينات القرن العشرين ، انطلق زبانيته ينفذون أشنع عملية ، تتكامل وتصفية عرفها التاريخ الحديث ، حيث تم اعتقال ، وسجن ، وتعذيب ، وتشريد الآلاف ، من معارضي النظام النازي ، وقمع كل فكر مخالف ، بأقصى قدر ممكن من الشراسة والوحشية ، بحيث سرت موجة رهيبية من الذعر والفرع ، مع بحيرة الدم ، التي غمرت ( ألمانيا ) كلها ، حتى إن المعارضين المتبقين آثروا الصمت ، وقبعوا في بيوتهم ساكنين مرتجفين ، بل وراح بعضهم يخالف ما آمن به طيلة عمره ، ويعلم تأييده وقناعته بالنظام الجديد ، ويسارع أيضا بالانضمام إلى الحزب النازي ، ولصق شارته على صدره أو ذراعه ، اتقاءً للشهر الرهيب ، الذي جنم على أنفاس وقلوب الجميع ..

وقلائل هم من رفضوا هذا ، وأصروا على الصمود والمقاومة ، والتشبث بمبادئ الحرية والديمقراطية والانفتاح ..

ولأن المناخ لا يتسع لوجودهم ، في دولة أبرزت أتيابها ومخالبها ، وبتت تستعد لحرب طاحنة قادمة ، انطلقت هذه الفئة تتجاوز الحدود ، وتفر إلى الدول الحرة المجاورة ، وعلى رأسها ( سويسرا ) ..

ومن بين تلك الفئة المعارضة ، كان ( رود ألدريتش ) ..

( رود ألدريتش ) كان صحفياً سياسياً ، يتابع الألمان عموده الشهير ، في أكثر من سبع صحف ، قبل أن يأتي الحكم النازي ، ويحجم الآراء السياسية ، ويمنع نشر أي نقد له ، ويطارد ويحارب كل صحفى ، يتصور أنه يمكنه أن يمتلك قلمًا حرًا ..

ولأنه لم يحتمل هذا ، ولم يكن له مصدر آخر للرزق ، سعى ( ألدريتش ) لنقله ، من قسم التحقيقات السياسية ، إلى قسم المراسلين ، حيث أصبح ، مع بداية عام 1933م ، المراسل الأول لجريدته في ( برن ) ..

وهناك ، ووسط مناخ حر محايد ، استقر ( ألدريتش ) ، وراح يرسل كل أخبار الفن والمجتمع ، متحاشياً تماماً الدخول في عالم السياسة ، وخاصة بعدما تابع بنفسه عملية اغتيال عيفة ، راح ضحيتها صحفى ألماني آخر ، استقر في ( لوزان ) ، وراح يهاجم الفكر النازي لثلاثة أشهر ، قبل العثور عليه مذبحاً كالنجاج في شقته الصغيرة ..

وعلى الرغم من أن الشرطة السويسرية لم يمكنها التوصل قط إلى الفاعل ، إلا أن الكل ، وعلى رأسهم الألمان ، كانوا يدركون جيداً أن هذا من أعمال ( الجستابو ) ، بناءً على أوامر قائدهم

( هملر ) ، الذى لا يرحم قط كل من تسول له نفسه ولو مناقشة  
النظم النازية وأيديولوجيتها ..

ولفترة من الزمن ، تصور ( ألدريتش ) أنه قد استقر تمامًا ،  
ولم يعد هناك ما يشكل أدنى خطر بالنسبة إليه ، و ...  
وفجأة ، تلقى تلك الزيارة ..

كان يعود من عمله ، فى السادسة مساءً ، عندما ارتطم فجأة  
برجل وسيم طويل ، اعتذر له فى سرعة ، بلغة ألمانية سليمة ،  
وإن حملت لكنة غير مألوفة ، خاصة وهو يهمس فى سرعة :  
- اقرأها عندما تستقر فى منزلك .

ارتجف جسد ( ألدريتش ) فى قوة ، ثم تجمدت أطرافه كلها ،  
وهو يتابع فى هلع ذلك الرجل ، الذى واصل طريقه فى هدوء ،  
حتى اختفى عند الناصية ..

وشمل الانفعال كيان ( ألدريتش ) كله ، من قمة رأسه ، وحتى  
أخمص قدميه ، وهو يهرع إلى منزله ، ولم يكذ يستقر داخله ،  
ويغلق بابَه خلفه فى إحكام ، حتى ألقى جسده على أقرب مقعد  
إليه ، وراح يلهث فى قوة ، وكأنما بذل جهدًا ما بعده جهد ..

ولخمس دقائق كاملة ، عجز ( ألدريتش ) عن التقاط أنفاسه

فى يسر ، ثم لم يلبث أن اعتدل ، وراح يفتش جيوبه فى لهفة ،  
حتى عثر على تلك الورقة المطوية ، التى دسّها ذلك الوسيم  
الطويل فى جيب معطفه ، بمهارة يحسد عليها ..

كانت ورقة صغيرة ، مطبوعة على آلة كاتبة تقليدية ، وتقول  
بلغة ألمانية سليمة ودقيقة :

- لو أردت مواجهة النظام النازى على نحو إيجابى ، اتصل  
بنا .. نحن نشاركك توجهاتك .

وفى نهاية العبارة ، كانت هناك تعليمات دقيقة عن كيفية  
إعلان الموافقة ، وذلك عن طريق تعليق ورقة حمراء صغيرة ،  
فى نافذة منزله ، المظلة على الشارع الكبير ..

ولسنة أيام كاملة ، لم يجرؤ ( ألدريتش ) على وضع تلك  
الورقة الحمراء أبدًا ..

ففى أعماقه ، كان هناك خوف كبير ، من أن يكون كل هذا  
مجرد خدعة ..

خدعة قذرة ، من رجال ( الجستابو ) ، لكشف انتمائه الفكرى  
الحقيقى ، واتخاذ الإجراءات اللازمة ضده ، لو أنه أعلن رفضه  
للنظام ..

وفى أعماق أعماقه ، راحت المشاعر تتنازعه فى عنف ، وراح عقله يدرس الموقف ، ويحلله ، ويديره على كل الوجوه ..

ففى رأيه ، كان الاحتمالان متساويين تمامًا ..

فمن الممكن أن تكون خدعة من ( الجستابو ) ، أو محاولة من نظام مضاد للاتصال به !! ..

وعليه أن يحسم الموقف ، ويتخذ قراراً حاسماً .. للغاية .

ولأنه صحفى محنك ، اعتاد مواجهة عشرات المواقف الصعبة ، فقد وضع خطة متوازنة ، تعتمد على مقابلة هؤلاء الذين سعوا للاتصال به ، ومعرفة حقيقتهم ونواياهم ، فإذا ما راودته ذرة من الشك بشأنهم ، فسيتوجه مباشرة إلى السفارة الألمانية ، ويبلغ المسئولين فيها عما حدث ؛ ليتفادى أية محاولات انتقامية مستقبلية من ( الجستابو ) وغيرهم ..

وهنا ، وبعد أن توصل إلى قراره هذا ، علق ( ألدريتش ) تلك الورقة الحمراء الصغيرة ، فى نافذة منزله ..

ولثلاثة أيام كاملة ، بدا وكأن أحداً لم ولن يستجيب لما فعله ، وأن ما حدث أقرب ما يكون إلى خدعة سخيفة ، أو مزحة كبيرة غير مسئولة ..

وفى اليوم الرابع ، قرّر ( ألدريتش ) أن يلقي الأمر كله خلف ظهره ، فنزع الورقة من النافذة ، وعاد لممارسة عمله مراسلاً صحفياً مسئولاً ..

يومها لم ينته من عمله قبل التاسعة مساءً ، وعرج بعدها على مطعم صغير ، اعتاد تناول طعامه فيه ، فقضى فيه ما يقرب من الساعة ، قبل أن يبتاع بعض المشروبات ، ويعود إلى منزله الصغير ..

وفى تلقائية ، دلف ( ألدريتش ) إلى منزله ، وأغلق بابيه خلفه ، ووضع المشروبات على المائدة المجاورة للباب ، ثم أشعل الأضواء ، و ...

« تأخرت الليلة ... »

اتبعت الصوت الهادئ فجأة ، بلغة ألمانية ، حملت لهجة بريطانية واضحة ، من مسافة متر واحد منه ، فوثب من مكانه فى رعب ، واستدار مع ارتجافة شملت كيانه كله ، ليحدث فى رجل قوى البنية ، عريض المنكبين ، له شارب أحمر كث ، يتعارض مع رأسه الأصلع ، جلس هادئاً على مقعد كبير ، وهو يتسم ابتسامة باردة ، متابعاً :

- إننى أنتظر منذ التاسعة .

استمر (ألدريتش) يحدق فيه بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول  
في كثير من العصبية :

- من أنت؟! .. وماذا تفعل هنا!؟

تراجع الرجل في مقعده ، في هدوء مستفز ، وهو يجيب :

- لم يحن وقت التعاون المباشر بعد ، ولكن يمكنك الآن أن  
تطلق على اسم (جون) .. أما ماذا أفعل هنا ، فأنا هنا لمقابلتك ،  
وإقناعك بالعمل لحسابنا .

ارتجف صوت (ألدريتش) أكثر ، وهو يسأله :

- لحسابكم؟! .. من تعنى بالضبط!؟

مال الرجل إلى الأمام ، وهو يجيب بالإنجليزية هذه المرة :

- يسموننا المكتب السادس .. وتسموننا أتم المخابرات البريطانية .

واتسعت عينا (ألدريتش) عن آخرهما ، وتخادلت ساقاه ،  
وعجزتا عن حمله ، فترك جسده يهوى على أقرب مقعد إليه ،  
وهو ما زال يحدق في وجه (جون) ، الذي لاذ بصمت بارد  
طويل ، وكأنما يمنحه كل الوقت لاسترداد توازنه ، والسيطرة  
على رباطة جأشه ، حتى شعر أنه قد هداً إلى حد كبير ، فأشار  
بيده ، متسانلاً بنفس البرود :

- قل لي يا هر (ألدريتش) .. أنت مستعد للتعاون معنا ؛  
لنقف جميعاً في وجه ذلك المد النازي القادم .

ولم يجب (ألدريتش) لحظتها ..

أو أن أحداً لم يحاول تسجيل إجابته ، في الوثائق الرسمية ، التي  
نشرتها المخابرات البريطانية ، بعد مرور نصف قرن على نهاية  
الحرب العالمية الثانية ..

ولكن من المؤكد أن أشياء كثيرة قد تغيرت جذرياً ، بعد هذا اللقاء ..

ففجأة ، وعلى نحو أدهش معظم المعارضين النازيين ، عاد  
(رودلف ألدريتش) ، الشهير بـ (رود ألدريتش) إلى الكتابات  
السياسية ..

ليس هذا فحسب ، وإنما راحت كتاباته ، طوال عامي 1937م ،  
1938م تؤيد الفكر النازي ، وتُشيد به ، وتتغنى بعبقريته وألمعية  
وانفرادية الفوهرلر (أدولف هتلر) ..

وعلى الرغم من حالة الاستنكار الشديدة ، التي أحاطت  
بـ (ألدريتش) ، في مستقره في (برن) ، جذبت مقالاته الساخنة  
الحماسية انتباه (جوزيف جوبلز) ، وزير الدعاية النازي ، الذي  
تحدث عنها مع الفوهرلر شخصياً ، قبل أن يقول ، والحماس  
يتقاطر من كلماته ، في واحدة من الحالات النادرة :

- ذلك الصحفي يمكنه أن يصنع الكثير هنا ، عندما تنطلق الرصاصة الأولى .

وفي هدوء عجيب أيضاً ، تراجع الفوهرلر في مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، واستغرق في التفكير بضع لحظات ، قبل أن يقول بتلك الصرامة ، التي التصقت بأسلوبه دوماً :  
- بالتأكيد .

ولم يكن ( جوبلز ) بحاجة إلى أكثر من هذه الكلمة ، ليبدأ في اتخاذ إجراءاته على الفور ..

وقبل مرور يومين ، تلقى ( ألدريتش ) برفيقة عاجلة ، من الصحيفة التي يعمل لحسابها ، تطالبه فيها بالعودة فوراً إلى ( برلين ) ؛ لينتقل من قسم المراسلين إلى منصب رئيس قسم التحقيقات السياسية دفعة واحدة ..

وهنا أدرك ( ألدريتش ) أن ساعة العودة قد حانت ..

وأن ساعة النضال قد بدأت ..

وبعد مقابلة سرية طويلة ، بين ( ألدريتش ) ورجل المخابرات البريطاني ، الذي أطلق على نفسه اسم ( جون ) ، والذي لم تفصح عنه الوثائق السرية ، ولن تفصح عنه قبل عام 2015م ، استقل الصحفي الألماني القطار ، وانطلق عائداً إلى ( برلين ) ..

وطوال الفترة ، من عام 1938م ، وحتى اندلعت الحرب العالمية الثانية ، عام 1939م ، ظلّ ( ألدريتش ) يكتب مقالاته الحماسية ، عن النازية وجنراليتها وزعيمها ، دون أن يحاول ممارسة أى عمل تجسسى ، وفقاً لأوامر وتوجيهات المخابرات البريطانية ، وحتى لا يتطرق إليه أدنى شك ، مع التحريات التي سيجريها رجال ( الجستابو ) والـ ( إس . دي ) حوله حتماً ..

ومع بداية الحرب ، كان ( ألدريتش ) هو الصحفي السياسي المفضل ، لدى القيادة النازية كلها ، وعلى رأسها الفوهرلر ( أدولف هتلر ) نفسه ..

ومع أوائل عام 1940م ، أصبح ( ألدريتش ) هو المننى الوحيد ، الذي يمكن أن يتواجد في اجتماع الجنرالات ، وندواتهم العسكرية ، لمناقشة ومتابعة موقف الحرب ..

وهنا ، بدأ ( ألدريتش ) يقوم بدوره ، الذي تم تجنيده من أجله ..

وعبر قنوات خاصة ، تم إعدادها بدقة بالغة ، راح ( ألدريتش ) يرسل فيضاً من المعلومات ، إلى عملاء المخابرات البريطانية ، الذين ينقلونه بدورهم إلى المكتب السادس البريطاني ، أولاً بأول ..

وعندما حدثت مؤامرة اغتيال (أدولف هتلر) ، كان (ألدريتش) أحد الصحفيين الذين عملوا على تغطية الحادث ، ونشروا مقالات ساخنة ملتهبة ، تندد بالمحاولة والقائمين عليها ، في نفس الوقت الذي أرسل فيه أدق تفاصيلها الفعلية والحقيقية ، إلى المخابرات البريطانية ، التي ترجمت كل هذا إلى عدد من المنشورات ، التي ألقتها الطائرات على (برلين) ، كجزء من الحرب النفسية ، التي بلغت أوجها في تلك المرحلة ..

وعندما أصدر (هتلر) قراره بالهجوم على (روسيا) ، كان (رودلف ألدريتش) هو أول من أبلغ المخابرات البريطانية ..

وكذلك عندما بدأت مرحلة الاندحار والانهيار للجيش الألماني ، كان هو أول من أوصل تفاصيلها إلى الحلفاء ..

ولأنه أفرط كثيراً في منح كل ما يقع تحت سمعه وبصره ، كان من الطبيعي أن تنتبه القيادات النازية إلى وجود ثغرة كبيرة وسطها ..

ثغرة تنقل أدق التفاصيل إلى العدو ..

وهنا ، بدأ (الجستابو) ، مع المخابرات الألمانية ، مرحلة تحقيقات وتحريرات سرية كبيرة ، لكشف المسئول عن تلك الثغرة الرهيبة ..

ومن حسن حظ (ألدريتش) أن المخابرات البريطانية كانت يقظة ، وأدركت على الفور خطورة الموقف ، لذا فقد أبلغته أن يوقف نشاطاته كلها فوراً ، ثم طلبت منه السفر إلى (برن) في أقرب وقت ممكن ..

وفي براعة مدهشة ، ناور (ألدريتش) نظم الأمن النازية ، وأقنع (جوبلز) نفسه بضرورة سفره إلى (سويسرا) ، لتغطية النشاطات المضادة للنازية ، التي تتم هناك ، على الرغم من كونها دولة محايدة رسمياً ..

وفي أواخر عام 1943م ، سافر (رودلف ألدريتش) إلى (برن) .. وهناك ، اختفى فجأة ..

كان اختفاؤه مثيراً مدهشاً ، أثار انتباه واهتمام وقلق كل المتابعين ، ودفع بعض المتحمسين إلى اتهام المنشقين عن النظام النازي باغتياله ، باعتباره أحد كبار المتحمسين للنظام ..

وباختفائه الغامض ، لم يعد (ألدريتش) موضع الشبهات ، في التحقيقات التي أجريت بحثاً عن الثغرة في جدار المعلومات ، والتي أسفرت في أوائل عام 1944م ، عن الإيقاع بعميل بريطاني آخر ، وإعدامه ، على الرغم من عدم ثبوت الأدلة الكافية ، على أنه كان مصدر التسريب في معظم المعلومات العسكرية السرية ..

وحتى نهاية الحرب ، فى عام 1945م ، اختفى ( رولف ألدريتش )  
تماماً ونسى كل المتابعين أمره ، واعتبروه أحد ضحايا حرب  
طاحنة ، أراقت دماء الملايين من كل الجنسيات ..

وانهزمت ( ألمانيا ) النازية ، وسقط الرايخ الثالث ، واندفعت  
قوات الحلفاء تحتل ( ألمانيا ) ، وتتقاسم الغنيمة فيما بينها فى  
شراهة ، وذاق الشعب الألمانى مرارة ما فعله به قاداته ..

ثم هدأت الأمور ، واستقرت ، و ...

وفجأة ، عاد ( ألدريتش ) ..

عاد مرة أخرى إلى ( برلين ) الغربية .

عاد دون أن يتعرفه ، أو يكشف عودته مخلوق واحد ، لأن  
ملامحه قد تغيرت وتبدلت تماماً ، فاصطبغ شعره الأشقر بلون  
أسود داكن ، وأضيف إلى وجهه شارب كث ، ومنظار طبي كبير ،  
وحمل جواز سفر رسمياً ، باسم ( جون مالكوم ) ، مراسل جريدة  
بريطانية كبرى فى ( ألمانيا ) ..

وقضى ( ألدريتش ) عشر سنوات كاملة فى ( برلين ) ، حاملاً  
جنسيته واسمه الجديدين ، ثم لم يلبث أن هاجر إلى الولايات  
المتحدة الأمريكية ، التى ظلت تطالب رسمياً برأسه الألمانى ،  
باعتباره أحد كبار مؤيدى النظام النازى المنهار ..

وفى ولاية ( إلينوى ) ، وعلى الرغم من حياته الحافلة ، مات  
( ألدريتش ) فى فراشه بهدوء ، باعتباره مواطناً أمريكياً مخلصاً ،  
دون أن ينكشف أمره ، أو تحيط به ذرة واحدة من الشبهات ،  
ليضع نهاية لواحد من أهم جواسيس الحرب العالمية الثانية ..

وأنجحهم ..

على الإطلاق .

\*\*\*



## العيد الكبير ..

ارتسمت كل علامات الحنق والغضب والسخط ، على وجه الزعيم الروسي ( جوزيف ستالين ) ، مع حلول موعد الاحتفال السنوي التقليدي ، بعيد قيام الثورة البلشفية ، وشفت كل حركاته وسكناته عن توتر عنيف ، كامن في أعماقه ، ويلتهب مع كل نبضة من نبضاته ، حتى صارت الدماء التي تسرى في عروقه ، أشبه بالحمم الملتهبة ..

وكان هذا أمراً طبيعياً ، في ظل تلك الظروف القاسية ، التي كانت تحيط بالاتحاد السوفيتي ، في تلك الفترة العصبية من الزمان ..

النازيون شنوا حرباً مباغثة على الاتحاد السوفيتي ، على الرغم من المعاهدة الرسمية المبرمة بينهما ، وراحت الجيوش النازية تتدفق على الأراضي السوفيتية ، تنفيذاً لخطة ( بارباروسا ) ، أو ذى اللحية الحمراء ، التي وقّعها الفوهرلر ( أدولف هتلر ) نفسه ..

وخلال عيدين كاملين ، من أعياد الثورة البلشفية ، كانت الهزائم تتوالى على الجيش السوفيتي ، دون رحمة أو شفقة أو هوادة ،

وعلى الرغم من عناد الزعيم السوفيتي ، وإصراره على إقامة الاحتفالات في موعدها ، في المرة الأولى ، إلا أنه اضطر مرغماً على إلغائها ، في المرة الثانية ، مما أورثه ثورة أخرى في أعماقه ، مصدرها العجز والهزيمة ، والإحساس بالخزي والغضب .. وكان على القادة السوفيت ، بتكليف من الزعيم ، أن يفحصوا ويدرسوا أسباب الهزيمة ، في محاولة لجلب النصر ..

أى نصر ..

ولقد عكف القادة السوفيت بالفعل على دراسة الموقف كله ، بكافة دقائقه وتفصيله ، قبل أن يستخلصوا بضعة نقاط أساسية ، على رأسها ، على رأسها نقطة أثارت قلقهم جميعاً إلى أقصى حد .. الألمان يعرفون حتماً الشفرة السرية ، التي يستخدمها السوفيت في اتصالاتهم الخاصة جداً .

ولأن الأمر بالغ الخطورة ، إلى أقصى حد ، فقد تردّد القادة والمحللون طويلاً ، وراجعوا حساباتهم عشر مرات على الأقل ، قبل أن يجروا أحدهم على مصارحة الزعيم به ..

والواقع أنهم كانوا على حق تماماً ، في ترددهم وقلقهم هذا ، فلم يكذ ( ستالين ) يعلم به ، حتى احتقن وجهه ، واشتعلت عيناه ، وأفرغ كل غضبه وثورته في وجوههم جميعاً ، قبل أن يستدعي

ذراعه اليمنى ، واليد الباطشة له ، ووزير داخلية ، وقائد مخابراته  
( بيريا ) ، ليلقى الأمر فى وجهه كالصفعة ..

ولم تكن صدمة ( بيريا ) بأقل من صدمة زعيم ..  
بل وربما كانت ضعفها ..  
على الأقل ..

فتوال عقود من الزمن ، كان ( بيريا ) ، الذى اشتهر باسم  
( السفاح ) ، يزعم بأنه يحكم قبضته على الاتحاد السوفيتى كله ،  
ويزعم أنه ما من شخص ، مواطن أو أجنبى ، يمكنه أن يلتقط نفساً  
واحداً ، دون أن يعلم هو بأمره ، ويسيطر حتى على أنفاسه ..

ووجود خائن وجاسوس ، فى مكانة رفيعة ، تتيح له الحصول  
على مفاتيح شفرة سرية خاصة كهذه ، يبدو أشبه بطغنة فى  
الصميم ، لكرامته ، وسمعته ، وشهرته الدموية الواسعة .

ولكن ( بيريا ) لم يفضب أو يثر ، كما فعل زعيمه ، وإنما شدَّ  
قامته ، وأشار بيده للزعيم ( ستالين ) ، وهو يقول فى حزم صارم :

- امنحنى أسبوعاً واحداً أيها الزعيم ، و ...

قاطعه ( ستالين ) ، مزجراً فى قسوة :

- ثلاثة أيام .

حدق ( بيريا ) فى وجهه ، متمتماً فى حذر :

- ماذا أيها الزعيم !؟

زمجر ( ستالين ) مرة أخرى ، قبل أن يميل بوجهه العريض  
وحاجبيه الكثَّين المنعقدين نحوه ، مكرراً بكل الغضب والقسوة  
والصرامة :

- ثلاثة أيام فقط يا ( بيريا ) .. إننا نفقد آلاف الشباب والمقاتلين  
كل يوم .

صمت ( بيريا ) لدقيقة كاملة ، وهو يتطلع إلى عيني ( ستالين )  
المحمرتين المشتعلتين ، قبل أن يجيب :

- فى هذه الحالة يكفيننا يومان فحسب يا زعيم .

قالها ، وغادر مكتب ( ستالين ) ، وقد قرر أن يشعل الدنيا  
كلها لو اقتضى الأمر ؛ ليحافظ على سمعته ..

وبعد أقل من ساعة ، كان يجتمع بكل زبائنته ، فى حجرة  
اجتماعات خاصة مؤمنة ، فى قبو المبنى الخاص به ، وهو يقول  
فى صرامة مخيفة ، بعد أن شرح ملخصاً للأمر :

- الزعيم منحنا ثلاثة أيام فحسب ، لكشف هذا الأمر ، ولكننى  
مُصرٌّ على تحقيق النتائج الإيجابية خلال يومين فحسب .. أريدكم

أن تضعوا قائمة بكل من يمكنه معرفة مفاتيح تلك الشفرة الخاصة ، دون أي اعتبار للمناصب والرتب ، وأريد تحريات كاملة عن كل شخص ، خلال يوم واحد ، ونتائج واضحة بعد هذا بثلاث ساعات فحسب .

تبادل الرجال نظرة قلقة متوترة ، مع تلك المهلة القصيرة جداً ، ولكنه تابع بقسوة وصرامة أكثر :

- اتخذوا كل الإجراءات الممكنة .. اعتقلوا من تشبهون في أمره ..

استجوبوهم كلهم .. افعلوا كل ما تشاءون .

ثم مال إلى الأمام ، وبدا أشبه بالشيطان ، وهو يضيف :

- المهم النتائج .. وبأقصى سرعة .

عاد الرجال يتبادلون النظرات الصامتة ، دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة ، على الرغم من القلق والتوتر العارمين على وجوههم ، و ...

ولكن فجأة ، انبرى الكولونيل (بورجنين) ، أحد كبار معاوني (بيريا) ، قائلاً في حزم :

- هل يمكنني التحدث إليك وحدنا أيها الرفيق؟!

انعقد حاجبا (بيريا) في غضب عارم ، وكاد ينفجر في وجه (بورجنين) ، لولا أن أضاف هذا الأخير ، في حزم أكبر :

- إنه أمر مهم للغاية .

في المعتاد ، لم يكن (بيريا) ليحتمل مثل هذا الأمر ، مهما انطوى على فائدة للعمل ، إلا أنه ، وفي هذه الظروف ، التي حاقت فيها الهزيمة ، واشتعل غضب الزعيم ، كان من الطبيعي أن يغمغم في عصبية :

- فليكن .

واصطحب الكولونيل إلى حجرة جانبية ، لم يكذ يغلّق بابها خلفهما ، حتى قال (بورجنين) في صوت خافت حازم :

- أعتقد أنه ليس من الحكمة أن نلجأ إلى أية أساليب واضحة أو عنيفة أو مباشرة ، في هذا الأمر .

هتف (بيريا) في غضب مستنكراً :

- ليس من الحكمة؟! ..

أسرع (بورجنين) ، يقول بلهجة رجل خبير محنك :

- يمكننا أن نحقق فائدة مزدوجة ، ترضى الزعيم وتبهجه ، لو أننا اتبعنا نهجاً آخر .

نجحت عبارته الأخيرة الذكية في جذب انتباه (بيريا) ، الذي  
مال نحوه ، وهو يسأله في مزيج من اللفظة والعصبية :  
- أى نهج ؟

مال (بورجنين) نحوه بدوره ، وابتسم ، مجيباً بصوت أشبه  
بالهمس :

- الواقع أن لدى خطة .

كان من الواضح أن خطته قد راقت كثيراً للسفاح (بيريا) ؛  
فقد غادر معه الحجرة ، بعد ربع الساعة فحسب ، ليقول للمجتمعين  
في صرامة :

- لا داعى للاستجوابات والاعتقالات ، سنحرص على أن يتم  
الأمر بأقصى قدر من السرية .

وعلى الرغم من الدهشة العارمة ، التي تفجرت في كل ذرة  
من كيائهم ، إلا أن أحدهم لم ينبس ببنت شفة ، في هذه المرة  
أيضاً ..

ولكن من المؤكد أن جميعهم قد قام بواجبه خير قيام ؛ وأن  
شبكة ضخمة من التحريات والنشاط ، قد شملت كل القادة وكبار  
الجنرالات ، الذين يمكنهم معرفة مفاتيح الشفرة الخاصة ..

والدليل المؤكد على هذا ، هو أنه ، وقبل مرور اليومين  
المتفق عليهما ، كانت أمام (بيريا) قائمة صغيرة للغاية ، تضم  
ثلاثة أسماء فحسب ، من بين أربعة وعشرين شخصاً ، كان  
يمكنهم التوصل إلى مفتاح الشفرة الخاصة ، التي أطلقوا عليها  
مجازاً اسم (المعبر) ..

وعلى الرغم من أن هذه بالفعل نتيجة ممتازة ؛ نظراً لضيق  
الوقت ، إلا أن (بيريا) قد استقبلها بغضب شديد للغاية ..  
غضب مزدوج ..

والواقع أن الجزء الأكبر من غضبه ، كان يعود إلى أن سرّاً  
حربياً خطيراً كهذا يمكن أن يعلمه كل هذا العدد من الرجال ،  
والذي بدا له ضخماً للغاية ..

ولقد كان محقاً في هذا تماماً ..

ولكنه لم يكن يستطيع أن يعود إلى الزعيم ، بقائمة تضم ثلاثة  
أسماء ..

كان يحتاج إلى اسم واحد فقط ..

اسم يعنى الحسم ، والحزم ، والدقة ..

والنجاح ..

ولقد اجتمع (بيريا) برجله ، الكولونيل (بورجنين) ، وألقى إليه القائمة الصغيرة ، قائلاً في حدة غاضبة :

- كيف يمكنني أن أواجه الزعيم بأمر كهذا؟! .. كيف؟! ..

التقط (بورجنين) القائمة الصغيرة ، وراح يطالعها مرة .. وثانية .. وثالثة ..

وفي هدوء حازم ، قال :

- يمكنك أن تواجهه بها ، مع خطة عبقرية تبهره .

هتف (بيريا) في لهفة :

- كيف؟! ..

مال (بورجنين) نحوه ، وتألفت عيناه على نحو خبيث ، وهو يقول :

- سأخبرك كيف أيها الرفيق ..

واستمع إليه (بيريا) بكيانه كله ..

ولقد كانت خطته عبقرية بالفعل ، بدليل أنها قد نجحت في إبهار الزعيم (ستالين) نفسه ، و(بيريا) يشرحها ، قائلاً :

- الجاسوس بين هؤلاء ، لن يكتفى بنقل مفاتيح الشفرة فحسب ،

وإنما سيسارع حتماً بإبلاغ النازيين ، عن أي أمر أو قرار خطير ، تتخذه القيادة السوفيتية ، وكل ما علينا أن نفعله ، هو أن نخبر كلاً منهم بأمر يختلف عن الآخرين ، باعتباره سرّاً حربياً خطيراً ، وسنحدد لكل منهم موقعاً مختلفاً ، لمخزن سرى ندعى وجوده ، وسنرى أي موقع ستقصفه الطائرات الألمانية فيما بعد .

ارتفع حاجبا (ستالين) الكئيب ، قبل أن يخفضهما ، ويبتسم ابتسامة باهتة كعادته ، قائلاً :

- عظيم يا (بيريا) ... عظيم .

ثم استعاد صرامته القاسية ، وهو يضيف في غلظة :

- سنكشف أمر الخائن ، ثم نعدمه في الميدان الأحمر ، على رءوس الأشهاد .

تنحج (بيريا) ، مغمغماً :

- معذرة أيها الرفيق الزعيم ، ولكن خادمك (بيريا) يرى أنه من الأرباح أن نبقى عليه .

انتفض جسد (ستالين) كله في عنف ، وهو يصرخ في غضب مستنكراً :

- نبقى على خائن يا (بيريا)؟! ..

أسرع (بيريا) يقول :

- من أجل الوطن أيها الزعيم .

ثم استطرد في سرعة ، قبل أن تعلق الدهشة المستهجنة وجه الزعيم :

- لو أننا كشفنا أمره ، دون أن يدرك هذا ، ودون أن يدرك النازيون أننا قد كشفنا أمر معرفتهم لشفرتنا السرية الخاصة ، فسيمكننا أن نعزله ، ونقوم بتغيير الشفرة السرية ، مع مواصلتنا استخدام الشفرة القديمة ، لنبت بواسطتها كل ما نريد أن نبلغه للجيش النازي .

وتألفت عيناه ، مع ابتسامته الذنبية ، وهو يضيف :

- ولكن ما يفيدنا نحن .

كانت هذه خطة (بورجنين) ، إلا أن (بيريا) لم يشر قط إلى هذا ، وخاصة بعدما لمح الانبهار والإعجاب في عيني الزعيم ، الذي ربت على كتفه ، هاتفاً في صوت فخم ضخم مبتهج :

- عظيم يا (بيريا) .. عظيم حقاً !

ثم أضاف في حدة :

- ولكننا سنعدمه فور انتهاء الحرب .

وافقه (بيريا) بإيماءة من رأسه ، وهو يقول في جذل عجيب ، وكأنما أثلج قلبه ذكر الإعدام :

- فور انتصارنا أيها الزعيم .

وفور خروجه من مكتب الزعيم ، بدأ (بيريا) في تنفيذ خطته على الفور ..

ومع الجزء الأول من الخطة ، تم حصر الاتهام في شخص واحد ..

الجنرال (كواليسكي) ..

وهنا تم تنفيذ الشرط الثاني من خطة (بورجنين) ، بعد أن أضاف إليها (بيريا) خطوة ، بدت له شديدة الأهمية والخطورة ..

التخلص من (بورجنين) نفسه ..

ولقد تم هذا بحادثة سير عادية ، في قلب الميدان الأحمر نفسه ، والمدهش أن (بيريا) قد أشرف شخصياً على إعدام الجندي ، الذي نفذ الحادثة ؛ باعتبار أنه قد حرم البلاد من بطل عسكري ، في زمن الحرب ..

وهكذا أصبح (بيريا) هو صاحب الخطة العبقريّة ، التي سمحت للقيادة السوفييتية بخداع القيادة النازية ، طوال ما يقرب من عام كامل ، انقلبت فيه الآية ، وراحت الجيوش الألمانية تتنوق ، ولأول مرة ، طعم الهزائم المرّة ، التي طالما أذاقتها للآخرين ..

وللسوفييت بصورة خاصة ..

ولقد كشف جهاز المخابرات النازي الأمر بالفعل ، وأدرك أن السوفييت يخدمونه منذ زمن طويل ..

ولكن بعد فوات الأوان ..

فالقوات السوفيتية كانت قد استعادت كل ما احتلته الجيوش النازية من أرضها ، وراحت تزحف خلفها ، عبر ( آسيا ) ، و ( أوروبا ) ، حتى بلغت ( برلين ) نفسها ..

واندحرت ألمانيا النازية ، على نحو لم يتصوره أو يتخيله أحد ..

وانهارت إمبراطورية الرايخ الثالث ، قبل أن تثبت أقدامها على عرش العالم ، وانتحر قادتها ، وعلى رأسهم الفوهرل نفسه ..

وعندما ارتفعت رايات النصر ، ووقف ( ستالين ) يستقبل حماس وفرحة شعبه ، كان رأسه يُعد قرارًا جديدًا قويًا ..

قرارًا بإقامة احتفالات ضخمة بعيد قيام الثورة البلشفية القادمة ..  
ولقد كان ..

وفي احتفال لم تشهد ( موسكو ) كلها مثله ، احتفل السوفييت

بأول أعياد الثورة البلشفية ، بعد الانتصار الكبير ، في الحرب العالمية الثانية ..

ولقد أطلقوا على عيدهم المتميز هذا اسمًا خاصًا جدًا ..

عيد الثورة والنصر ..

العيد الكبير ..

جدًا ..

\*\*\*

على الرغم من البداية القوية ، التي استهل بها الجيش النازي الحرب العالمية الثانية ، وهو يقتحم ( النمسا ) ، و ( هولندا ) ، و ( بولندا ) ، ويُسقط ( فرنسا ) ، تلك الدولة العظمى القديمة ، ليسحق عظمتها إلى الأبد ، إلا أن انتقله إلى الجبهة السوفيتية ، كان إيذاناً بانقلاب كل الموازين ..

وأيضاً إلى الأبد ..

ففي البداية ، حقق الجيش النازي انتصارات ضخمة ، وحطم مقدمات الجيش السوفيتي بلا هوادة ، وأجبره على التراجع أمامه ، حتى مشارف ( موسكو ) نفسها ..

وللعالم كله ، بدا أن الجيش النازي سيحقق أقوى انتصاراته ، وأن ( هتلر ) سيفوز بنصف حلمه ، وسيسيطر على نصف الكرة الشرقي ، خاصة وأن ( ستالين ) وقادته قد غادروا ( موسكو ) بالفعل ، واستعدوا لتكوين مقاومة شعبية ، و ...

وفجأة ، توقفت القوات النازية ، على مشارف العاصمة السوفيتية !! ..

الجنرالات أنفسهم لم يفهموا ، لِمَ فعل ( هتلر ) هذا ، ولمَ أصر

على إيقاف القتال ، والشتاء على الأبواب ، وفي يأس ، حاولوا إقناعه باستمرار القتال ، حتى احتلال ( موسكو ) ، على الأقل لينعم الجنود بالدفء ، وليرع عليهم الشتاء القارص ، وهم داخل مدينة تحميهم ، لا وسط أدغال تلتهمهم بلا رحمة ..

ورفض ( هتلر ) بمنتهى الإصرار ..

وتوقف القتال ..

وكانت الكارثة ..

وبداية النهاية ..

ففي ظاهرة نادرة ، انخفضت درجات الحرارة إلى حد غير مسبوق ، حتى إن أقدام النازيين كانت تتجمد في أحذيتهم ، بل إن بولهم كان يتجمد ، فور خروجه من أجسادهم ، مما أصابهم بحالة من الإحباط البالغ ، أدت إلى تدهورهم مادياً ومعنوياً ، وخاصة مع الهجمات المباغتة والمتعددة والعنيفة ، التي كان الكوماندوز السوفيتي الأبيض يشنها عليهم ، من وسط الثلوج .. ومع توغل الشتاء ، راح الجيش النازي ينهار ، وينهار ، وينهار ..

وبلغت تلك الأخبار القاسية ( أدولف هتلر ) شخصياً ، من خلال رئيس الجستابو ( هملر ) ، الذي قال متوتراً :



- الموقف يتدهور بسرعة في الشرق أيها الفوهرل العظيم ،  
ولو استمر على هذا الحال ، سنخسر جناحنا الشرقي كله ، خلال  
شهرين فحسب .

انعقد حاجبا الفوهرل في شدة وغضب ، وقال في صرامة :

- لن أسمح بالانسحاب .. أبداً .

أسقط في يد ( هملر ) ، عندما سمع العبارة ، التي نطقها الزعيم  
النازي بعناده الشهير ، وأيقن أنه كعادته ، لن يتراجع عن قراره  
قط ، مهما ثبت من خطئه ، لذا فقد انتقل فوراً إلى الخطة  
البديلة ، وهو يقول :

- علينا إذن أن نخفف القتال ، على الجبهة البريطانية و ( أوروبا ) ؛  
للتركز أكثر على الجبهة السوفيتية .

زمجر ( هتلر ) ، قائلاً في حدة :

- البريطانيون لن يسمحوا بهذا .

ثم استدرك في سرعة :

- إلا إذا ..

بتر عبارته دفعة واحدة ، وانعقد حاجباه في شدة ، كعادته كلما  
راودته فكرة من أفكاره المجنونة ، فأنحبت أنفاس ( هملر ) ،

وهو يتطلع إليه بضع لحظات ، في صمت مطبق ، دون أن يجرو  
على التفوه بحرف واحد ، حتى رفع الفوهرل عينيه إليه ، وقال  
في عصبية :

- ماذا فعل البريطانيون ، عندما أرسلنا ( هيس ) ؛ للتفاوض

معهم !؟

تردد ( هملر ) لحظة ، قبل أن يجيب :

- لقد رفضوا عرضنا ، واعتقلوه ، ونفينا نحن محاولتنا هذه  
تماماً ، واتهمناه بالخيانة والجنون ، و ...

قاطعته ( هتلر ) في حدة :

- وكل هذا بسبب الغبي ( تشرشل ) .

مرة أخرى ، لم ينبس ( هملر ) ببنت شفة ، بل ولم يجرو حتى  
على استنتاج ما يفكر فيه زعيمه ، الذي لاذ بالصمت لحظات  
أخرى ، بدت ملامحه خلالها شديدة الغضب ، قبل أن يتابع :

- لو أن هناك رئيس وزراء غيره ، لتغير وجه التاريخ تماماً ،  
ولتأزرنا معهم ، حتى نقضى على الخطر الشيوعي ، الذي يزحف  
على العالم كله ..

مرة أخرى لم يفهم ( هملر ) ، ولكنه شد قامته في وقفة  
عسكرية ، وقال بمنتهى الحزم :

- أوامرك أيها الزعيم .

وهنا ، عقد ( هتلر ) كفيه خلف ظهره ، وفرد صدره عن آخره ، وهو يقول ، في لهجة مزجت غضبه بصرامته :

- لا بد وأن يرحل ( وينستون تشرشل ) .

سرت قشعريرة باردة ، في جسد ( هملر ) ، إلا أنه لم ينطق حرفاً واحداً ، وإنما واصل صمته ، حتى أضاف ( هملر ) :

- وأن يأتي من يتآزر معنا ، ضد الخطر الشيوعي .

ثم التفت إلى ( هملر ) ، مضيفاً بكل الصرامة :

- قبل قوات الأوان .

وهنا ، ضاعف ( هملر ) من شد قامته ، وهو يقول بمنتهى الحزم :

- فوراً أيها الفوهرل .

وغادر ( هملر ) حجرة مكتب الزعيم النازي ، موقناً من أن لديه تكليفاً واضحاً ..

اغتيال ( وينستون تشرشل ) ؛ لفتح الطريق أمام مفاوضات السلام ..

كان واثقاً من أن زعيمه ، لو نجح في عقد هدنة مع البريطانيين والأمريكيين ، فسيستغل هذا حتماً ، لضرب الجبهة السوفيتية في مقتل ، وبعد تصفيتيها بالكامل ، سينقض حتماً هدنته ، ويعاود الهجوم على البريطانيين بلا رحمة ..

ولكنه استعد لتنفيذ مهمته ، على أكمل وجه ..

ودون أن يغمض له جفن ، طلب ( هملر ) كل الملفات السرية ، للعملاء النازيين في قلب ( لندن ) ، وراجعها بمنتهى الدقة ، حتى انتقى منها ملفاً واحداً ، فجر اليوم التالي ..

ملف ( جون أشكروفت ) ..

و ( أشكروفت ) هذا هو في الواقع عميل نازي قديم ، تم زرعه وسط الأوساط الراقية البريطانية ، في مقاطعة ( ويسكنيسون ) ، عام 1929م ، باعتباره الابن المفقود ، للورد ( فيليب أشكروفت ) ، الذي تم اختطافه في طفولته ، واختفى طوال ربع قرن كامل ..

وفي حينه ، ملأت أخبار عودة ( جون ) كل الصحف البريطانية ، وتحولت إلى مأساة درامية معروفة ، خاصة وأن ( جون ) قد عاد بحالة مزرية ، وتم العثور عليه في واحد من مستشفيات الطوارئ ، وتعرفته خالته ، التي كانت تعمل متطوعة في ذلك المستشفى ، عبر وحة حمراء بشكل قلب ، على كتفه اليسرى ..

ورويذا رويذا ، راح ( جون ) يستعيد ذاكرته ، ويروي أحداث طفولته ؛ ليثبت لمجتمع النبلاء البريطانى كله ، أنه ، دون أدنى شك ( جون أشكروفت ) نفسه ..

وكانت أيامها ، واحدة من أبرع وأقوى عمليات المخابرات النازية ، التى رصدت قصة اختفاء ( جون ) القديمة ، وجمعت أدق التفاصيل عنها ، ثم عملت على تدريب عميلها ( رودلف بار ) ، المولود لأب ألمانى ، من أم بريطانية ، والذى يتحدث لغة أمه بطلاقة تامة ، ليتقمص شخصية ( جون ) ..

وبلعبه باللغة الجراءة ، وجراحة واضحة الدقة ، تم وضع الوحمة الصناعية على كتفه ، لتمثيل وحمة ( جون ) الحقيقى ، ثم تمت إصابة ( رودلف ) بعدوى ميكروبية ، ونقله بتلك الهيئة المزرية إلى مستشفى الطوارئ ، الذى تعمل فيه خالة ( جون ) الحقيقى ، والتى تم اختيارها أيضا بدقة ..

وهكذا ، ومنذ عام 1929م ، احتل ( رودلف بار ) مكان ( جون أشكروفت ) ، وسرعان ما تخلص من الوالد ( فيليب ) ، ليترث لقبه وضيعته ، ويصبح عضواً فى مجلس اللوردات البريطانى ، فى عام 1938م ، قبيل عام واحد من اندلاع الحرب العالمية الثانية ..

وعبر ( جون ) كان النازيون يلمون بقرارات مجلس اللوردات

أولاً بأول ، وحتى قبل أن تنشرها الصحف ، وكان عميلهم قد أصبح واحداً من أشهر رجال المجتمع السياسى فى ( لندن ) ، وتمتع باستقرار وثقة ، و ...

وفجأة ، وصلته أوامر بالغة الخطورة ..

أوامر تطالبه بتدبير لقاء مع رئيس الوزراء ( وينستون تشرشل ) ..

واغتياله ..

ولقد تلقى ( رودلف ) الأمر فى توتر بالغ ، وأجرى اتصاليين للتيقن من صحته ، قبل أن يجد نفسه أمام أمر واضح صريح ، يطالبه بالتخلّى عن كل ما صنعه ، خلال كل السنوات الماضية ؛ للتخلص من رئيس الوزراء البريطانى ..

وكان هذا يعنى أن القضاء على ( تشرشل ) ، أصبح يمثل نتيجة الحرب كلها ..

ومنذ استقراره فى شخصية ( جون ) ، كان ( رودلف ) يعلم أنه سيواجه مخاطر لا حصر لها حتماً ، وأنه سيضطر يوماً للقيام بعملية كبرى ، تبرر تواجده فى عمق مجتمع السياسة البريطانى ..

ولكن الواقع أن لعبة الاغتيال هذه لم تخطر بباله قط ..

فالأمر لم ولن يكون سهلاً أو هيناً أبداً ..

صحيح أنه ليس من العسير عليه أن يدبر اجتماعاً مع رئيس الوزراء ، بل ولن يرهقه باعتباره محترفاً أن يصيبه في مقتل أيضاً ، ولكن الخروج سالماً من عملية كهذه ، كان أشبه بالمستحيل ..

وهذا ما عليه أن يدرسه .. وبمنتهى الدقة ..

المشكلة أنه ، ومع سنوات تواجده في المجتمع البريطاني ، قد بدأ يشعر بحالة من الاستقرار الحقيقي ، على الرغم من عمله في مجال الجاسوسية ؛ فقد تزوج الليدي ( إليزابيث ) ، ابنة ( ماك جريجوري ) ، رجل الجيش الشهير ، وأنجب منها ابنة وابناً ، وعلاقته بها جيدة ، وكل من يعرفهم يعتبرهم أسرة صغيرة سعيدة ..

وعليه الآن أن يضحى بكل هذا ، من أجل وطنه الأصلي ( ألمانيا ) ..

وليس لديه خيار في هذا الأمر في الواقع ؛ فلو أنه تقاعس عن القيام بمهمته ، فلن يتردد النازيون في كشف أمره ، وإرسال كل ما يدينه من وثائق ، إلى المخابرات البريطانية ، التي ستلقى القبض عليه حتماً ..

باختصار ، لقد تحطمت حياته في كل الأحوال ..

وليوم كامل ، راح ( رودلف ) يدرس موقفه ، وجلس ساعة كاملة ، يتطلع إلى طفليه الفاتمين ، ونصف ساعة أخرى يتطلع إلى زوجته ، وفي التاسعة من صباح اليوم التالي ، أجرى اتصالاً مع مجلس الوزراء البريطاني ، وطلب موعداً لمقابلة رئيس الوزراء شخصياً ، لأمر عاجل للغاية ..

ولما كان عضواً محترماً ذائع الصيت ، في مجلس اللوردات ، فقد حدد له ( تشرشل ) موعداً للقاء ، في الثانية عشرة بالضبط ..

وفي حزم المحترفين ، ارتدى ( رودلف ) أفضل ثيابه ، وفتح درجاً سرياً في مكتبه ، التقط منه قلماً كبير الحجم ، هو في حقيقته مسدس من طراز سرى خاص ، ابتكرته المخابرات النازية ، ويحوى رصاصة واحدة ، وودعهم القلم في الجيب الداخلي لسترته ، وقبّل زوجته وطفليه ، وودعهم وهم في حيرة من أمره ، ثم ذهب للقاء رئيس الوزراء البريطاني ..

وفي الثانية عشرة بالضبط ، استقبله ( وينستون تشرشل ) في مكتبه ..

وفي الثانية عشرة ، وتسع دقائق بالتحديد ، سمع كل المحيطين دوى رصاصة منفردة ، في مكتب رئيس الوزراء ..

ومع دقائق الواحدة ، توقفت سيارة تابعة للمخابرات البريطانية ،  
أمام قصر ( جون أشكروفت ) ، وغادرها ضابط مخابرات شاب ،  
غاب في القصر لنصف ساعة تقريباً ، قبل أن يغادره مع زوجة  
( رودلف ) وولديه ، وحقائبهم ، وانطلق معهم إلى مكان مجهول ..  
ولم تصدر أية بيانات رسمية ، في هذا الشأن ..

وفى ( برلين ) ، وصل الخبر عبر اتصال لاسلكى عاجل ، وحمله  
( هملر ) فور وصوله إلى مكتب الفوهرلر ، وقال فى حماس :  
- ( رودلف ) نفذ المهمة .

تألقت عينا ( هتلر ) بشدة ، وهو يسأل :

- هل تيقنتم من الخبر ؟!

ابتسم ( هملر ) ، قائلاً :

- على نحو غير مباشر أيها الفوهرلر .

انعقد حاجبا ( هتلر ) ، وهو يقول فى حدة :

- ما الذى يعنيه هذا ؟! .. إما أنكم قد تيقنتم أو لا .

أشار ( هملر ) بسبابته ، وهو يقول :

- فى مثل هذه الأمور ، لا تصدر بيانات رسمية ، إلا فى حالة

فشل العملية فحسب ، أما مع نجاحها ، فكلهم يلزم الصمت ، حتى  
يتم تحديد الخطوة التالية .

ازداد انعقاد حاجبى ( هتلر ) ، وهو يقول :

- ما زلت أصر على تأكيد صريح ..

اعتدل ( هملر ) فى وقفته ، قائلاً :

- سيتم إبلاغك به فور وصوله أيها الفوهرلر ، و ...

قبل أن يتم عبارته ، فتح السكرتير الخاص للفوهرلر الباب ،  
وقال فى توتر شديد :

- أخبار عاجلة من ( لندن ) يا سيدى .

قالها ، ووضع ورقة أمام الفوهرلر ، الذى قرأها بسرعة ، ثم  
احتقن وجهه بشدة ، وهو يلقيها فى وجه ( هملر ) ، قائلاً فى  
غضب هادر :

- ها هو ذا التأكيد يا قائد ( الجستابو ) .

وقرأ ( هملر ) الورقة .. وامتنع وجهه بشدة ، حتى بدا أشبه  
بالموتى ..

فما حدث فى الواقع ، كان يختلف عما تصوّره تماماً ؛ إذ إن  
( رودلف بار ) الذى ظلّ جاسوساً مخلصاً للنازية ، لأكثر من  
عشر سنوات ، لم يستطع التضحية بزوجته وابنيه ، بأى ثمن كان ..

لذا ، فقد التقى برئيس الوزراء البريطانى بالفعل ، واعترف أمامه بالأمر كله ، بل وأطلق رصاصة مسدسه ، المخفى داخل ذلك القلم ؛ ليثبت صحة روايته ، وبعدها سلم نفسه لـ ( وينستون تشرشل ) ، الذى أحال الأمر كله بدوره ، إلى المخابرات البريطانية ..

وبسرعة ، بدأت مخابرات المملكة تحركها ، فاعتقلت ( رودلف ) ، وأسرعت تحمى أسرته ( البريطانية ) ، بنقلها إلى مكان آمن مجهول ، وأحاطت الأمر كله بحالة من الصمت المطبق ، باعتباره أحد الأسرار القومية ، حتى لا يتسرب إلى الصحافة ، بأى حال من الأحوال ..

وفى مكان لم يفصح عنه قط ، حتى بعد كشف الأوراق السرية للمخابرات البريطانية ، بعد نصف قرن من الحرب ، تم استجواب ( رودلف ) ، الذى أدلى باعترافات صريحة كاملة ، فى مقابل عدم المساس بزوجته وطفليه ..

ومن الواضح أن ما أدلى به من معلومات كان بالغ الأهمية والخطورة ، حتى إن المخابرات البريطانية قد أخفته مع أسرته فى منطقة آمنة ، طوال الفترة التى تلت هذا ، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ..

وفى تلك الفترة ، زادت الجبهة البريطانية من ضغوطها على

الجيش النازى ، وهبط الأمريكيون فى ( نورماندى ) ، وتحطم الألمان فى جليد ( موسكو ) ، واندحروا على نحو لا مثيل له ؛ ليطاردهم الجيش السوفيتى ، مطاردة عنيفة قاسية ، عبرت أوروبا كلها ، لتنتهى فى ( برلين ) ..

وانهار الرايخ الثالث ، وانتحر قائده ، وعلى رأسهم ( هتلر ) نفسه ، واستخدم الأمريكيون قنبلتيهم النوويتين .. وانتهت الحرب العالمية الثانية ..

ومع نهايتها ، وبالاتفاق مع الأمريكيين ، تم نقل ( رودلف ) وأسرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث حصل على هوية جديدة ، له ولزوجته وطفليه ، وعاش باعتباره مهاجراً بريطانياً إلى هناك ، ولم يعرف حقيقته سوى عدد محدود للغاية ، من قادة المخابرات البريطانية ، والأمريكية فيما بعد ..

وبهذا انتهت أغرب عملية نازية ، فى قلب الحرب العالمية الثانية ..

عملية اغتيال ، راح ضحيتها ، النظام النازى ..

كله .

\*\*\*

انقسم العالم كله ، فى تلك الفترة الحرجة ، من بدايات عام 1941م ، ما بين مؤيد ، ومعارض ، ومبهور ، ومذعور ، بما حققته الجيوش النازية الهتلرية ، من انتصارات واكتساحات ، جعلتها تبدو وكأنها سيد العالم القادم بلا منازع ، وخاصة مع سقوط (فرنسا) المدوى ، وهزائم (إنجلترا) المتوالية ، وإسراع (روسيا) بعقد معاهدة دفاع مشترك مفاجئة ، مع الفوهرلر (أدولف هتلر) ، وكأنها تعترف بتفوقه عليها ، وبخوفها الشديد من قواته ..

وعلى الرغم من هذا التفوق الكاسح ، لم يكن (هتلر) سعيدًا كما ينبغي ، وهو يذلف إلى مكتبه ، فى دار المستشارية الألمانية ، ويطلب مقابلة رئيس (الجستابو) (هملر) فورًا ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة ، هرع (هملر) إلى مكتب رئيسه ، وأدى التحية النازية فى حرارة ، قبل أن يسأل فى قلق :

- ماذا هناك أيها الزعيم؟! .. لست تبدو سعيدًا ، على الرغم من انتصاراتنا الساحقة ، على كل جيوش (أوروبا) تقريبًا .

تراجع الفوهرلر فى مقعده ، وهو يقول فى صرامة :

- أسرارنا يا جنرال .

سأله (هملر) ، فى قلق أكثر :

- ماذا عنها أيها الزعيم؟! ..

اعتدل (هتلر) ، وهو يقول فى حدة :

- البريطانيون يسعون خلفها طوال الوقت ، ويحاولون الحصول عليها فى دأب ؛ لإدراكهم أن معرفتها قد تقلب مسار الحرب كلها رأسًا على عقب .

قال (هملر) فى حماس :

- ولكننا نحمل أسرارنا بكل قوتنا ، أيها الفوهرلر العظيم ، ولقد ألقينا القبض ، فى الشهر الماضى وحده ، على أربعة من الجواسيس البريطانيين .

أشار إليه (هتلر) ، قائلاً فى صرامة :

- هذا بالضبط ما أتحدث عنه .

ثم هبّ من خلف مكتبه ، مستطردًا :

- البريطانيون لا يتوقفون ، ولا ييأسون أبدًا ، وكلما ألقينا القبض على أحدهم ، أرسلوا اثنين آخرين بدلاً منه ؛ ولن تتوقف محاولاتهم أبدًا ، ما داموا يعرفون أننا نحتفظ بوثائقنا كلها هنا .

لم يفهم (هملر) ما الذى يعنيه زعيمه بالضبط ، لذا فقد

اعتدل ، وشد قامته ، وهو يسأله في احترام وحذر :

- ماذا تقترح أيها الفوهرل !؟

رمقه ( هتلر ) بنظرة قاسية صارمة ، قبل أن يتجه إلى الخريطة الكبيرة ، على جدار حجرة مكتبه ، وهو يقول :

- (فرنسا) .

لم يفهم ( هملر ) ما يعنيه هذا ، فضاقت عيناه ، وانعقد حاجباه في تساؤل ، انتبه إليه ( هتلر ) ، فأشار بسبابته إلى نقطة ما ، على الساحل الفرنسي ، وهو يكمل في حزم :

- هنا ، في هذه البقعة بالتحديد ، توجد قلعة قديمة ، من العصور الوسطى ، يمتلكها أحد النبلاء الفرنسيين ، وهي تطل على البحر مباشرة ، وتحيط بها أرض واسعة ، تخلو من الأشجار والموانع الطبيعية ، وتمنح من يقف على سطح القلعة الفرصة ، لرصد وحماية منطقتها كلها ، بأقل جهد ممكن .

التقط ( هملر ) طرف الخيط على الفور ، فابتسم ، قائلاً :

- يمكننا أن نستصدر أمراً فورياً ، بمصادرة تلك القلعة ، وكل ما يحيط بها من أراض ، لدواع أمنية حتمية أيها الزعيم .

مط ( هتلر ) شفثيه ، وكأنما لا يروق له الاقتراح ، وعلى

الرغم من هذا ، فقد قال في حزم صارم :

- أريد إحاطتها بفرقتين مسلحتين ، وفرقة كاملة من قوات الصاعقة ، مع تسليح كامل ، ومدفعين من المدافع المضادة للطائرات ، وكذلك مدفعين من المدافع المضادة للسفن الحربية ، ووضع مدمرتين أمام ساحل القلعة .

والتقط نفساً عميقاً ، قبل أن يضيف :

- أريدك أن تنقل كل وثائقنا السرية إليها ، وألا يكون هناك سبيل واحد لبلوغها ، حتى ولو جند البريطانيون بعوضة لهذا الغرض .

ابتسم ( هملر ) ابتسامة واسعة ، وهو يقول :

- اطمئن أيها الفوهرل العظيم .. سأصنع من تلك القلعة حصناً حصيناً ، لحماية كل وثائقنا وأسرارنا .

نطقها ، وأدى التحية النازية ، قبل أن يغادر مكتب ( هتلر ) ، ويتجه على الفور إلى مكتبه ؛ ليصدر قراراً بالاستيلاء على تلك القلعة في (فرنسا) .. فوراً ..

قلعة الأسرار .. القادمة ..

\*\*\*

يقولون في عالم المخابرات : إنه ما من جهاز أمني ، مهما بلغت



مناعته ، يخلو من ثغرة ما ، فى مكان ما ، لم تنتبه إليه العقول ،  
ومهمة أى جهاز مخابرات ناجح ، هو أن يبحث عن الثغرة ، فى  
نظام خصمه ، لينفذ منها ، ويحقق أهدافه كاملة ..

وعلى الرغم من أن ( هملر ) قد أحاط موضوع قلعة (فرنسا)  
هذه ، بأقصى قدر ممكن من السرية ، إلا أن الخبر قد تسلسل من  
ثغرة ما ، ليبلغ جهاز المخابرات البريطانى ، الذى اجتمع رؤساؤه  
على الفور ، وراحوا يناقشون الأمر فى اهتمام بالغ ، وأحدهم  
يقول :

- لو أن الألمان قد نقلوا كل وثائقهم السرية ، وكل أسرارهم  
بالغة الخطورة ، إلى تلك القلعة ، فهذا يعنى أن حصولنا عليها قد  
يقلب الموازين كلها رأساً على عقب .

قال رجل آخر فى توتر :

- حصولنا على أسرار الألمان ، يحتم دخولنا إلى قلعتهم أولاً ،  
ووفقاً لما حصل عليه جواسيسنا من معلومات ، يبدو لى هذا  
درباً من المحال .

أجابه رئيسه فى حزم صارم :

- فى عالمنا لا يوجد محال ... كل ما نحتاج إليه هو مزيد من  
المعلومات ، التى يمكنها أن تقودنا إلى ثغرة ما ، فى ذلك النظام

المنيع .

أضاف رجل آخر :

- وإلى خطة مبتكرة أيضاً .

وهنا ، تتحنج سير (ستيورات) ، أحد رجال المخابرات القدامى ،  
قبل أن يقول :

- لو أن الأمر يتعلق بالأفكار والخطط المبتكرة ، فلدى فى إدارتى  
شباب واسع الخيال ، من أسرة (فليمنج) ، لديه فيض لا ينقطع ،  
من الأفكار والخطط المبتكرة .

سأله رئيسه فى اهتمام :

- يمكنك أن تثق فيه ، إلى الحد الكافى !؟

أجابه سير (ستيورات) ، فى سرعة وحزم :

- إلى أقصى حد ممكن يا سيدى ، فنصف خطط إدارتى على  
الأقل من ابتكاره .

ردّد أحد الرجال بابتسامة كبيرة :

- إدارتك معروفة بخططها الرائعة ، ونجاحاتها المبهرة .

نقل رئيسهما بصره بينهما ، قبل أن يقول فى حزم :

- فليكن .. دعنا نرى ما يمكن أن يفعله رجلك هذا .

تنهد سير (ستيورات) في ارتياح ، قائلاً :

- بكل تأكيد يا سيدي .. بكل تأكيد .

بعد ساعة واحدة من هذا الاجتماع ، كان الشاب (آيان) يقف في احترام ، أمام رئيسه سير (ستيورات) ، الذي شرح له الموقف كله ، قبل أن يتراجع في مقعده ، قائلاً :

- الأمر يبدو مستحيلًا كما ترى يا (آيان) ، ولكن ربما يتوقف مصيرنا جميعًا على حصولنا على تلك الوثائق الألمانية السرية ، لذا فنحن نحتاج إلى فكرة جديدة ، وخطة مبتكرة ، تساعدنا على اختراق ذلك السياج المنيع ، الذي أقامه النازيون حول القلعة ، بأقل خسائر ممكنة .

شد (آيان) قامته ، مجيبًا في ثقة :

- لا يوجد مستحيل يا سيدي .. هذا شعارنا هنا .. أليس كذلك !؟

ومنذ ذلك الحين ، وربما فور خروج (آيان فليمنج) من حجرة رئيسه سير (ستيورات) ، بدأ الشاب العبقري ، سليل الأسرة البريطانية العريقة النبيلة ، في البحث عن سبيل للوصول إلى قلب قلعة الأسرار ، على الرغم من الحراسة المشددة حولها ..

أحضر تصميمات القلعة ، عبر أحد الجواسيس المهرة ، وعكف على

دراساتها ليلاً ونهاراً ، ويدير الأمر في رأسه مرة ، ومرة .. ومرات ..

وبعد عشرة أيام بالتحديد ، طلب مقابلة رئيسه سير (ستيورات) ، ولم يكذب يقف أمامه ، حتى هتف في حماس :

- وجدتها يا سيدي .

وبكل حماسه ، فرد خريطة القلعة أمام رئيسه ، وراح يصف كل التحصينات المحيطة بها ، والموجودة حولها وعلى سطحها ، حتى هتف به سير (ستيورات) في ضيق :

- (آيان) .. هل أتيت إلى هنا ، وطلبت مقابلي ، حتى تشرح لي نظم حراسة وتأمين القلعة !؟

هز (آيان) رأسه نفياً ، وهو يبتسم ، قائلاً :

- بل أتيت لأقول إن هناك مكاناً واحداً ، لم يحطه النازيون بالحراسة الكافية .

ثم أشار بيده إلى الخريطة ، مستطردًا في حزم :

- البحر .

تطلع سير (ستيورات) إلى النقطة ، التي أشارت إليها سبابة الشاب ، قبل أن يقول في بظء :

- هناك مدمرتان ألمانيتان ، تحرسان الساحل .

أجابه ( آيان ) فى سرعة :

- إنهما تحرسانه لحمايته من أى هجوم بحرى ، وهذا يعنى أن طاقمى المدمرتين يتطلعون إلى البحر طوال الوقت ، وليس إلى القلعة .

تراجع ( ستيورات ) فى مقعده ، متسائلاً :

- وما الذى يمكنه أن يفيدنا به هذا ؟!

أجابه ( آيان ) فى حماس :

- لو راجعت تصميمات القلعة يا سيدى ، لوجدت أن أحد جدرانها يطل على البحر مباشرة ، وليس به سوى نافذة صغيرة واحدة ، بالقرب من السطح ، وأسوار السطح نفسها تمنع الجنود الألمان المسئولين عن المدافع المضادة للسفن والطائرات من النظر إلى أسفل ، ورؤية أى شخص ، يمكن أن يتسلق الجدار .

بدا الاهتمام على سير ( ستيورات ) ، وهو يسأله :

- وكيف يمكن أن يصل أى مخلوق إلى جدار القلعة ، المطل على البحر ، دون أن يمر بالمدمرتين ، اللتين تحرسان السواحل هناك ؟!

قال الشاب بنفس الحماس :

- لقد راجعت السجلات البحرية ، لمعرفة قدرات المدمرتين ، والمدى الذى يحكم الرماية فيهما ، ووجدت أنه من المستحيل إرسال سفينة إلى المنطقة ، حتى لو تنكرت فى هيئة سفينة صيد فرنسية عادية .

مال سير ( ستيورات ) إلى الأمام ، وهو يسأله باهتمام أكثر :

- وكيف يمكنك أن تتجاوز هذه العقبة ؟!

فرد الشاب أمامه لوحة أخرى ، مجيباً :

- بتنفيذ هذه التصميمات يا سيدى .. إنها طراز جديد من الطوربيدات ، لها محركات ذاتية ، بحيث يمكن أن يقودها فريق من الضفادع البشرية ، للانطلاق من غواصة ، تقف على مسافة بعيدة ، والمرور بها على عمق مناسب ، أسفل المدمرتين الألمانيتين ، حتى يبلغ الجدار الخلفى للقلعة ، قبيل الفجر بساعة واحدة ، أى فى موعد تغيير الحراسة تمامًا ، بحيث يتم الفريق مهمته فى أفضل وأسرع وقت ممكن ، ثم يقود الطوربيدات ذاتية الدفع مرة أخرى ، عائداً إلى الغواصة .

حدق فيه سير ( ستيورات ) فى انبهار ، قبل أن يسأله :

- كم ستبلغ نسبة الخسائر فى تقديرك ، لو نفذنا هذه الخطة ؟

أجابه ( آيان ) ، فى سرعة وحزم :

- خمسين من المائة يا سيدى .

أوماً الرجل برأسه متفهماً ، وغمغم :

- خطة عبقرية بالفعل يا ( آيان ) .. أعتقد أنه سيكون لك شأن

كبير فى عالم المخابرات ، ذات يوم .

وحظت خطة ( آيان فليمنج ) بالفعل بقبول كل من عرضت

عليهم من رجال المخابرات البريطانية .

وصدر الأمر بتنفيذ التصميمات الجديدة فوراً ..

وفى إبريل 1941م ، تم تنفيذ خطة الشاب بحذافيرها ، باستخدام

دسنة من رجال الكوماندوز البريطانيين ، فى زى الضفادع البشرية ..

وقبيل الفجر بساعة واحدة ، وصل الفريق البريطانى ، إلى

الجدار الخلفى للقلعة المنيعة ، وتسلق الجدار فى مهارة ، ودخل

إلى مقر الأسرار النازية ، من تلك النافذة العلوية الصغيرة ،

بالقرب من السطح ..

وبسرعة ودقة مذهلتين ، تمكن الفريق البريطانى المحدود من

السيطرة على القلعة فى الداخل تماماً ..

وتم الاستيلاء على كل الوثائق السرية النازية ..

ومع شروق الشمس ، غادر الفريق البريطانى القلعة ، من

نفس الطريق الذى استخدموه لدخولها ، وهم يحملون عشرة

كيلوجرامات من الوثائق النازية ، فى أكياس مزدوجة من البلاستيك ،

المقاوم للماء تماماً ..

ودارت محركات الطوربيدات ذاتية الحركة مرة أخرى ، لتعيدهم

إلى الغواصة البريطانية ، التى تنتظرهم بعيداً ، فى قلب البحر ..

عندئذ ، وعندئذ فقط ، اتنبه طاقم حراسة القلعة إلى ما يحدث ..

وانطلقت النيران نحو الفريق البريطانى ، الذى أسرع يغوص

فى الماء ، وينطلق تحت سطح البحر ، بأقصى سرعة ممكنة ..

وكأمل أخير ، استخدمت المدمرتان النازيتان قنابل الأعماق ،

فى محاولة لمنع البريطانيين من الفرار ، حاملين أخطر وأدق

الوثائق السرية الألمانية ..

ولكن البريطانيين بلغوا غواصتهم بنجاح ، بعد أن فقدوا شخصاً

واحداً ، وأصيب آخر ووصلت الوثائق النازية السرية سليمة وكاملة ،

إلى المخابرات البريطانية فى ( لندن ) ..

وقلبت مسار الحرب بالفعل ، رأساً على عقب ..

ولأن الفوهرر كان صاحب الفكرة شخصياً ، لم يجرؤ مخلوق واحد ،

## البعوث ..

على الرغم من الحرب الدائرة بلا انقطاع ، فى ( أوروبا )  
و ( آسيا ) ، وجزء من شمال ( أفريقيا ) ، فى تلك الفترة من  
بدايات صيف عام 1941م ، ذروة الحرب العالمية الثانية ، مضت  
ليلة العاشر من مايو هادئة نسبياً ، بالنسبة للعاصمة ، البريطانية  
( لندن ) ، إذ توقفت الطائرات الألمانية عن قصفها المستمر ، لأول  
مرة منذ أسبوعين كاملين ، وصفا الطقس على نحو غير مسبوق ،  
مما منح سكان المدينة فرصة نادرة ، للخروج من المخابئ والبحث  
عن متنفس للهواء النقى ، بعد أن نشرت القنابل النازية النار والدمار ،  
على نحو لم تفعله أية حرب سابقة ، عبر التاريخ كله ..

وفى مقر المخابرات البريطانية ، استغل الرجال فترة الهدوء  
النسبى هذه ، فى ترتيب أوراقهم ، ومراجعة نتائج عملياتهم ،  
التي لم تشهد ، فى تاريخهم كله ، نشاطاً جمّاً ، وانتشاراً محمومًا ،  
مثلما شهدته فى تلك الأيام العصيبة ..

فالجيش النازية اجتاحت ( أوروبا ) كلها تقريباً ، وانتشرت فى  
( آسيا ) على نحو مخيف ، وراحت تحقق انتصارات متتالية قوية ،  
على نحو أوحى بأنه لن يمضى عام أو عامان ، حتى يرتفع العلم  
النازى على ( أوروبا ) بأكملها ، ما لم يمتد إلى العالم كله ...

وفى رصانة قلقة ( كعادته ) ، تساعل رجل المخابرات البريطانى  
العريق ( سنكلير ) ، الذى منحه الملكة لقب ( سير ) ؛ تقديرًا

على وصف عملية نقل الوثائق السرية الألمانية ، إلى الشاطيء  
الفرنسى ، المواجه للجزر البريطانية بالحماقة أو الفشل ..

وعلى الجانب الآخر ، راح البريطانيون يكشفون كل أسرار  
النازيين ، ويلقون القبض على شبكات جواسيسهم بالجملة ..

وخسرت ( ألمانيا ) الحرب فى النهاية ، وانتحر ( هتلر ) ، وانهار  
الرايخ الثالث ، فى عام 1945م ، وربحت ( بريطانيا ) وحلفاؤها  
الحرب بجدارة ، وحصل سير ( ستوارت ) على وسام خاص من  
ملكة ( بريطانيا ) ..

أما الشاب ( آيان فليمنج ) ، فعلى عكس ما توقعه له ( ستوارت ) ،  
فلم تكد الحرب تضع أوزارها ، حتى قدم استقالته ، وانطلق فى  
عالم آخر ، يعشقه منذ نعومة أظافره ..

عالم الرواية والأدب ..

إلا أن هذا لم يمنع اسمه من أن يتألق فى عالم روايات  
الجاسوسية ، بعد أن ابتكر أشهر شخصياتها على الإطلاق ..

( جيمس بوند ) ..

شخصياً .

\*\*\*

لبراعته وحنكته ، وجهده المتصل ، فى سبيل التاج :

- ترى لماذا هدا القصف الألماني الليلية؟!

بدا السؤال مقلقا ، بالنسبة لرجال المخابرات البريطانية ، الذين جمعتهم مائدة الاجتماعات الليلية المعتادة ، فقال أحدهم فى حذر :

- ربما احتاج الطيارون الألمان إلى إجازة للراحة الليلة .

هز سير ( سنكلير ) رأسه ، معلنا عدم اقتناعه بالجواب ، وهو يقول فى حزم :

- ( هتلر ) لن يمنح طياريه إجازة ، إلا لو أنجزوا شيئا يرضيه ؛ فذلك الرجل لا يقتنع بأهمية الإجازات أبدا .

تبادل الرجال نظرة قلقة ، قبل أن يسأل أحدهم فى اهتمام :

- لماذا هدا القصف الليلة فى رأيك إذن يا سيدي؟!

تراجع سير ( سنكلير ) فى مقعده ، وغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى ببطء :

- لولا أنني أخشى أن تتهموننى بالهوس ، تجاه طبيعة عملى ؛ لقلت : إن التفسير المنطقى الوحيد لهدوء الليلة ، هو أن هناك عملية مخابراتية نازية فى الطريق .

بدت الدهشة على وجوه الرجال لحظة ، قبل أن يتراجع أحدهم ، مغمما :

- الواقع يا سيدي ، أنني لست أجد رابطة واضحة ، بين ..

قبل أن يتم عبارته ، اندفع مسئول الاتصال داخل الحجرة فجأة ، وهو يهتف فى انفعال واضح :

- سير ( سنكلير ) .. لن يمكنك أن تصدق ما حدث الليلة .

التفت إليه الجميع فى حركة حادة ، واعتدل ( سنكلير ) فى مقعده ، فى اهتمام بالغ ، وهو يرهف سمعه جيدا ، والرجل يتابع بنفس الانفعال :

- أحد قادة النازى ، هبط بطائرته على سواحلنا ، وطلب مقابلة المسئولين هنا .

هتف أحد الرجال فى دهشة :

- أحد قادة النازى؟! .. أتعنى أنه جنرال؟!

التقى حاجبا ( سنكلير ) فى شدة ، ومسئول الاتصال يجيب ، وقد تضاعف انفعاله :

- إنه ليس جنرالا عاديا .. إنه ( هيس ) .. ( رودلف هيس ) .. شخصا ..

وتفجر قوله كقنبلة ، وسط الاجتماع ...

قنبلة من الدهشة والذهول ..

بلا حدود ..

\*\*\*

في تلك الفترة ، من الحرب العالمية الثانية ، كان (رودلف هيس) هو الرجل الثاني في النظام النازي ، بعد (أدولف هتلر) مباشرة ..

والواقع أن علاقة (هيس) بالفوهرل النازي تعود إلى فترة طويلة جداً ، وبالتحديد إلى الحرب العالمية الأولى (1914-1918م) ، حيث خدم كلاهما في فرقة المشاة ذاتها ، وواجهها معاً هزيمة (ألمانيا) المؤسفة ، وشعرا سوياً بالخزي والعار والغضب ، واتفقت آراؤهما إلى حد كبير ، وانبهر (هيس) بشخصية (هتلر) ، واعتبره مثله الأعلى ، في تلك الفترة من الزمن ..

وبعد الحرب ، أصبح (رودلف هيس) ضابطاً في السلاح الجوي الإمبراطوري ، ثم لم يلبث أن انضم إلى الحزب النازي الوليد ، في أوائل العشرينات ، وتحمس لمبادئه ، خاصة وأن رفيق سلاحه ومثله الأعلى (هتلر) ، قد أكد له أن مستقبلاً زاهراً ينتظر هذا الحزب ، مع ما يحمله من اتجاهات ، تروق للشعب الألماني كله ..

وفي عام (1923م) ، اشترك (هيس) مع (هتلر) ، في محاولة (بيرهول) ؛ للإطاحة بالحكومة البافارية ..

وفشلت المحاولة ..

ومع الفشل ، تم إلقاء القبض على كل المشاركين في المؤامرة ، وتم سجن (رودلف هيس) مع (أدولف هتلر) ، في قلعة (لاتسبورج) ..

واقترب (هيس) من (هتلر) أكثر وأكثر ، وتابع تطور كتابه الشهير (كفاحي) ، والذي وضع أساسه ، وكتب أفكاره وصفحاته ، أثناء فترة اعتقاله في (لاتسبورج) ..

وانبهر (هيس) بكتاب (هتلر) ..

وانبهر أكثر وأكثر بشخصيته ، وطموحاته ، وأفكاره ، وحماسه الشديد لتعويض هزيمة الحرب العالمية الأولى ، والسعي لوضع (ألمانيا) ، بجنسها الآري ، فوق كل شعوب (أوروبا) ..

بل وفوق كل شعوب العالم ..

ولم تستمر فترة الاعتقال طويلاً ، إذ سرعان ما غادر الاثنان سجنهما ، وعادا إلى الحزب النازي ، ليحتل كل منهما دوراً رئيساً فيه ، وليصبح (هيس) رئيساً للجنة السياسية المركزية ، والضابط الأعلى لمفرزة الأمن في الحزب ..

ثم راح نجم (هتلر) يصعد ، ويجذب معه (هيس) إلى أعلى ، ويضاعف من انبهاره بشخصية زميله القديم ، حتى لقد ذاب (هيس) تماماً في حالة الانبهار هذه ، وأصبح التابع المخلص الأمين للفوهرل (أدولف هتلر) ، وخاصة عندما أصبح عضواً في المجلس التشريعي الرئيس ، عام 1933م ، ثم وزيراً في حكومة (هتلر) فيما بعد ، ونائباً له باعتباره زعيماً للحزب النازي ، ورئيساً للوزراء ، ثم رئيساً للحكومة فيما بعد ..

واشتهر (هيس) دوماً بانبهاره الشديد بزعيمة (هتلر) ، وبتنفيذه لكل أوامره ، دون معارضة أو مناقشة ..

ومع إشعال ( هتلر ) الحرب في ( أوروبا ) ، وقف خلفه ( هيس )  
بكل قوته ، وكل حماسه ، و ...

وفجأة ، ومع إصرار ( هتلر ) على مهاجمة ( روسيا ) ، وفتح جبهة  
شرقية جديدة ، قبل أن يستقر حال الجبهة البريطانية ، اتخذ ( هيس )  
أقوى وأغرب قرار في حياته ، وانطلق بطائرته إلى هناك .

إلى البريطانيين ..

مباشرة ..

\*\*\*

« هل تعتقد أنه صادق في هذا؟! .. »

ألقى رئيس الوزراء البريطاني السؤال ، على مسامع سير  
( سنكلير ) ، رجل المخابرات البريطاني الفذ ، قبل أن يتابع ، في  
حيرة متوترة :

- إنه يؤكد أنه هنا ، بأوامر مباشرة من ( هتلر ) ، الذي يعرض  
علينا السلام والهدنة ، ويخبرنا أن الخطر الحقيقي ، الذي يواجهه  
العالم ، هو الخطر الشيوعي ، وأنه علينا أن نتآزر معاً ؛ لمواجهة  
السوفييت ، والقضاء على الشيوعية ، قبل أن تلتهم ( أوروبا ) ، والعالم  
كله فيما بعد .

اتعتقد حاجبا ( سنكلير ) ، وتراجع في مقعده ، في تفكير عميق ،  
قبل أن يقول في ببطء :

- الواقع أنه من العسير تصور ( هتلر ) ، رجلاً يسعى إلى  
السلام .

وافقه رئيس الوزراء ، وهو يقول في انفعال :

- أليس كذلك!؟

ولكن ( سنكلير ) تابع ، وكأنه لم يسمعه :

- ولكنه صادق في هذا .

تراجع رئيس الوزراء بحركة عنيفة ، وكأنما أصابته صاعقة ،  
وهو يهتف ، بكل دهشة واستنكار الدنيا :

- صادق؟! .. مستحيل!!

نهض ( سنكلير ) من مقعده ، قائلاً في حزم :

- لقد أجريت تحريقتي ، فور سماعي الخبر ، وأمرت بيث التساؤل ،  
لكل رجلنا في ( برلين ) ، ولأحد أهم جواسيسنا ، في القيادة النازية ،  
كما ربطت هذا بعدة وقائع أخرى ، منها توقف القصف النازي تماماً ،  
في الليلة التي وصل فيها ( هيس ) بطائرته إلى سواحلنا ، ثم  
خرجت بالحقيقة ، التي لم وربما لن يتم إعلانها رسمياً أبداً .



سأله رئيس الوزراء البريطاني ، وقد جفاً حلقه ، من فرط  
الانفعال :

- وما هذه الحقيقة ؟!

أجابه ( سنكلير ) فى سرعة :

- ( برلين ) لم تُعلن بعد اختفاء نائب رئيس الحزب النازى ، على  
الرغم من أن هذا أمر يصعب عدم الانتباه إليه ، فما الذى يمكن  
أن يعنيه هذا ؟!

بدا الاهتمام على وجه رئيس الوزراء ، وإن لم يحاول إجابة  
السؤال ، فتابع ( سنكلير ) فى حزم :

- إنهم ينتظرون رد فعلنا أولاً ، قبل إعلان الموقف ، فلو وافقتنا  
على عرض ( هتلر ) ، فسيعلن أنه قد أرسل نائبه ، فى مبادرة  
سلام نادرة ، وأنه سيتآزر معنا ضد الشيوعية ، أما لو رفضنا  
المبادرة ، فإما أن نعيد إليه نائبه ، فيموت الأمر فى مهده ، أو نلقى  
القبض عليه ، فيتهمه عندئذ بالخيانة على الأرجح .

التقى حاجبا رئيس الوزراء ، وهو يقول فى توتر :

- هل تعتقد هذا ؟!

أشار ( سنكلير ) بسبابته ، مجيباً بمنتهى الحزم :

- دون أدنى شك .

ارتفعت أنفاس رئيس الوزراء البريطانى ، على نحو مسموع ،  
وبدت أقرب إلى اللهاث ، معلنة انفعاله الشديد ، وهو غارق فى  
تفكير عميق للغاية ، قبل أن يلوح بيده ، قائلاً :

- الواقع أنه عرض مغر للغاية يا سير ( سنكلير ) ، ولست  
أخفى عنك أن معظم الوزراء يميلون إلى قبوله ؛ فهذا يعنى حقن  
الدماء ، وإيقاف عجلة الدمار ، و ...

قاطعه ( سنكلير ) ، على الرغم من مخالفة هذا لقواعد اللياقة ،  
وهو يقول فى حزم صارم :

- ويتم تحويلها إلى ( روسيا ) .

أدار رئيس الوزراء عينيه إليه فى حيرة آسفة ، قائلاً :

- لهجتك توحي بأنك ترفض العرض يا سير ( سنكلير ) .

شدّ ( سنكلير ) قامته ، وهو يسأل :

- هل تريد رأى الشخصى ، أم رأى باعتبارى رجل مخابرات

محنتاً ، يا سيادة رئيس الوزراء ؟!

صمت رئيس الوزراء بضع لحظات ، دون أن يبعد عينيه عنه ،

ثم لم يلبث أن قال :

- إننى أثق فيك ، باعتبارك رجل مخابرات محنكاً .

التقط ( سنكلير ) نفساً عميقاً ، قبل أن يقول فى حزم :

- ارفض العرض إذن يا سيادة رئيس الوزراء .. ارفضه ، وألقِ القبض على ( هيس ) هذا ، وأعلن أنه جاءنا منشقاً عن النظام النازى .. بهذا تضرب ( هتلر ) معنوياً فى مقتل .

تردد رئيس الوزراء ، وهو يقول فى حذر :

- أترى أن هذا أفضل من قبول العرض يا سير ( سنكلير ) .

أجاب ( سنكلير ) ، بمنتهى الحزم :

- من الحمافة قبول أى عرض ، من رجل مثل ( أدولف هتلر ) ، يا سيادة رئيس الوزراء ، وهذا ليس رأياً شخصياً ، وإنما هى تقارير جهاز المخابرات ، الذى أنتمى إليه ، فوفقاً لجواسيسنا ، وعمالنا فى قلب القيادة النازية ، لا يمكن أبداً إقناع ( هتلر ) أو نظامه ، بإيقاف نزيف الدم العالمى ، أو إيقاف آلة القتل العسكرية الجبارة لديهم ، وكل ما يتوقعه خبراءنا ، هو أن الفوهرل يحاول تحييد جبهتنا ؛ لضمنا إلى حربه ضد السوفيت ، بحيث يضمن الانتصار الساحق عليهم ، وبعدها سينقلب علينا ، ويستعيد حربه معنا ، حتى يتحقق له النصر الساحق ، على ( أوروبا ) كلها .

امتقع وجه رئيس الوزراء ، وهو يقول :

- أهذا رأيك !؟

هزَّ ( سنكلير ) رأسه نفياً فى حزم ، مجيباً :

- ليس رأيى يا سيادة رئيس الوزراء .. إنه رأى جهاز المخابرات البريطانى .

التقط رئيس الوزراء نفساً عميقاً ، وقال فى حزم :

- وهو رأى يتحتم احترامه ..

وفى الصباح التالى ، أعلن البريطانيون وصول ( هيس ) بطائرته إلى سواحلهم ، فراراً من النظام النازى ..

وعلى الفور ، أعلن ( هتلر ) أن نائبه ( هيس ) قد أصيب بالجنون ، ولم يعد يدرى ما يفعله ، ثم وصمه بالخيانة ..

ولم يدر العالم كله حقيقة ما حدث ، طوال أيام الحرب العالمية الثانية ، وحتى سقوط ( ألمانيا ) ، واستسلام ( اليابان ) ..

وفى محاكمات ( نورمبرج ) ، عام 1946م ، عادت قصة ( هيس ) إلى الظهور ، وخاصة عندما أعلن أنه إنما جاء يعرض السلام ، وأن ( هتلر ) ، على الرغم من انتحاره ، ما زال مثله الأعلى ..

وبسرعة ، كذبت وسائل الداعية الغربية ما قاله ( هيس ) ، الذى تم الحكم عليه بالسجن مدى الحياة ..

## الذبحة ..

منذ صعد الحزب النازي إلى السلطة في (ألمانيا) ، في ثلاثينات القرن العشرين ، أخذ نجمه يسطع ، على نحو غير مسبوق ، في (أوروبا) كلها ، ومع خطب (هتلر) الحماسية ، وكلماته البراقة القوية ، انبهر العشرات من الشباب ، في عدة دول أوروبية أخرى بالفكر النازي ، وبأحلام القوة والسطوة ، حتى إن بعضهم راح ينادى بالمد النازي ، في (أوروبا) والعالم كله ..

وبلغت أفكار تلك الفئة مسامع وعقل الفوهرلر ، وأشعلت الكثير من الأحلام والطموحات في أعماقه ، فراح يُعد عدته ، ويشحذ قوته ، ويمهد السبيل للغزو الكبير ، متظاهراً أمام العالم كله بأنه إنما ينشئ ما ينشئ ويُعد ما يُعد ، استعداداً للدورة الأولمبية القادمة ، التي تقرر إقامتها في (برلين) ..

ثم فجأة ، بدأ الجيش النازي رحلة الغزو ، وعملية اجتياح (أوروبا) ، التي بدأت بدولة (النمسا) ، بحجة إعلانها إلى (ألمانيا) الأم ، ثم راحت تزحف إلى (فرنسا) ، و(هولندا) ، وغيرها .. ولكن اجتياح (بولندا) بالتحديد ، كان له وقع آخر ، ومذاق آخر ..

مذاق دموى وحشى .. ورهيب ..

وفي سجن (ستانداو) ، ظلّ (هيس) يصر على قصته ، ويردد دوماً أنه إنما جاء في مهمة سلام ، وبدأ يدعو العالم إلى سماع روايته ، دون كلل أو ملل ، بعد أن أصبح هو السجين الوحيد في سجن (ستانداو) ، الذي تقوم على حراسته قوات من أربع دول (إنجلترا) ، و(فرنسا) ، و(روسيا) ، و(أمريكا) ..

وفي السابع عشر من أغسطس ، عام 1987م ، مات (هيس) في سجنه فجأة ، على نحو مريب ، ما زال مثار تساؤل ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

أما الحقيقة ، فقد أعلنتها الوثائق البريطانية عام 2001م ، أي بعد سنتين عامًا من هبوط (هيس) على السواحل البريطانية ، لتضع بهذا نهاية لذلك الملف ، الذي شغل العالم طويلاً ..

ملف مبعوث السلام ..

النازي .

\*\*\*

فلسبب ما ، لم يكن له تفسيره أيامها ، أو حتى في أيامنا هذه ،  
ومع دخول الجيش النازي إلى (بولندا) ، قرر أحد الجنرالات  
الألمان ، وهو (يوهان شترودر) ، أن يكسر أنف البولنديين منذ  
اللحظة الأولى ، وأن يفرض سيطرته عليهم ، ويبيث الخوف  
والذعر في نفوسهم ، بحيث يضمن خضوعهم التام ، أمام القوات  
النازية المحتلة ..

وكل ما كان يحتاج إليه (شترودر) هو شرارة صغيرة .

محاولة رفض الاحتلال ، أو تمرد محدود ، أو حتى اعتراض  
غاضب على ما حدث ..

وفي دولة محتلة ، اغتصبها جيش أجنبي ، لا يمكن أن يطول  
انتظارك لأمر كهذا ، ففي اليوم التالي للغزو مباشرة ، حدث تمرد  
راض للاحتلال ، في قرية صغيرة ، بالقرب من مدينة (بياوستوك) ،  
شمال شرق (وارسو) ..

ولم يضيع الجنرال النازي الدموي لحظة واحدة ..

وبجيش جرار ، اتجه إلى تلك القرية الصغيرة ، التي فوجئت  
بالدبابات تحاصرها ، وبنوود الجيش النازي يلتفون حولها ، ثم  
بالمدافع تقصفها بلا رحمة ..

وعلى مقعد ضخم وثير ، اعتاد حمله معه أينما ذهب ، وبعينين

تتألقان وحشية واستمتاعًا بمراى الدم ، جلس (يوهان شترودر)  
يراقب جنوده ودباباته ، وهم يقتحمون القرية الصغيرة التي أصابها  
ذعر ما بعده ذعر ، ويقتلون وينبحون كل من يجدونه في طريقهم  
بلا رحمة .

ولأن القرية الصغيرة لم تكن تضم عسكريًا واحدًا ، أو حتى سلاحًا  
يفوق بنادق الصيد المتواضعة ، فقد أعلنت استسلامها التام ،  
بعد أقل من ساعة واحدة ، من الاجتياح الوحشي .

وعلى الرغم من أن الأعلام والرايات البيضاء قد ارتفعت عالية  
واضحة ، بمعنى لا يقبل الجدل أو الشك ، إلا أن الجنرال (شترودر)  
رفض التراجع أو التوقف بل وأمر بتصعيد الهجوم أكثر ، وأكثر ..

مع إطلاق أيديهم في الأمر ، راح الجنود النازيون يقتحمون منازل  
القرية ، ويقتلون العزل من النساء والأطفال والشيوخ ، ويستولون  
على كل غال وثمانين ، ويغتصبون كل من تحلو لهم ، قبل أن  
يهدموا المنازل على رعوس أصحابها ، غير مباليين بالتوسلات ،  
والصرخات ، والدماء ، ورائحة الموت ، التي كادت تزكم الأنوف ..

وتواصلت المنبحة ، حتى مغيب الشمس ، وامتألت شوارع القرية  
وطرقاتها بجثث الضحايا ، ورعوس الأطفال الصرعى ، وسالت  
الدماء فيها أنهارًا ، وانتشر الحطام في كل مكان ، قبل أن يرتوى

السفاح ( شترودر ) بدماء وأرواح ضحاياها ، ويقرر الاكتفاء بما حدث ، والعودة إلى ( وارسو ) ..

وفى ( وارسو ) قدم الرجل تقريراً بكل ما فعله ، وكثما يزهو بقوته فى سحق العزل ، وأبلغ القيادة فى ( برلين ) بانتصاره الحقيقى ..

وفى ( برلين ) ، زهل الجنرالات بما بلغهم ، وأدركوا أنه سيقطب العالم كله ضدهم ، وسيفقدهم مؤيديهم فى ( أوروبا ) ، وفى كل مكان آخر فى العالم ، لذا فقد أبرقوا إلى ( وارسو ) ، ليطالبوا الجنرال ( شترودر ) بكتمان الأمر ، والعمل على عدم انتشار الأخبار ، وكان شيئاً لم يحدث ، فى تلك القرية الصغيرة ، بالقرب من ( بياوستوك ) ..

ولم يرق هذا أبداً للجنرال الدموى ، حتى إنه قد استقبل تلك الأوامر ، الواردة من ( برلين ) بزمجرة غاضبة ساخطة ، وهو يمت شفتيه ، ويعقد حاجبيه الكئيبين إلا أنه لم يكن يملك سوى التنفيذ .

وتم إغلاق ملف تلك المذبحة تماماً ، ومنع نشر أى خبر عنها على الإطلاق ..

ولكن الشيء الذى تعلمناه ، عبر صفحات التاريخ ، هو أن المستحيل عينه هو إخفاء الأخبار عن الناس ..

أية أخبار ..

ومهما تكن وسيلة المنع أو الحجب ..

لذا فقد تسربت أخبار المذبحة إلى ( أوروبا ) ، وراحت بعض الصحف تشير إليها ، دون الخوض فى أية تفاصيل ، نظراً لقصور ونقص المعلومات المتاحة ، خاصة أن ( برلين ) قد أنكرت الأمر برمته ، وهددت بالقصاص من كل من يحاول أن ينسبه إليها دون دليل ..

ولكن المخابرات البريطانية التقطت طرف الخيط ، وأدركت مدى أهمية الأمر وخطورته ، لو تم إثباته ، على نحو لا يقبل الشك فى تلك المرحلة بالذات ، لذا فقد بدأت فى دراسة كيفية القيام بعملية من عمليات الجاسوسية ، للحصول على كل المعلومات والتفاصيل الممكنة عن تلك المذبحة ..

وفى اجتماع محدود ، تمت دراسة الموقف بمنتهى الدقة ، وطرح بعضهم فكرة إرسال جاسوس خاص إلى ( بولندا ) ، مع تكليفه بهذه المهمة المحددة .

ولكن الأمر بدا عسيراً للغاية ، فى ظل الظروف والملابسات ، التى بلغت فيها حساسية المحتل النازى ذروتها ، ووصلت إجراءاته الأمنية إلى حد الهوس والوسوسة ، على نحو يصعب بل يستحيل معه زرع أى جاسوس جديد ، فى قلب ( بولندا ) ، أو حتى السعى لتجنيد جاسوس من داخلها ..

ومع المزيد من المناقشة ، بدأ وكان الأمر ينتهي دوماً إلى طريق مسدود ، وحالة من العجز ، تبغضها كل أجهزة المخابرات بلا استثناء ..

ثم جاء اقتراح الكولونيل ( جراي بوند ) عندما قال بغتة :  
ولماذا لا نستعين بجاسوس ألماني؟!

في البداية ، صدمهم جميعاً ذلك الاقتراح ، الذي يبدو أكثر صعوبة وتعقيداً من كل ما ناقشوه ، منذ بداية الاجتماع ، إلا أن الكولونيل ( بوند ) لم يلبث أن شرح فكرته ، على نحو جعلها منطقية ، ومقبولة أيضاً .

فالجاسوس الألماني ، الذي تحدث عنه ، لم يكن جاسوساً جديداً ، سيتم تجنيده للقيام بهذه المهمة بالتحديد ، وإنما كان جاسوساً يعمل لحساب المخابرات البريطانية بالفعل ..

أو بمعنى أدق ، جاسوسة .

ممثلة ألمانية مغمورة ، راح والدها ضحية للديكتاتورية النازية ، قبل بدء الحرب العالمية الثانية بعام واحد ، مما جعلها تبغض ذلك النظام الاستعماري المستبد ، وكل ما يتعلق به ، وتسعى لإسقاطه بأي ثمن ..

ولقد التقطتها المخابرات البريطانية ، وتعاملت معها ، ونجحت

في تجنيدها لحسابها ، قبل اجتياح ( ألمانيا ) لدولة ( النمسا ) بشهر واحد فقط .

ومع اندلاع الحرب ، كانت مهمة تلك الجاسوسة ( هيلجا ) هي توطيد صلاتها بجنرالات الجيش النازي ، وعقد صداقات قوية معهم ، لاستخلاص كل المعلومات الممكنة من أحاديثهم العابرة ، أو أخبارهم الشخصية ، وتحركاتهم مع قواتهم ، إلى أي مكان في ( أوروبا ) ..

ولقد برعت ( هيلجا ) في أداء مهمتها ، على نحو أثار إعجاب الكولونيل ( بوند ) ، المشرف على عملياتها ، خاصة أنها كانت عبقرية في الحصول على المعلومات ، بوسائل لا يمكن أن تشير أدنى الشكوك بشأنها .

ولهذا بالتحديد ، قفز اسمها إلى ذهنه ، وهو يبحث عن يقوم بعملية ( بياوستوك ) هذه ..

ولقد طرح ( بوند ) فكرته ، وخطته كلها ، وتمت مناقشة الأمر بكل التفاصيل كالمعتاد ، خلال أربع ساعات كاملة ، قبل أن تصدر الأوامر للكولونيل ( بوند ) بالتنفيذ ، ليبدأ هو في الليلة ذاتها لجاسوسته ( هيلجا ) ..

ولقد أثبتت ( هيلجا ) عبقريتها ، وموهبتها المدهشة في عالم

الجاسوسية ، عندما أبرقت إلى الكولونيل ( بوند ) ، بعد أسبوعين فحسب ، لتبلغه أنها فى طريقها إلى ( وارسو ) ، لإحياء حفل ترفيهي لجنود الجيش النازى هناك ..

ثم أضافت أن مسئول ذلك الحفل ، هو الجنرال ( يوهان شترودر ) شخصيًا ..

ولقد انتقل انبهاره إلى الآخرين ، عما أبلغهم بما حدث ، فى الاجتماع المسائي ، وأبدى بعضهم إعجابه الشديد ببراعة ( هيلجا ) ، فى حين شك البعض الآخر فى قدرتها على الحصول على الأدلة اللازمة ، لإثبات حدوث المذبحة ، حيث إن المعلومات وحدها لا تكفى لإقناع الرأى العام بالأمر كله .

وبكل حزم ، أبلغهم الكولونيل ( بوند ) أنه لا توجد خطة محددة لدى ( هيلجا ) للقيام بالمهمة الموكلة إليها ، ولكنه يثق فى ذكائها ، وفى قدرتها على بلوغ هدفها ، وفقاً لمقتضيات أو تطورات الأمور ..

وعلى الرغم من أن هذا لا يروق أبدًا ، لأى جهاز مخابرات ، فى أى مكان فى العالم إلا أنه لم يكن أمامهم سوى الموافقة على الاستمرار فى الخطة ، على أمل ألا تفسد ( هيلجا ) العملية برمتها ..

على الأقل ، حتى لا يخسرها جهاز المخابرات البريطانى ،

باعتبارها واحدة من أنشط جواسيسه فى قلب المؤسسة العسكرية النازية ، فى ( برلين ) نفسها ..

والواقع أن ذلك القلق قد أصاب الكولونيل ( بوند ) أيضًا ، كما أشار فى تقريره الذى لم ينشر إلا بعد نصف قرن من تلك الأحداث ، خاصة أن وجود عملية فى قلب ( وارسو ) ، كان يجعل اتصالاته المباشرة بها مستحيلة تقريبًا ، مما يعنى أنه عليها أن تتعامل مع الموقف بما يمليه عليها عقلها وذكاؤها .. فقط .

ولكن ( هيلجا ) كانت عند حسن ظنه ، وهى تتعامل مع الموقف بعقريه حقيقية ، تستحق كل تقدير وإعجاب ..

ففى البداية ، تركت ( شترودر ) ينبهر بها وبجمالها وذكائها ، قبل وأثناء وبعد الحفل ، وهى توليه اهتمامًا خاصًا ، أرضى غروره وغطرسته .

وعندما أدركت أن الرجل صار مفتونًا بها ، راحت تحدثه عن كل ما يبهرها فى الرجال ، وبدأت شديدة اللهفة والنشوة ، وهى تخبره أنها تذوب عشقًا للرجال الأقوياء القساة ، الذين يمكنهم ذبح العشرات ، دون أن يطرف لهم جفن ، ثم حدثته عن بعض الجنرالات النازيين ، الذين كانت لهم صولات وجولات ، وانتصارات ضخمة ، راح ضحيتها العشرات .

وبتداع طبيعي ، يتناسب مع الوحش الكامن في أعماقه ، أخبرها ( شترودر ) أنه أكثر قوة وقسوة من كل هؤلاء ، وعندما اكتفت بابتسامة متحفظة ، أسرع يروي لها في زهو متفاخرًا ، أخبار مذبحة الدموية الرهيبة ، في تلك القرية الصغيرة ، بالقرب من ( بياو ستوك ) .

ولقد أبدت ( هيلجا ) منتهى انبهارها في البداية ، وقاومت تلك الرغبة العنيفة ، في إفراغ ما بجوفها ، من فرط اشمئزازها ، وهو يصف المجازر التي قام بها رجاله ، ويزهو بقتل النساء والأطفال والشيوخ .

ثم فجأة تراجع ، وراحت تبتدى تشككها فيما يقول وتؤكد استحالة حدوث مذبحة رهيبة كهذه ، دون أن تنشر أخبارها ، في كل الدنيا .

ولأن شكوكها المفتعلة قد مست غروره ، فقد أصر على أن يريها كل شيء بنفسه في صباح اليوم التالي ، ليمحو من نفسها كل ذرة شك .

وبالفعل ، اصطحبها الجنرال ( شترودر ) في الصباح التالي ، إلى تلك القرية المنكوبة ، بالقرب من ( بياوستوك ) ليريها آثار المذبحة ، التي لم تنمح بعد ..

وتقول ( هيلجا ) في تقريرها أنها كانت أسوأ لحظات عاشتها ،

في حياتها كلها ، فالجنث لم يتم دفنها ، على الرغم من مرور ما يزيد على شهر كامل على المذبحة ، والجليد وحده منع تعفنها وانتشار روائحها أو الأمراض الناشئة عن وجودها ، والمنازل المهتمة تحمل كل آثار العنف والوحشية والقسوة .

وبكل زهو الدنيا ووحشيتها ، أخبرها ( شترودر ) أن أوامر ( برلين ) كانت تقضى بدفن الجنث ، وكل أثر للمذبحة فورًا ، إلا أنه تجاهل الأمر تمامًا عن عمد ، حتى يضمن حدوث أكبر تأثير ممكن ، في المنطقة كلها ، ولأطول فترة ممكنة .

وأكدت ( هيلجا ) أنها أقسمت في أعماقها ، في تلك اللحظة ، على ألا يكون لها من هدف ما بقى لها من عمر سوى أن يدفع ذلك الوحش ثمن جرائمه يوماً .

وبواسطة آلة تصوير خفية ، في حقيبة يدها ، التقطت ( هيلجا ) عشرات الصور ، لهذه المذبحة الرهيبة ، ثم لم تكتف بهذا ، بل سعت أيضًا للحصول على الوثائق اللازمة ، ولم يهدأ لها بال ، حتى التقطت صور كل الأوراق والبرقيات المتبادلة بين ( وارسو ) و ( برلين ) ، حول هذا الأمر .

وفور عودتها إلى ( برلين ) ، أرسلت ( هيلجا ) كل ما حصلت عليه إلى عنوان في ( سويسرا ) حيث تم شحن ما أرسلته مباشرة إلى ( لندن ) ..



كل ما حدث هو أن القيادة الألمانية قد عنفت ( شترودر ) على إهماله ، وتركه الجثث ملقاة وسط الجليد ، لكل هذا الوقت ، وصدرت له أوامر جديد مشددة ، بدفن الجثث فوراً ، وإخفاء كل أثر للمذبحة .

ولقد نفذ السفاح الأمر بمنتهى الدقة هذه المرة ، وأخفى آثار مذبحته ، ومحا كل ما يتعلق بها تماماً ، حتى إنه أعدم كل الوثائق الخاصة بها ، وكأنها لم تحدث ، ولم تكن قط .

وأصيبت ( هيلجا ) بإحباط شديد ، عندما علمت هذا ، وتصورت أن كل ما فعلته لم يؤت ثماره ، وكادت تعزل العالم ، مع ما أصابها من اكتئاب ومرارة ، لولا إصرارها على تحطيم الغطرسة النازية وسحقها إلى الأبد .

ثم تضافرت كل العوامل ، من تطور عسكري ، ونشاط مخابراتي ، وتضامن شعبي ، ومقاومة للمحتل ، في كل أرض وكل مكان وانهزمت ( ألمانيا ) النازية شر هزيمة ..

كل أحلامها الاستعمارية التوسعية انهارت دفعة واحدة ، وانقض الحلفاء على أرضها من كل صوب ، وانتحر زعيمها ورفاقه ، وسقط جنرالاتها وضباطها أسرى وبدأت محاكمتهم ..

وهنا ، أبرز الكولونيل ( بوند ) صور تلك الوثائق ، التي التقطتها

وانبهر رجال المخابرات البريطانية مرة أخرى ، وهم يطالعون كل ما أرسلته جاسوستهم الألمانية ، وراحوا يناقشون ما ينبغي فعله في المرحلة القادمة ، واستغرق اجتماعهم ست ساعات كاملة ، قبل أن يتخذوا قرارهم بنشر الصور وحدها ، والاحتفاظ بالوثائق الأخرى ، حتى لا ينكشف أمر جاسوستهم ، باعتبار أنه من الممكن لأي جاسوس أن يتسلل لالتقاط الصور ، ولكن إعلان الوثائق يشير بأصابع الاتهام إلى ( هيلجا ) وحدها .

ولقد فعلوا ما اتفقوا عليه بالضبط ..

ومع نشر صور المذبحة الرهيبة ، أصيب الرأي العام الأوروبي بصدمة عنيفة ، وتراجعت بسرعة كل الآراء التي أيدت الفكر النازي يوماً ، وانكشفت حقيقة الرايخ الثالث ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تجاهلت ( ألمانيا ) تماماً ذلك الغضب ، وتعاملت معه في تعالٍ وغطرسة ، باعتبارها الدولة الأقوى في المنطقة ، وصاحبة الانتصارات القوية ، والتي لا ينبغي أن تبالى بآراء الآخرين فيها .

مع أخبار الحرب ، التي تتطور كل يوم ، غابت أخبار المذبحة عن الصحف في سرعة ، وتتاساها كل المتابعين على نحو عجيب ، وكأنما تلاشت ، أو لم تعد لها الأهمية نفسها ، والمذابح تتوالى وتنتشر ، في كل مكان يبلغه الجيش النازي .

## المقاومة ..

على الرغم من تباهى الفرنسيين بجيوشهم وقوتهم ، بعد انتصارهم فى الحرب العالمية الأولى ، ومع الطنطنة التى امتلأت بها الدنيا ، بدعايتهم حول خطهم العسكرى الدفاعى ( ماجينو ) ، الذى أكدوا أنه أقوى خط منيع عرفه التاريخ ..

وعلى الرغم من كل التوقعات ، سقطت ( فرنسا ) فى قبضة النازيين ..

سقطت سقوطاً عالياً مدوياً ، فى أسبوعين فحسب ، لتصدم مشاعر العالم كله عامة ، ودول المواجهة مع الرايخ الثالث خاصة ، ولتعلن قوة وعنفوان جيش ( هتلر ) ، وقدرته على تحطيم وتجاوز كل الحصون .

وبزهو وغطرسة لا مثيل لهما ، دخلت الجيوش النازية ( باريس ) ، وعبرت قوس النصر ، لتعلن للفرنسيين ، وللعالم من بعدهم ، أن هزيمة ( ألمانيا ) السابقة قد تم تجاوزها بانتصار ساحق ، لم يعرف التاريخ الحديث مثيلاً له ..

وفى ( برلين ) ، احتفل جنرالات النازية بانتصارهم ، واعترفوا بالعقرية العسكرية للفوهرل العظيم ( أدولف هتلر ) ، الذى لم

( هيلجا ) ، والتى أدانت الجنرال السفاح ( شترودر ) وتسببت فى الحكم بإعدامه ، جزاء ما اقترفه باعتباره مجرم حرب بشعاً ، من مذابح وتجاوزات بشعة .

وتحقق أخيراً حلم ( هيلجا ) وأملها ، والهدف الذى نذرت نفسها له ، وشاهدت بعينها إعدام السفاح ، الذى تصور يوماً أنه الأكثر قوة ، وأن يد العدالة لن تناله أبداً .

شاهدته ينهار أمام جلاديه ، وييكى ، ويتوسل ، يستعطف .. ثم يموت ..

هذا وحده ، جعلها تشعر أن عملها الطويل قد أتى ثماره ، وتذكر أن العدالة تتحقق حتماً ، مهما بدت عسيرة وبعيدة المنال .. ومهما طال الزمن .

\*\*\*

يتجاوز رتبة العريف ، طوال فترة التحاقه بالجيش ، وقبل أن يتركه ، لينخرط في الدسائس والمؤامرات ..

وفي شيء من القلق ، قال ( رودلف هيس ) نائب الفوهرلر ، وثاني أقوى رجل في الحزب النازي كله :

صحيح أننا قد وضعنا أقدامنا في ( فرنسا ) ، ولكن هذا ليس نهاية المطاف ، بل بدايته .

أطلق ( هتلر ) ضحكة عالية ، قبل أن يربت على ظهره في قوة ، قائلاً :

فهمت جيداً يا عزيزي ( هيس ) .. ( فرنسا ) مجرد بداية ، وبعدها ( أوروبا ) ، ثم العالم كله فيما بعد .

تتحنج ( هيس ) في حرج ، قائلاً :

معذرة أيها الفوهرلر ، ولكن ليس هذا ما قصدته .

التفت إليه ( هتلر ) ، متسائلاً في اهتمام :

ما الذي قصدته إذن ؟!

ازدرد ( هيس ) لعابه ، قبل أن يشد قامته ، قائلاً :

إنني أخشى المقاومة أيها الفوهرلر .

خيل للزعيم النازي أنه لم يسمعه جيداً ، فردد متسائلاً :

ماذا ؟!

كرر ( هيس ) :

المقاومة أيها الفوهرلر .. إنني أخشى المقاومة .

تبادل الجنرالات نظرة دهشة ، قبل أن يتساعل أحدهم :

— أية مقاومة يا جنرال ( هيس ) ؟!.. لقد دحرنا الجيش

الفرنسي تماماً ، ولن تقوم له قائمة بعد الآن .

هز ( هيس ) رأسه ، قائلاً :

— لم أكن أتحدث عن مقاومة الجيش يا جنرال .

سأله جنرال آخر :

— أية مقاومة تقصد إذن ؟!

أجاب ( هيس ) في سرعة :

— المقاومة الشعبية .

حدق الجنرالات بضع لحظات في وجهه ، قبل أن يهتف

( هتلر ) ضاحكاً :

ومع ضحكته ، اتزاح حاجز الحرج ، وانفجر الجميع يقهقهون في آن واحد ، على نحو انعقد له حاجبا ( هيس ) الكثيفان ، قبل أن يربت الفوهرل على ظهره مرة أخرى ، قائلاً : هذه أطرف دعابة سمعتها يا عزيزى ( هيس ) .. هل تتحدث عن المقاومة الشعبية ، فى بلد مثل ( فرنسا ) ، لا ينشغل سوى بالفن ، والعمور ، وأحدث الأزياء !؟

عاد الجنرالات يضحكون فى مرح ، ولكن ( هيس ) لم يشاركهم ضحكاتهم ، فى هذه المرة أيضاً ، فقد كان له رأى آخر ..

وكذلك البريطانيون ..

فعلى الرغم مما اشتهرت به ( فرنسا ) ، من نعومة رجالها وشبابها ، وانشغالهم دوماً بترف العيش ، كان البريطانيون يدركون أن شبابها لن يستسلموا قط للاحتلال النازى أو يتقبلوا وجوده على أرضهم ..

وأن المقاومة آتية لا ريب ..

المشكلة الوحيدة ، التى راح البريطانيون يبحثونها فى اهتمام بالغ ، هى نقص الخبرة الخاصة بالمقاومة الشعبية ، لدى الشباب الفرنسى ، الذى لم يحمل من قبل سلاحاً ، أو يواجه عدواً شرساً مواجهة مباشرة ..

ثم إن المقاومة الناجحة لا تعتمد على شجاعة الرجال وحماستهم وحدها ، بل تحتاج أيضاً إلى التنظيم والتنسيق ، والخبرة فى إدارة المجموعات ، وبناء الخلايا التنظيمية الصحيحة ..

لذا كان من الضرورى أن يتم توفير كل هذا للشباب الفرنسى ، حتى يتأهل للمقاومة الشعبية ، التى يمكن أن تحيل حياة المحتل النازى إلى جحيم ..

وهذا يساعد على تحرير ( فرنسا ) ..

ويرهق العدو ، الذى يستعد لغزو ( إنجلترا ) أيضاً ..

بجدية واهتمام كعادتهم ، راح البريطانيون يدرسون كيفية توفير المطلوب ، لكل الشباب الفرنسى ، من أجل المقاومة ..

فى البداية ، اقترح أحد رجال المخابرات البريطانية إرسال أحد الضباط المخضرمين لتدريب الشباب وتنسيقه ..

ولكن الاقتراح قوبل بالرفض الشديد ..

ففى موقف كهذا ، لن يتقبل الفرنسيون أبداً فكرة وجود شخص بريطانى ، أيّاً كان هدفه ، على رأس طلائع مقاومتهم ..

وهنا اقترح رجل آخر إجراء بحث شامل ، بين ضباط المخابرات الفرنسية السابقين ، لاختيار أحدهم ، للقيام بالمهمة المطلوبة ..

وتم رفض هذا الاقتراح أيضاً ، نظراً لأنه ليس من المتوقع أن يدين الشخص المنتخب بأدنى ولاء للمخابرات البريطانية ، أو ( بريطانيا ) كلها ، مما يضع احتمالاً لأن ينفصل عنها ، ويدير الأمر كله بأسلوبه وطموحاته ، مما يعرض العملية كلها للخطر ..

أو على الأقل ، يحرم البريطانيين من السيطرة على الموقف كله .. وهكذا وصل الأمر إلى طريق مسدود ، أو هذا ما بدا ، بحيث لم يُعد بالإمكان تنفيذ هذا أو ذاك ، و ...

وفجأة ، وبعد يومين من التوتر والتفكير العميق ، خرج الكولونيل ( جيمس ) ، أحد أروع رجال المخابرات البريطانية ، وصاحب الباع الطويل في التجسس السوفيتي والنازي ، بفكرة جديدة وحاسمة .. بل وجاء حاملاً كل الأوراق ، التي تجعل تنفيذها ممكناً ..

وعلى مائدة الاجتماعات ، وضع الكولونيل ( جيمس ) كل أوراقه .. لقد أمضى ليلتين كاملتين ، يراجع كل ملف في المخابرات البريطانية كلها ، حتى توصل إلى شاب ، أدى يوماً خدمة جليلة للمخابرات في ( الهند ) ، ومن أب بريطاني وأم فرنسية ، ويجيد اللغتين إجادة تامة ، بالإضافة إلى أن ملامحه تشبه أمه ، بأكثر مما تشبه أبيه .

باختصار ، كان شاباً بريطانياً ، تجرأ في عروقه الدماء الفرنسية ..

وكان من الطبيعي أن يوافقوا جميعاً على هذا الاقتراح ، مع تحفظ واحد ..

أن ذلك الشاب لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره بعد ..

ولكن الكولونيل ( جيمس ) أصر على أن سن الشاب هو أحد عوامل النجاح المتوقعة ، إذ إنه سيساعده حتماً على الاندماج مع أوساط الشباب الفرنسي ، وتوجيه أفكارهم إلى المقاومة ، والعمل على تنظيم صفوفهم وتنسيق جهودهم ..

وفي نهاية الاجتماع ، وبعد ثلاث ساعات كاملة ، تمت الموافقة على العملية بالإجماع ، مع إسنادها إلى الكولونيل ( جيمس ) بالطبع ..

وفي مساء اليوم نفسه ، التقى الكولونيل ( جيمس ) بذلك الشاب ، الذي لم تتضمن الوثائق البريطانية اسمه الحقيقي ، وإنما رمزت إليه طوال الوقت باسم ( دومينو ) ..

ولقد أكد الكولونيل ( جيمس ) أن ( دومينو ) قد تحمس كثيراً للفكرة ، وأبدى استعداداً لبدء تدريباته على الفور ، حتى لا يضيع الكثير من الوقت ..

وبالفعل ، بدأت عمليات تدريب ( دومينو ) ، فى الثامنة والنصف ،  
من صباح اليوم التالى ..

ولقد كان الشاب قبلة بالفعل ..

ففى ثلاثة أسابيع فحسب ، استوعب مهارات وخبرات ، يعجز  
عن استيعابها محترف ، خلال شهرين كاملين على الأقل .

ومع بداية الشهر التالى ، تقرر إرسال ( دومينو ) إلى ( فرنسا ) ،  
مع كل الأوراق والوثائق ، التى تمنحه هوية مقبولة ، وتتيح له  
التحرك ، فى وجود الاحتلال النازى البغيض ..

وفى ليلة غاب عنها القمر ، وبواسطة مظلة سوداء بسيطة ،  
هبط ( دومينو ) فى منطقة ( اللورين ) ؛ ليبدأ مهمته المعقدة ..

كانت المقاومة الفرنسية قد بدأت بالفعل ، وانضم إليها معظم  
الشباب الفرنسى ، الذى قال عنه ( هتلر ) : إنه لا يهتم إلا بالفن  
والعطور والثياب ، وراحت تكيل الضربة تلو الضربة للقوات النازية ،  
ولكن على نحو عشوائى غير منظم ، مما رفع من حجم الخسائر ،  
وأفسد الكثير من العمليات ، التى لم تتم دراستها على نحو كافٍ ..

وفى ( باريس ) ، وفى حرفية لا مثيل لها ، وجد ( دومينو ) سبيله  
إلى تجمعات الشباب ، وراح يبدى حماسه للنضال ، ورغبته فى  
مقاومة المحتل ، وسرعان ما وجد من يقوده إلى حيث التقى  
بإحدى فرق المقاومة ..

ولقد أثبت له هذا أن هؤلاء الشباب المقممين بالحماس ،  
يحتاجون إلى كثير من التنظيم والتنسيق ..

والخبرات أيضاً ..

وانضم ( دومينو ) إلى المقاومة الفرنسية عضواً عادياً فى  
البداية ، وشاركها فى اثنين من عملياتها الناجحة ، قبل أن يقترح  
إجراء بعض التعديلات ، التى لاقت قبولاً من الفرقة جميعها  
بلا استثناء ، حتى إن إحدى فتيات المقاومة هتفت به :

يا إلهى .. إنك عبقرى بحق يا ( دومينو ) .. كيف لم تنتبه  
إلى هذا من قبل !؟

وكانت هذه هى البداية الحقيقية ..

فبعدها ، وبعد عملية قوية ، حققت المقاومة بها نصراً رائعاً ،  
وانعشت قلوب الفرنسيين ، وجن لها جنون النازيين ، وأصبح  
( دومينو ) نجماً ، من نجوم المقاومة الفرنسية .

وهنا ، بدأ الشاب نصف البريطانى يزاول العمل ، الذى جاء  
من أجله إلى ( فرنسا ) ..

وخلال الأشهر الثلاثة التالية ، ومع تدريجه لهم ، وتنظيمه  
لصفوفهم ، بدأ أفراد المقاومة الفرنسية يشعرون بالفارق

الضخم ، وبأنهم قد تحولوا ، من شُعب صغيرة متناثرة ، إلى تنظيم قوى خبير ، يدرك جيداً هدفه ، ويعرف بدقة متى وكيف يضرب ضربته ..

وبتداع طبيعي ، تطورت عمليات المقاومة ، وتحسنت وأصبحت أكثر دقة وقوة ، ومهارة ..

ومن انتصار إلى انتصار ، أصبحت المقاومة الفرنسية رمزاً للنضال والكفاح ، ضد المحتل النازي ، في أوروبا كلها .

وفي ( لندن ) شعر البريطانيون بالارتياح والزهو ، لأن عملياتهم قد نجحت على أكمل وجه ، وبدأ الكولونيل ( جيمس ) أشبه ببطل قومي ، في اجتماع المخابرات البريطانية الأخير ، الذي أثنى فيه رئيسه عليه ، ثم قال :

أعتقد أن الوقت قد حان لنجري اتصالاتنا مع ( دومينو ) ، حتى نصبح على علم دائم بما يدور داخل ( فرنسا ) .

وبدأ الكولونيل ( جيمس ) محاولة الاتصال بعميله ( دومينو ) ..

ولكن الأمر لم يكن سهلاً كما تصور ..

لقد تحول ( دومينو ) إلى بطل من أبطال المقاومة الفرنسية ، وقائد من قادتها ، وأحد أهم منظميها ، مما ألقى على كاهله مسئوليات عديدة ، وأقحمه في عمليات عديدة عنيفة ، نجح خلالها

في إسقاط الضربات ، من جنود وضباط الجيش النازي ، على نحو جعل ( هتلر ) شخصياً يعتبره أحد أهم وأخطر أعداء النازية ..

ولقد حاول الكولونيل ( جيمس ) الاتصال بعميله ( دومينو ) ..

حاول ، وحاول ، وحاول ..

وفي النهاية ، بدأ ، ولشدة هلعه ، يستوعب طبيعة الموقف ..

صحيح أن ( دومينو ) قد بدأ مهمته ، لحساب المخابرات البريطانية ، إلا أن الأمر قد تطور معه ، بحيث تغير اتجاهه على نحو غير متوقع على الإطلاق ..

نصف الدماء الفرنسي ، في عروق ( دومينو ) طغى على نصفها البريطاني ، مع مواجهته للعدو وجهاً لوجه ، ومتابعته لما يفعله في ( فرنسا ) ، وما يسعى لنشره في العالم أجمع ، بكل وحشية وشراسة الدنيا ..

وانغمس الشباب في القتال ، والكفاح ، والصراع ..

والمقاومة ..

وفي المرة الوحيدة التي تمكن فيها الكولونيل ( جيمس ) من الاتصال بعميله ( دومينو ) ، من خلال وسيط خاص ، لم يرق هذا قط للشباب ، الذي قال للوسيط في صرامة :

- عد إلى ( جيمس ) ، وأخبره أن كل الطرق تقود إلى ( روما )  
كما يقولون ، فالنازيون أعداء لنا جميعاً ، ولا فارق بين مقاومتهم  
هنا أو هناك .

واستقبل الكولونيل ( جيمس ) الرسالة في توتر لا محدود ، إذ إنه ،  
وعلى الرغم من نجاح المخابرات البريطانية يبدو أشبه بفشل  
شخصي له هو نفسه ، لعجزه عن السيطرة على عميله في النهاية .

ولكن ( دومينو ) ازداد عناداً ، وانغماساً في قلب المقاومة  
الفرنسية ، حتى لم يعد هناك مفر من الاعتراف بما حدث ..

وفي الوقت نفسه ، الذي أعلن فيه الكولونيل ( جيمس ) هذا ،  
على مائدة اجتماعات المخابرات البريطانية ، تحت القصف النازي  
العنيف ، كان ( دومينو ) يواجه أعنف موقف ، في حياته كلها ..

فمع عنف المقاومة الفرنسية ، أرسل ( هتلر ) أحد أشرس  
رجالها ، وهو الكولونيل ( فون شبيجل ) ، لسحق تلك المقاومة ،  
والقضاء عليها نهائياً .

ولقد أعد ( فون شبيجل ) فخاً عبقرياً لرجال المقاومة الفرنسية .

فخ سقط فيه عدد من الرجال ..

من بينهم ( دومينو ) .

ومع شهرته وتاريخه ، ذاع أمر سقوط ( دومينو ) على نحو  
فجر الانفعال في نفوس كل من يعرفونه ، وملاً أعماق ( فون  
شبيجل ) بزهو النصر ، وهو يبرق إلى ( هتلر ) بسقوط زعيم  
المقاومة الفرنسية ..

ودون تردد ، أصدر الفوهرل أمره بإعدام ( دومينو ) ، ليصبح  
عبرة لكل من تسول له نفسه مقاومة السلطات النازية ..

وفي زنزانته ، ومع الفريق الأسير ، من رجال وشباب المقاومة  
الفرنسية ، بدأ ( دومينو ) هادئاً متمسكاً قوياً ، يبحث كل الأسرى  
على الصمود والاحتمال ، ويحذرهم من الإفصاح عن أسماء  
رفقائهم ، حتى ولو قطع النازيون أطرافهم ، واحداً بعد الآخر ..

ووسط كل هذا ، فوجئوا جميعاً بالوحش ( فون شبيجل ) عند  
زنزانتهم ..

وأمامهم جميعاً ، على مسمع منهم ، سأل ( دومينو ) :

- ما جنسيتك بالضبط !؟

ابتسم ( دومينو ) في سخرية ، قائلاً :

- أي سؤال هذا !؟

رمقه ( فون شبيجل ) بنظرة نارية ، قبل أن يقول :



- البريطانيون عرضوا مبادلتك بواحد من أهم جواسيسنا ، الذي وقع في قبضتهم ، منذ بضعة أيام ، وهم يفاوضوننا في هذا ، من خلال وسيط سويسري ، في مبادرة لم تحدث من قبل ، ويؤكدون أنك لست فرنسيًا ، بل بريطاني الجنسية ..

أهذا صحيح !؟

سرى التوتربين رجال المقاومة ، وهو يحدقون في وجه (دومينو) بدهشة مستنكرة ، في حين شد هذا الأخير قامته ، وانعقد حاجباه في شدة ، وهو يتطلع إلى وجه (فون شبيجل) في تحد شديد ..

إنه يطلب جوابًا واضحًا ..

جوابًا قد يعنى حياته كلها ، لو أنهم يميلون إلى قبول العرض البريطاني الفريد ..

وكان على (دومينو) أن يختار ، إما الحياة مع الاعتراف بجنسيته البريطانية ، أو الإصرار على جنسيته الفرنسية ، حتى ولو كان الموت هو ثمن هذا ..

واختار (دومينو) ..

وبكل حزم وصرامة الدنيا ، أجابه (دومينو) :

- أنا فرنسي قلبًا وقالبًا .

وارتاح (فون شبيجل) للجواب ..

وأصيب البريطانيون معه بإحباط عنيف ، كما تقول وثائقهم ، التي تتناولها الآن شبكة الإنترنت ، بعد خروجها من دائرة السرية المطلقة ..

وصدر قرار بإعدام (دومينو) ورفاقه ، في صباح اليوم التالي مباشرة ..

في السادسة والنصف صباحًا ، استعدت فرقة الإعدام النازية ، وارتفعت فوهات بنادقها نحو صدور (دومينو) ورفاقه ..

ودوت الرصاصات في المنطقة كلها ..

ولكنها لم تكن رصاصات فرقة الإعدام النازية ..

بل رصاصات رجال المقاومة الفرنسية ..

مثلما يحدث في أفلام السينما ، وفي اللحظات الأخيرة ، وبعملية بارعة متقنة ، انقضت المقاومة الفرنسية على النازيين ، وسحقهم سحقًا ، في واحدة من أنجح الضربات ، عبر تاريخها كله ..

ولقى (فون شبيجل) مصرعه في هذه العملية ..

## الياباني ..

انهارت (بريطانيا) العظمى أو كادت ، في تلك الشهور الأولى العvisية ، في الحرب العالمية الثانية ، وعلى الرغم من تاريخ إمبراطوريتها الاستعمارية العريقة ، التي وصفها أدياؤها يوماً بأنها لا تغيب عنها الشمس أبداً ، نظراً لاتساع رقعتها ، وامتدادها من الشرق إلى الغرب ، راود ساستها شعور بأنهم يعيشون لحظات النهاية ، والمشهد الأخير لتاريخهم ، الذي ربما تغرب عنه الشمس إلى أبد الأبدين ، فلا تقوم له قائمة مرة أخرى أبداً ..

ولأن ساسة (بريطانيا) قد اشتهروا ، بأنهم أخبث أهل الأرض - بعد اليهود بالطبع - فقد رأوا أن الوسيلة الوحيدة ، والتي يمكن أن تعدل مسار الحرب ، وتقلبها على رءوس مشعلها ، من نازي الرايخ الثالث ، هي أن تلقى الولايات المتحدة الأمريكية بثقلها كله في المعركة.

وبأية وسيلة كانت ..

ولقد تم عرض الأمر على الأمريكيين بالفعل ، مشفوحاً بكل المبررات ، ذات الأسباب المنطقية الظاهرية ، القدرة على إقناعهم

ونجا (دومينو) ، وثلاثة من رفاقه ..

نجا ، وقد أصبح فرنسياً بالفعل ، قلباً وقلباً ، ليواصل قتال المحتل النازي ..

وليواصل المقاومة ..

حتى النصر ..

وبعد سقوط النازية ، واندحار الرايخ الثالث ، وتحرير (فرنسا) ، حصل (دومينو) على وسام الشجاعة ، وحمل الجنسية الفرنسية رسمياً ..

وربما لهذا لم تذكر الوثائق البريطانية اسمه الحقيقي ..

فبالنسبة إليهم ، كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة ، لعدم الاعتراف بالفشل ..

أو بمعنى أدق ، الوسيلة الوحيدة .. للمقاومة .

\*\*\*

بأن هذا في صالح ( أمريكا ) نفسها ، وأنه أفضل وسيلة لتسجيل اسمها ، في صفحات تاريخ ما بعد الحرب ..

ولكن الأمريكيين رفضوا الفكرة ، بل واستكروها تمامًا ، وقد بدا لساستهم أنها مجرد محاولة خبيثة من البريطانيين ، لإقحامهم في معركة قاسية ، لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، خاصة أن قارتهم بعيدة كل البعد عن منطقة الصراع الأوربية ، والآسيوية ، والإفريقية أيضا ، في نفس الوقت الذي بدأ فيه اقتصادها ينتعش ، بعد أزمة الثلاثينات الاقتصادية الطاحنة ، وعادت تروس مصانعها تدور ، لإنتاج أطنان السلاح ، الذي تحتاج إليه ( بريطانيا ) ودول المواجهة الأخرى ..

ومع تواصل المحاولات البريطانية ، وزيادة العناد والإصرار الأمريكي ، رأى رئيس الوزراء الإنجليزي الجديد ( وينستون تشرشل ) ، أنه ما من سبيل سلمي أو منطقي ، لدفع الأمريكيين إلى حلبة الصراع ، وأنه لا مناص من اللجوء إلى خدعة قوية .. وعنيفة أيضا ..

ومن خلال خطة محكمة ، دبرها خبراء المخابرات البريطانية ، بالاشتراك مع رئيس الوزراء نفسه ، وباستخدام سفرة لاسلكية أمريكية قديمة ، داخل مجال أجهزة الاعتراض اليابانية ، تم إقناع إمبراطورية الشمس في ( اليابان ) ، بأن الولايات المتحدة الأمريكية

تستعد لشن الحرب عليها بالفعل .. بل إن أسطولها يستعد لشن تلك الحرب المزعومة ، في قاعدة ( بيرل هاربور ) الشهيرة ..

ولقد ابتلع اليابانيون الطعم ، وامتلأت نفوسهم بالقلق ، واجتمع قادتهم لدراسة الموقف ، وطرح كل الاحتمالات على مائدة البحث ، لتحديد الخطوة التالية الواجب اتخاذها ، لتفادي ذلك الهجوم الأمريكي الوهمي ..

ولأن اليابانيين ليسوا بالسذاجة ، التي تؤهلهم لتصديق أمر رهيب كهذا ، واتخاذ الإجراءات ضده ، دون التيقن منه ، فقد كانت أولى خطواتهم هي التحقق من صحة ما لديهم من معلومات .

وتم إسناد مهمة القيام بهذه الخطوة إلى الرجل المناسب ، الذي لم يكن سوى مدير المخابرات اليابانية ، والمسئول الأول عن كل النشاطات المعادية لإمبراطورية ( اليابان ) العظمى ، في كل أنحاء العالم .

وإحقا للحق ، لا بد وأن نذكر هنا ، أنه ، وعلى الرغم من هزيمة ( اليابان ) فيما بعد ، فقد كانت تمتلك واحداً من أفضل وأقوى أجهزة المخابرات ، التي عرفها تاريخ الحرب العالمية الثانية ، وأكثرها تنظيماً وانتشاراً ، وإن حالت الهزيمة دون أن يحظى بالتقدير والتسجيل المناسبين في تاريخ الجاسوسية والمخابرات .

وعندما تلقى مدير المخابرات اليابانية الأمر ، كان عليه أن يستفيد من هذا النظام الدقيق ، إلى أقصى حد ممكن ، لذا فقد عاد إلى ملفاته السرية ، واستخرج منها قائمة دقيقة للغاية ، بأسماء كل عملاء المخابرات اليابانية ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، من أقصاها إلى أقصاها ..

وبسرعة ، وقع اختياره على ( تاناكا ) ..

( تاناكا ) هذا هو الاسم الكودي لعمل نصف ياباني ( لم يفصح عن اسمه الحقيقي قط ) ، ولد على الأرض الأمريكية ، من أب أمريكي وأم يابانية ، ربطتهما قصة حب قوية ، في أوائل القرن العشرين ، وارتبطا بزواج مدني ، أسفر عن إنجاب ابن واحد ، حمل ملامح والده الأمريكي ، وبشرة أمه اليابانية ، وحمل في السجلات الرسمية اسماً أمريكياً صرفاً ، اشترك مع ملامحه في إخفاء نصفه الياباني تماماً ..

وعلى الرغم من تفوق الأب الأمريكي ، في منح ابنه الملامح والاسم والجنسية ، فقد حققت الأم اليابانية انتصاراً ساحقاً بحق ، عندما زرعت في أعماق ابنها وكيانه كل التقاليد اليابانية القديمة ، وجعلته ، على الرغم من هويته الأمريكية الرسمية ، ياباني النزعة ، قلباً وقالباً ، بل وكياناً ومشاعر أيضاً .

ولقد اتضح هذا بشدة ، عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، التي شاركت فيها ( اليابان ) ، في عام 1939م ، إلى جوار ( ألمانيا ) و ( إيطاليا ) ، في نفس الوقت الذي تعاطفت فيه الولايات المتحدة الأمريكية رسمياً ، مع ( بريطانيا ) العظمى ، ودول ( أوروبا ) ، التي سقطت تباعاً ، في قبضة النازية .

فمع اندلاع الحرب ، وتحديد موقف ( أمريكا ) رسمياً ، استغل ( تاناكا ) علاقاته باليابانيين المهاجرين ، وحدد موعداً مع أحد مسئولى المخابرات اليابانية ، وأثناء لقاؤهما السري ، وضع كل خدماته ، بل وحياته نفسها تحت علم ( اليابان ) وبمنتهى الصدق والإخلاص .

ولسبب ما ، وربما هو حسن الحظ فحسب ، انتقل ( تاناكا ) للعمل في جزيرة ( أوهايو ) ، إحدى جزر ( هاواي ) ، شمال القاعدة البحرية الأمريكية ، في ( بيرل هاربور ) ..

ولقد ظل ( تاناكا ) يتابع الموقف في القاعدة البحرية ، دون أوامر مباشرة من رؤسائه اليابانيين ، ويسجل كل ملاحظاته عنها ، في سجل خاص به ، مرتكباً بهذا مخالفتين خطيرتين ، في عالم الجاسوسية ، وقواعد علم المخابرات ..

فالجاسوس ، أي جاسوس ، لا ينبغي له أن يبدأ عمله ، إلا إذا تلقى أمراً واضحاً بهذا ، إذ إن تحركه في وقت غير مناسب ، أو غير

مدروس ، قد يؤدي إلى كشف أمره ، وسقوطه قبل أن يحقق أية فائدة تذكر ..

ثم إنه لا ينبغي أن يدون ما يحصل عليه من معلومات أبداً ، حتى لا يصبح هذا دليلاً مادياً على تورطه ، إذا ما سقطت في قبضة خصومه ..

ولكن من الواضح أن ( تاناكا ) لم يكن قد تلقى تدريباً كافياً بعد ، ربما لضيق الوقت ، قبل أن يعلم أنه صار يعمل لحساب اليابانيين .

وفي منتصف عام 1941م ، تلقى ( تاناكا ) ذلك الأمر المباشر ، ببدء عمله رسمياً ، والذي تضمن سؤالاً واحداً ، يلخص مهمته المقبلة كلها .

ترى هل يستعد الأمريكيون بالفعل ، لشن غارة هجومية على ( اليابان ) ؟!

ولأن ( تاناكا ) لم يتلقَ تدريباً كافياً ، فقد أساء فهم الموقف كله ، ( وهذا خطأ المخابرات اليابانية بالدرجة الأولى ، وتصور أن مهمته هي تأكيد الجواب بالإيجاب ، لا تحرى الأمر فحسب .

لذا ، فقد بدأ ( تاناكا ) مهمته ، بأكثر خطأ يمكن أن يقع فيه أي جاسوس ، في أي جهاز مخابرات في العالم بالتصنيف لحساب نتيجة بعينها ..

فالواقع أن ( بيرل هاربور ) كانت ، في تلك الأيام ، صورة مخزية للإهمال والاستهتار واللامبالاة ، من الجانب الأمريكي ، إذ إن الشعور ، الذي كان يسود ، في تلك الآونة ، هو أن الولايات المتحدة الأمريكية بعيدة كل البعد عن ساحة المعركة ، التي تدور رحاها في ( أوروبا ) و ( آسيا ) بالدرجة الأولى ، مع امتداد محدود في ( إفريقيا ) ، وأن المحيط الأطلنطي ، بضخامته واتساعه ، يفصلها تماماً عن كل خطوط المواجهة ، بحيث يستحيل أن يمتد إليها القتال ، على أية صورة من الصور ، في أي وقت كان .

ثم إن ( بيرل هاربور ) كانت في الأصل مكاناً لإصلاح السفن والمدمرات ، وكان بعض ضباط وجنود البحرية الأمريكية يعتبرون أنفسهم محظوظين ، إذا ما تم نقلهم إليها ، باعتبار أنهم سيستمتعون هناك بالهواء المنعش ، والشمس المشرقة ، والاسترخاء بلا حدود .

وفي تلك الفترات ، التي اشتعلت فيها الأمور سراً ، في ( بريطانيا ) و ( اليابان ) ، كان ضباط وجنود البحرية الأمريكية يسترخون ، على أسطح مدمراتهم ، وعيونهم مغلقة خلف مناظيرهم الشمسية ، وبعضهم منشغل بممارسة رياضة الجولف ، في وديان الجزيرة الخضراء اليانعة المشرقة .

ولكن ( تاناكا ) لم يرد هذا ، على الرغم من وضوحه فعمليات

إصلاح السفن ، وتنظيف أسطحها ، وتلميع مدافعها ، بدت له أشبه بحالة استعداد للحرب ، أما وجود عدد كبير من المدمرات ، فهو حشد للقوات ، وحتى حالات الكسل والاسترخاء ، بدت بالنسبة له نوعاً من التمويه والخداع ، ربما لأنه لم يصدق أن يتصرف جنود وضباط بهذا الاستهتار وهذه اللامبالاة ، وهم على أعتاب حرب ، من وجهة نظره على الأقل .

وحتى تكتمل الصورة ، لم يرسل ( تاناكا ) تقاريره ، كما ينبغي أن يفعل أى جاسوس محترف ومحترم . فالمنطقى والعقلانى ، والمتعارف عليه فى عالم المخابرات ، أن يرسل الجاسوس ما يراه أمامه فحسب ، وأن يصف ما يحدث بمنتهى الدقة ، ثم يترك للخبراء بعدها مهمة التفسير والتنسيق وتحليل المعلومات .

ولكن ( تاناكا ) لم يفعل هذا ..

لقد أرسل تقريراً يحوى وجهة نظره ، ليؤكد أن الأسطول الأمريكى يستعد للحرب ، ويُعد أسلحته ، وينظمها ، ويحيط كل هذا بحالة من التمويه والخداع .. لإخفاء هدفه الحقيقى ..

والطريف أن التقرير الذى أرسله ( تاناكا ) قد وقع فى قبضة المخابرات البريطانية ، قبل أن يصل إلى اليابانيين ، وأنه قد تم إرسال نسخة عاجلة منه ، إلى رئيس الوزراء ( ويسنستون

تشرشل ) شخصياً ، فلم يكذب طالعه ، حتى تألقت عيناه ، ولاك طرف سيجاره الضخم بأسنانه ، قبل أن يبتسم ابتسامته الوقور الرصين ، قائلاً فى هدوء مستفز :

- من الواضح أن جاسوسهم هناك حمار .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- وهذا من حسن حظنا .

وأمر بعدها بأن يكمل التقرير طريقه على الفور .

وهذا ما كان ..

وعندما استقبل اليابانيون تقرير ( تاناكا ) ، ارتكبوا أكبر خطأ فى العملية كلها ، إذ إنهم قد صدقوا كل حرف منه على الفور ، لمجرد أنه يتفق مع تصورهم المسبق للأمر كله على الرغم من أن ما سيترتب على هذا قد يغير مسار التاريخ كله ..

وهذا ما حدث بالفعل ، فبناء على التقرير الرسمى ، الذى قدمه مدير المخابرات اليابانية ، أصدر إمبراطور اليابان قراره ، بشن غارة وقائية ، على الأسطول الأمريكى فى ( بيرل هاربور ) ، قبل أن يكمل استعداداته ، للهجوم على السواحل اليابانية فيما بعد .. وكوسيلة للتمويه ، بدأ اليابانيون مفاوضات رسمية مع حكومة

الولايات المتحدة الأمريكية في ( واشنطن ) في بدايات ديسمبر 1941م ، في نفس الوقت الذي تحرك فيه الأسطول الياباني بالفعل ، في اتجاه جزيرة ( أوهايو ) ، وميناء ( بيرل هاربور ) .

وفي السابع من ديسمبر 1941م ، وبينما لا يزال المفاوضات اليابانيون في واشنطن ، انقضت الطائرات اليابانية على ميناء ( بيرل هاربور ) وبدأت قصفها العنيف ، في ساعة مبكرة للغاية ..

وكانت مفاجأة حقيقية للأمريكيين ، الذين انهالت عليهم القنابل اليابانية ، قبل أن يفيقوا من أثر النوم ، أو يبدءوا حتى عمليات التنظيف اليومية ، وعمليات الإصلاح المعتادة ..

بل إن بعض ضباط البحرية كانوا منهمكين في مباراة جولة حامية ، عندما عبرت الطائرات اليابانية فوق رؤسهم مباشرة ..

ولأن ( تاناكا ) لم يكن محترفاً بكل المقاييس ، فقد شمله حماس عارم ، عندما رأى سفن الأسطول الأمريكي تتحطم وتغرق أمام عينيه ، بفعل القنابل اليابانية ، وراح يصرخ بلغة أمه ، لتحية اليابانيين ، وحثهم على الضرب أكثر ، وأكثر ، وأكثر ..

وكان من الطبيعي أن ينكشف أمره ، مع انفعاله العجيب هذا ، وأن يهب بعض زملاء عمله ، في محاولة لإلقاء القبض عليه ، تحت وطأة القنابل والانفجارات ..

ولكن المدهش أن ( تاناكا ) لم يقع في قبضتهم قط. فبحكم نشأته ، في كنف أمه اليابانية ، كان يجيد القتال ، ورياضات الدفاع عن النفس ، بمهارة تفوق خصومه مجتمعين ..

لذا فقد أفلت منهم ، وأسرع يفر من المكان ، تحت قصف المدافع المضادة للطائرات ، وانفجارات قذائف اليابانيين ، التي انهالت على رؤوس الأمريكيين بلا رحمة أو هوادة ..

وانشغلوا جميعاً بما يحدث ، وبمحاولة النجاة بأنفسهم ، والفرار بأرواحهم ، في ذلك الجحيم المستعر ، الذي لا يبقى ولا يذر ، دون أن يفكر أحد في أمر ذلك الجاسوس الياباني الفار ..

وانتهت الغارة بسرعة ، وانسحبت الطائرات اليابانية ، تاركة خلفها أسطولاً أمريكياً محطماً ، وكرامة أمريكية جريحة ، تنزف بلا انقطاع ..

وبسرعة ، وتاماً كما توقع رئيس الوزراء البريطاني ، اندفعت الولايات المتحدة الأمريكية ، تعلن الحرب على ( اليابان ) .. وتدخل بثقلها الحرب العالمية الثانية ..

تماماً كما خطط ودبر ( وينستون تشرشل ) ، الذي انتفخت أوداجه زهواً ، وهو يتراجع في مقعده الكبير الوثير ، وينفث دخان سيجاره الضخم ، قائلاً في ثقة ، تحمل سلفاً رائحة النصر:

- الآن انقلبت الموازين ، وبدأت كفة الحرب تميل نحونا وكان على حق كعادته ، فدخلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الساحة قلب كل الموازين ، وأربك الخطط النازية تمامًا ، وأخل بتوازن القوى ، على نحو بدأت معه الهزائم تنهال على الجانبين ، الألماني والياباني ، لتغير دفة الحرب كلها ، في اتجاه الحلفاء .

وراح النازيون يتراجعون ، ويتراجعون ، لتتهبط قوات الحلفاء في ( نورماندى ) في السادس من يونيو 1944م ، ثم تتحرر ( فرنسا ) كلها ، في أواخر العام نفسه ، وبعدها تنهار مقاومة ( ألمانيا ) في إبريل 1945م ، لتعلن استسلامها بلا شروط ، في السابع من مايو ..

وبقيت ( اليابان ) وحدها في الساحة ، تقاوم بلا أمل ، حتى أسقطت عليها الولايات المتحدة الأمريكية ثأرها ، متمثلة في قنبلتين ذريتين ، أزالتا ( هيروشيما ) و ( نجازاكي ) من الوجود تمامًا ، في أغسطس 1945م.

وهنا ، أعلنت ( اليابان ) استسلامها غير المشروط ، ووقعت وثيقة الاستسلام في الثاني من سبتمبر 1945م .

وانتهت الحرب ، وتسلمت ( أمريكا ) كل وثائق المخابرات اليابانية ، وقائمة بكل جواسيسها في العالم كله ..

كانت تنقصها بضع صفحات ، ربما تم إتلافها عمدًا ، لسبب أو لآخر ..

ومن بين تلك الصفحات الناقصة ، كانت بيانات ( تاناكا ) الأمريكية الحقيقية ..

والعجيب أنه مع احتراق الملفات في ( بيرل هاربور ) وضياع تلك الصفحات في ( طوكيو ) ، ضاع أثر الجاسوس الياباني ، الذي وصفه رئيس الوزراء البريطاني يومًا بأنه مجرد ( حمار ) ..

وعلى الرغم من قلة خبرته ، اختفى ( تاناكا ) تمامًا ، من قلب المجتمع الأمريكي ، ولم يعثر له على أثر قط ..

أو هكذا تقول التقارير الرسمية على الأقل ..

فربما لقي الرجل مصرعه ، في هجوم ( بيرل هاربور ) أو ذاب في مجتمع ما بعد الحرب ، في ( أمريكا ) أو ( أوروبا ) أو ظهر باسم جديد أو هوية جديدة ، أو أنه يعمل الآن لحساب الأمريكيين ، أو كان كذلك لبعض الوقت ..

من يدري؟! .. إنه عالم المخابرات ، الذي كان وأصبح ، وسيظل أبدًا لغزًا غامضًا على كل المستويات .. نعم .. من يدري؟! ..

\*\*\*



## بمجرد الشك ..

فجأة ، احتلت القوات النازية ( النمسا ) ..

وفي العالم كله ، أدرك الجميع أن الأمر لن يقتصر على هذا الاحتلال ، الذي بررته ( ألمانيا ) النازية بأنه استعادة لحق خسرتة بسبب معاهدة ( فرساي ) ، بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ..

ومع خطب ( أدولف هتلر ) الملتهبة ، وتصريحاته النازية ، واستعراضاته المزهوة للقوات النازية ، والجيوش الألمانية ، التي عمل على تنميتها وتطويرها سرًا ، بات من الواضح أن الرايخ الثالث لن يكتفى بما استعاد ، ولكن طموحاته ستمتد حتمًا إلى ما هو أبعد من هذا .. أبعد بكثير .

وفي معظم دول ( أوروبا ) ، وعلى الرغم من الجهود الدبلوماسية ، التي تسعى لمنع امتداد الحرب النازية إلى القارة ، بدأت الجيوش تتأهب وتستعد لاعتداءات عسكرية محتملة من قبل جنود ( هتلر ) ، الذي أصبح من الواضح أن أحلامه تشمل ( أوروبا ) وما وراء ( أوروبا ) .

وفي ( فرنسا ) بدأ الجيش يستعد للحرب القادمة ، ويتأهب لصد الجيش النازي القادم ، ويشن في الوقت ذاته حرب نفسية ، في محاولة لمنع الاعتداء على حدوده ..

ومنذ الحرب العالمية ، كان الفرنسيون يتباهون دومًا بسلاح فرسانهم ، الذي حقق انتصارات مبهرة ، جعلته رمزًا للتفوق العسكري الفرنسي ، على الرغم من أنه يتكون في مجمله من راكبي الجياد المقاتلين .

حتى جواد سلاح الفرسان ، كان رمزًا للقوة والنبيل والزعامة .

ومن أجل هذا راح الفرنسيون يتحدثون عن سلاح فرسانهم ، وانتصاراته ، ويستعيدون بطولاته وغزواته ..

وعلى الجانب الآخر ، وعلى الرغم من ثقة النازيين في جيشهم وقوته ، إلا أن وزير الدعاية ( جوبلز ) شعر بالقلق الخطر ، من تأثير تلك الدعايات الفرنسية على جنود الجيش النازي ، عندما تحين لحظة المواجهة .

ولأن مخاوفه كانت تستند إلى موهبة وخبرة حقيقتين في مجال الحرب النفسية ، فقد كان من الطبيعي أن تنتقل إلى ( أدولف هتلر ) نفسه ، عندما صارحه بالأمر ، حتى أن الفوهرل قد قال في صراحة :

- هذا الأمر أخطر من اللازم ، ولا بد من اتخاذ إجراء حاسم وحازم .

بشأنه ..

ثم تضاعفت صرامته ، وهو يدق سطح مكتبه بقبضته مضيفا :

- أريد ( هملر ) .. فوراً .

لم تمض دقائق على قوله هذا ، حتى كان قائد ( الجستابو ) وشيطانه يقف أمام ( الفوهرلر ) الذي أمر وزير الدعاية أن ينقل إليه مخاوفه ، ثم قال :

- لا بد أن نحطم دعاية الفرنسيين قبل أن تحطم هي مغنويات جنودنا ..

شد ( هملر ) قامته ، وقال في حزم :

- سنجد وسيلة لذلك أيها الفوهرلر .

سأله ( هتلر ) في صرامة :

- متى !؟

التقى حاجبا ( هملر ) ، وهو يجيب :

- في أقرب وأسرع وقت ممكن .

بعدها بساعة واحدة ، كان يجلس على رأس مائدة الاجتماعات ، في المقر الرئيسي ( للجستابو ) ، والمعروف لدى العامة باسم ( بيت الثعالب ) ، للبحث عن وسيلة لتنفيذ أوامر الفوهرلر ..

وبأنجح وأسرع وسيلة ممكنة .

وبكل حماس ، ألقى الرجال عشرات الاقتراحات والأفكار ، والاحتمالات .

ولكن أيًا منها لم يُقتع ( هملر ) قط ..

كانت كلها اقتراحات تقليدية ، بطيئة ، تحتاج إلى إعداد طويل ، وترتيبات معقدة ، لا يمكن أن تحقق ما طالب به الفوهرلر ..

السرعة والنجاح ..

ثم حان دور أكثر رجاله نكاء وبراعة .. ( إيريك فون كلايست ) ، عبقرى المخابرات الألمانية ، طوال العهد النازي ..

فكعادته ، اكتفى ( فون كلايست ) بالاستماع طويلاً ، قبل أن يشير بيده ، متسائلاً في هدوء :

- علام يعتمد سلاح الفرسان !؟

أجابه أحد الرجال في حذر ، وهو يتساءل عن مغزى السؤال :

- على القوة والبسالة ، و ...

قاطعته ( فون كلايست ) ، وهو يعتدل ، قائلاً :

- لست أقصد هذا .. بل أقصد ما وسيلته الرئيسية !؟

أجاب رجل آخر في تردد ..

- الخيول .

هتف ( فون كلايست ) ، فى حماس مبالغت :

- بالضبط .

بدا الاهتمام على وجه ( هملر ) الذى يعرف رجله جيداً ،  
ويدرك ويثق فى أن فكرته ستحمل الحداثة والذكاء معاً ، فى حين  
مال ( فون كلايست ) إلى الأمام ، وتابع بنفس الحماس ، الذى  
أضيف إليه قدر من الحزم :

- القضاء على سلاح الفرسان الفرنسى لا يتأتى إذن ، إلا بالقضاء  
على خيوله .

تألفت عينا ( هملر ) وهو يسأله فى لهفة :

- وكيف هذا ؟!

هتف أحد الرجال محاولاً انتزاع السبق :

- ندس لها السم .

استدار إليه ( هملر ) بحركة حادة ، فى حين ابتسم ( فون  
كلايست ) فى سخريّة ، وقال :

- وسيلة سانجة وسخيفة ! فعمل كهذا صريح ومباشر أكثر  
مما ينبغى ، ثم إنه سينبه الفرنسيين إلى وجود عدو يتربص  
بهم ، وهذا يتنافى مع قواعد المفاجأة فى الحروب .

تساعل رجل آخر فى حيرة :

- وهل توجد وسيلة أخرى ؟!

ابتسم ( فون كلايست ) ابتسامة كبيرة ، وتراجع فى مقعده ،  
قائلاً :

- بالتأكيد .

اشتعلت عيونهم جميعاً باللهفة لمعرفة ما لديه ، حتى عينا ( هملر )  
نفسه ، إلا أن ( فون كلايست ) تطلع إلى هذا الأخير مباشرة ،  
وقال فى حزم صارم :

- ولكن الأمر ينبغى أن يقتصر على أقل عدد ممكن ، لضمان  
السرية المطلقة ، التى هى أحد عوامل نجاح الأمر بالتأكيد .

مضت لحظة من الصمت ، والكل ينقل بصره فى حذر ، بين  
( فون كلايست ) و ( هملر ) ، قبل أن يعتدل هذا الأخير فى  
صرامة ، قائلاً :

- تعال يا ( فون كلايست ) .. سنتحدث فى مكتبى .

قالها ، ونهض من مقعده ، واتجه فوراً إلى مكتبه ، وتبعه  
( فون كلايست ) فى صمت ، فى حين نهض الباقون فى صمت  
واحترام ، وعيونهم تكاد تحرق الأخير ، من فرط الحسد والغيط ..

وفى مكتب ( هملر ) ، شرح ( فون كلايست ) فكرته .. واتبهر  
( هملر ) ..

بل تفجرت كل انفعالاته فى أعماقه ، على نحو لم يحدث من  
قبل قط ..

فخطة ( فون كلايست ) كانت بسيطة وعبقرية ..

إلى أقصى حد ..

وعندما نقل قائد ( الجستابو ) الخطة للفوهرلر - دون أن يشير  
إلى ( فون كلايست ) بالطبع - ارتفع حاجباه ، وتألفت فى عينيه  
ابتسامة ، ضلت طريقها إلى شفتيه ، وهو يقول :

- رائع يا ( هملر ) .. رائع ..

ثم عاد حاجباه ينعقدان ، فى صرامته المعهودة ، وهو  
يضيف :

- نفذ فوراً .

وبعد دقائق قليلة ، نقل ( هملر ) الأمر لرجله العبقري  
( فون كلايست ) ..

ودون أن يضع لحظة واحدة كعادته ، بدأ ( فون كلايست )  
التنفيذ ..

وفى الليلة نفسها ، تلقى أحد جواسيس النازى فى ( باريس )  
رسالة لاسلكية مشفرة ، تحمل أوامر صارمة ..

وذلك الجاسوس لم يتم اختياره عبثاً ، بل بدقة بالغة ، نظراً  
لصداقاته القوية مع قائد سلاح الفرسان الفرنسى ، وقدرته على  
الدخول معه إلى إسطبلات الخيول الخاصة بالسلاح .

وكانت الأوامر غريبة ، فقد طلب منه أن يتجه إلى منطقة بعينها ،  
خارج حدود ( باريس ) ، حيث سيتم تسليمه أمراً خاصاً جداً .

وكما تقتضى الأوامر ، انتظر الجاسوس حتى منتصف الليل ،  
ثم استقل سيارته ، واتجه بها إلى نقطة اللقاء ..

وهناك انتظر .. وانتظر .. وانتظر ..

كانت الأوامر أن يلتقى بعمل سرى آخر ، ما بين الواحدة والثالثة  
صباحاً ..

وعندما اقتربت عقارب الساعة من الثالثة ، شعر الجاسوس بقلق  
بالغ ، وبدأ قلبه يخفق فى عنف وأطرافه ترتجف ..

وفجأة لمح مظلة صغيرة تهبط من الجو ..

مظلة داكنة ، لولا وجوده فى هذه البقعة بالذات ، لما لمحها قط ،  
حتى ولو كان حاد البصر ، على نحو ينافس الطيارين المقاتلين .

ولو هلة ، همّ الرجل بالاندفاع نحو البقعة التي هبطت عندها المظلة ، ثم لم يلبث أن تذكر الأوامر الصارمة ، بألا يغادر موقعه ، مهما تكن الأسباب ..

واقتربت عقارب الساعة من الثالثة أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

ثم فجأة سمع من خلفه صوتاً أنثوياً ، يقول في خفوت :

- معذرة ، لقد استغرقت بعض الوقت للعثور على الشحنة .

استدار في حركة حادة متوترة إلى صاحبة الصوت ، التي بدت له رائعة الحسن والجمال ، وهي تقدم له صندوقاً صغيراً ، في حجم علبة ثقاب ، وهي تواصل في حزم ، لا يتناسب مع أنوثتها الطاغية :

- إياك أن تفتحه ، حتى تصل الأوامر بذلك .

أوماً برأسه ، مغمغماً في انبهار :

- بالتأكيد .

قبض بأصابعه على الصندوق الصغير في قوة ، في حين استدارت هي لتتصرف ، فهتف بها في لهفة .

- ألن أعرف اسمك على الأقل !؟

استدارت تنظر إليه في صرامة ، وتجييب :

- كلاً .

نطقتها ، ثم اندفعت تختفي وسط الأشجار ، فتابعها ببصره في لهفة ، محاولاً اختراق الظلام والأغصان المتشابكة ، إلا أنه لم ينجح في هذا ، فعاد أدراجه ، وقاد سيارته إلى منزله ، وأصابعه مازالت تقبض على الصندوق الصغير ، الذي أخفاه بمنتهى الدقة والعناية ، في ركن خفي في مكتبته ، وهو يتساءل عما يمكن أن يحويه صندوق صغير كهذا !!

وفي اليوم التالي مباشرة ، وصلتته رسالة لاسلكية ، تطالبه بدفع صديقه ، قائد سلاح الفرسان ، إلى اصطحابه لزيارة إسطبلات الخيول الرئيسية .

ولأن الرجل معروف في (باريس) بحبه الشديد للخيول ، واهتمامه بها ، فقد كان من السهل عليه أن يجد حجة تقنع صديقه قائد سلاح الفرسان ، باصطحابه في عطلة نهاية الأسبوع ، إلى الإسطبلات الرئيسية للسلاح .

وعندما وصلت الرسالة اللاسلكية ، التي بعثها الجاسوس في (باريس) ، إلى مكتب (فون كلايست) في برلين ، تألقت عينا هذا الأخير ، وقال لمساعدته في حزم :

- ابدأ استعدادات المرحلة الثانية في الخطة .

وكان هذا يعني إرسال رسالة لاسلكية شفرية جديدة ، إلى ذلك الجاسوس الخاص في قلب (باريس) .

رسالة تحدد له مهمته بدقة .

ولقد كانت دهشة الجاسوس عارمة ، عندما استقبل تلك الأوامر الجديدة ، حتى إنه قد نهض على الفور ، وأخرج ذلك الصندوق الصغير من مخبئه ، وارتدى قفازيه ، كما تقتضى التعليمات ، قبل أن يفتحه بمنتهى الحذر ..

ثم اتسعت عيناه عن آخرهما ..

فما وجدته داخل الصندوق ، وما أشارت إليه أوامر ( برلين ) كان عجبياً ومدهشاً بحق ..

وبنفس العناية ، أعاد الجاسوس إغلاق الصندوق الصغير ، وهو يتساعل في انبهار عن العبقرى ، الذى وضع خطة كهذه .

وفى نهاية الأسبوع ، عاد يخرج الصندوق الصغير من مكنه ، ويدسه فى جيب معطفه ، قبل أن يذهب للقاء سلاح الفرسان ، ليصطحبه إلى الإسطبلات الرئيسية للسلاح .

وهناك راح الاثنان يتحدثان فى حماس عن الخيول ، وأنواعها ، وقوتها ، والتدريبات القتالية التى تتلقاها ، و ...

وفى حذر شديد ، وبينما يرتدى قفازيه ، وفى غفلة من قائد السلاح ، فتح الجاسوس ذلك الصندوق الصغير ، والتقط ما يرقد داخله ..

إبرة صغيرة ..

نعم .. مجرد إبرة صغيرة ، التقطها الجاسوس ، ودسها بين سبائته ووسطاه ، وتظاهر بالتربيت على عنق أحد الجياد ، ثم نفذ الأوامر .

شكة صغيرة بالإبرة فى عنق الجواد ، ثم فى عنق ثان .. وثالث .. ورابع ..

وبهذا انتهت مهمته ، وألقى الإبرة الصغيرة من بين أصابعه ، واستعاد ابتسامته ، وواصل جولته مع قائد السلاح .

وعند عودته فى المساء ، أرسل رسالة لاسلكية إلى ( برلين ) ليخبرها أن المهمة قد تم تنفيذها بنجاح .

ولا أحد يمكنه أن يتصور سعادة ( هملر ) ، عندما أبلغه ( فون كلايست ) الخبر ، ولا تلك الابتسامة التى سجلت نفسها فى تاريخ شفتى الفوهلر وهو يقول فى حزم :

الآن يمكننا القول بأننا قد دمرنا سلاح الفرسان الفرنسى ..

وخلال أيام قليلة ، ظهرت أربع حالات إصابة بالجمرة الخبيثة ، بين خيول سلاح الفرسان الفرنسى .

وبسرعة مخيفة ، انتشرت العدوى بين الخيول كلها ، والتى

راحت تنفق وتقتضى نحبها ، وكأنها كومة من القش ، اشتعلت  
بها النيران .

وعلى الرغم من المحاولات المستميتة للأطباء البيطريين  
الفرنسيين ، ومن الذهول الذي أصاب ضباط وجنود سلاح الفرسان ،  
تساقطت خيوله كلها جثثاً هامدة ، في غضون أقل من شهر واحد .

وكانت صدمة رهيبة للفرسان ، والجيش الفرنسي ، والشعب  
كله أيضاً ، فالزهو الذي ملأ القلوب كلها تحطم وانكسر ، وانسحق  
وسقط دفعة واحدة .

وبلا رحمة ..

وعلى الجانب الآخر ، كان لسقوط سلاح الفرسان الفرنسي  
دويًا هائلًا ، وسط الجيش النازي ، الذي بدا له أن حملاً ثقيلاً قد  
انزاح عن كاهله ، على الرغم من أن الأحداث التالية قد أثبتت  
أنه لم يكن له ثقل يذكر ، في مواجهة الطائرات والمدافع  
والمدرعات الألمانية .

ولكنه كان انتصاراً نفسياً ومعنوياً ، على أرفع مستوى .

ولم يعد أمام الفرنسيين سوى خط (ماجينو) الشهير ،  
ليتباهاوا به ، وبقوته ، ومناعته ، وقدرته على صد أي هجوم  
ممکن .

ولكن الانتصارات المعنوية يكون تأثيرها في بعض الأحيان ،  
أقوى من أية انتصارات عسكرية في أعقد وأعنف الحروب .

بفضل شعورهم بالتفوق والزهو ، واجه النازيون خط (ماجينو)  
في ثقة ، وهبط جنود مظلاتهم خلفه ، وانقضوا عليه من حيث  
لا يتوقع الفرنسيون .

وانتصر الألمان على الفرنسيين ، ودخلوا (باريس) بعد أربعة  
عشر يوماً فحسب من القتال وهزّ انتصارهم الساحق هذا (أوروبا)  
كلها ، من أقصاها إلى أقصاها ، دون أن يخطر ببال محلل واحد  
أن كل هذا الانتصار قد جاء بمجرد الشك .. بببرة !

\*\*\*

كل شيء كان يسير على ما يرام ، بالنسبة للجيش النازية ، في تلك الفترة من بدايات الحرب العالمية الثانية ، بعد أن اجتاحت ( أوروبا ) ، وحققت انتصارات مذهلة ، على كل الجبهات ، في ( النمسا ) ، و ( بولندا ) ، و ( فرنسا ) ، وغيرها ..

وانتفخت أوداج جنرالات الرايخ الثالث بزهوة النصر ، وراح الفوهرر ( أدولف هتلر ) يخطط لحكم العالم أجمع بعد سقوط عدوه اللدود ( إنجلترا ) التي يحشد كل جيوشه وقواته لاجتياحها ، وغرس علم النازية في قلب عاصمتها ..

ولأن الحروب تحتاج إلى انتصارات نفسية ومعنوية ، بقدر احتياجاتها إلى الانتصارات العسكرية ، فقد راح وزير الدعاية ( جوبلز ) يضع خطته بدوره ، ويبحث عن الوسائل الجديدة والمبتكرة ، لتحطيم الروح المعنوية للبريطانيين ، وإقناعهم بضعف قادتهم ، وعدم قدرتهم على التصدي للجيش النازي المخيف ..

وأنشأ ( جوبلز ) محطة إذاعية خاصة ، تبث أخبارًا زائفة بالإنجليزية والهولندية ، ليتصور خصوم ( ألمانيا ) النازية أنها قد أصبحت أشبه بسيل جارف ، يتلع كل ما يعرض طريقه ، لئلا كان ..

وردًا على أسلوبه هذا ، أنشأت ( إنجلترا ) محطة إذاعية منافسة ، تبث كل ما من شأنه تحطيم معنويات الألمان ، وإشعارهم بأن قيادتهم تلقى بهم في التهلكة ، في حين يحيا جنرالاتهم في أمان ورغد ورفاهية .

ثم أضاف الإنجليز شيئًا من ابتكارهم ، في المضمار نفسه ..

محطة إذاعية ، قدمت نفسها باسم ( ألمانيا الحرة ) توحى لمن يسمعونها بأن أصحابها من المعارضين للنظم النازية ، والفارين من ديكتاتورية ( هتلر ) وجنرالاته ..

ولأن نتائج هذه المحطة الإذاعية كانت ملحوظة وقوية ، فقد بات ( جوبلز ) ، وهو يفكر في وسيلة جديدة ، يرد بها الصاع صاعين ، للبريطانيين ، وجهاز مخابراتهم كله ..

ومع ما يبذله من جهد ، راح ( جوبلز ) في سبات عميق ، حتى استيقظ بغتة على صوت زوجته المذعورة ، وهي تهزه هاتفًا :

استيقظ .. استيقظ وانظر ماذا وجدت .

هب من مرقدك ، يهتف بها في عصبية :

— ماذا لديك يا امرأة !؟



ناولته كتابًا قديمًا ، وهي تقول في انفعال :

- اقرأ هذا .

سألها ، في عصبية أكثر :

- اقرأ ماذا؟! هل تعلمين كم الساعة الآن؟!!

أشارت في انفعال إلى فقرة في الكتاب ، قائلة :

- لا يهم كم الساعة الآن .. المهم أن تقرأ هذه الرباعية .. إن جسدك كله يرتجف ، منذ قرأت ما بها .

قلب ( جوبلز ) الكتاب بين يديه ، وغمغم في عصبية :

- فليكن .

ولكنه لم يكذب طالع الفقرة ، التي أشارت إليها ، حتى اعتدل في حركة حادة ، وهتف بدهشة بالغة :

- ما هذا بالضبط؟!!

أجابته زوجته ، بنفس انفعالها :

- إنه كتاب قديم يحمل عنوان ( قرون ) ، ألفه فلكي فرنسي يدعى (نوسترا داموس) ، وهو هنا يتحدث عن ( هتلر ) مباشرة ، على الرغم من أنه قد كتب كتابه هذا منذ ما يقرب من خمسة قرون .

ردد ( جوبلز ) في ذهول :

- خمسة قرون؟!!

وعاد يقرأ الفقرة مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفي كل مرة ، كان ذهوله يتضاعف ، فالكتاب ، الذي يحوى مئات الرباعيات شبه الشعرية ، كان يتحدث في إحدى رباعياته عن ( أدولف هتلر ) ويصفه على نحو لا يقبل الشك وإن ذكر اسمه باللاتينية القديمة ( هستر ) ..

ولم يغمض لوزير الدعاية النازي جفن ، ما تبقى من تلك الليلة ..

لقد ظل حتى صباح اليوم التالي في مكتبته ، يقرأ كل ما وقعت عليه يده ، عن ذلك الفلكي الفرنسي القديم ( ميشيل دي نوسترا داموس ) ..

(نوسترا داموس) هذا ينتمي إلى أسرة يهودية أوروبية قديمة ، فجده ( بيير دي نوسترا داموس ) تاجر غلال يهودي قديم ، اهتم كمعظم أقرانه بالعلم والدراسة ، إلى جانب عمله ، وأنجب عددًا من الأبناء ، من بينهم ( جاك ) ، والد ( ميشيل ) ، الذي تزوج امرأة ثرية ، اعتنق معها المسيحية ، وابنه بعد في التاسعة من عمره ..

ولقد ولد ( ميشيل دي نوسترا داموس ) فى الرابع والعشرين من ديسمبر ، عام 1503م ، وهو أكبر أربعة أخوة ، وأكثرهم ذكاء منذ الصغر ..

وفى مرحلة متقدمة فى صباه ، أدرك جده ( بيير ) موهبته ، فاحتضنه فى كنفه ، وعلمه اللاتينية ، والإغريقية ، والعبرية ، بالإضافة إلى مبادئ الرياضيات والفلك وعلم التنجيم ..

ولأن تلك الفترة كانت فى أوج محاكم التفتيش ، فقد خشى والده من وقوع الصبى فريسة لتهمة ظالمة ، فاستعاده من جده ، وأرسله لدارسة الطب فى ( مونبلييه ) ، وعمره لم يتجاوز التاسعة عشرة بعد .

ثم فجأة ، ودون مقدمات ، ظهرت موهبة ( نوستراداموس ) ، فى التنبؤ بالأحداث المستقبلية ، على نحو أدهش خصومه قبل أصدقائه ، حتى إن الملكة ( كاترين دي ميديشى ) قد أرسلت فى طلبه ، واحتضنته ، وطلبت منه التنبؤ بمستقبلها ، ومستقبل زوجها وأبنائها ..

ومنذ ذلك الحين ، تعلم ( نوستراداموس ) أن يصيغ تنبؤاته فى صورة رباعيات غير مباشرة ، حتى ينجو من العقاب ، إذا ما حملت النبوءة أخباراً غير سارة ..

وانبهر ( جوبلز ) كثيراً بما قرأه عن ذلك الفلكى المدهش ، وخاصة عندما علم أنه قد تنبأ باسم ( لويس باستير ) ، وبقدوم ( نابليون بونابرت ) وقيام الثورة الفرنسية ، وهزيمة ( واترلوا ) ، وغيرها ..

ولكن ما أثار اهتمامه وانبهاره أكثر ، هو أن تنبؤات ( نوستراداموس ) قد استخدمت مرة كوسيلة دعائية للحرب النفسية ، عندما قام خصوم الكاردينال ( مازاران ) ، فى عام 1649م ، بنشر طبعة من كتاب ( قرون ) ، أضافوا إليها رباعيتين زائفتين ، للحد من نفوذ الكاردينال القوى ، فى البلاط الفرنسى .

فهذا ما كان يحتاج هو إليه بالضبط ..

وما إن أصبح الوقت مناسباً ، حتى التقى ( جوبلز ) بالفوهرل شخصياً ، وبقائد الجستابو ( هملر ) وطرح عليهما فكرته ..

فى البداية ، لم يستسغ ( هملر ) الفكرة ، بل واعتبرها نوعاً من السخف ، ولكن ( هتلر ) أبدى اهتماماً كبيراً بها ، خاصة وأن ( جوبلز ) قد أطلعه على بعض الرباعيات التى تشير إلى انتصاراته ونجاحاته المذهلة فى ( أوروبا ) كلها ..

وبأوامر من ( أدولف هتلر ) شخصياً ، بدأت حرب جديدة فى ( أوروبا ) ..

لقد قام ( جوبلز ) بطباعة آلاف النسخ من كتاب ( قرون ) ، مع منشورات بالإنجليزية والهولندية تشير إلى الرباعيات ، التي تتحدث عن ( هتلر ) وانتصاراته ..

وراحت الطائرات تلقى تلك الطبقات على ( إنجلترا ) وعلى كل الأجزاء التي لم يتم احتلالها والسيطرة عليها بعد ، في قلب ( أوروبا ) ..

وقرأ الناس جميعاً تنبؤات ( نوستراداموس ) ..

حتى المخابرات البريطانية ..

ولأن الوسيلة غير تقليدية ، فقد استنكرت المخابرات البريطانية الأمر في البداية ، واستهانت به ، وتصورت أنه مجرد سخافة ألمانية ، لن تجد من يبالي بها ، أو يهتم بأمرها ..

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه المخابرات البريطانية ..

ففي كل الحروب ، ومع القتل والدمار والأهوال ، تضعف النفوس ، وتنكمش من الخوف والرعب .

وإذا ما ضعفت النفس ، استسلمت للخرافة ..

لذا فقد قرأ البريطانيون والأوروبيون تنبؤات ( نوستراداموس )

باهتمام بالغ ، ووقر في نفوسهم أن ( هتلر ) سيحتل ( أوروبا ) كلها لا محالة ..

وهنا أدرك رجال المخابرات البريطانية خطورة الأمر ..

وفي مقر قيادتهم بدأ فريق من المؤرخين يدرس كتاب ( قرون ) هذا ، بمنتهى الاهتمام والدقة ..

ولقد لاحظ الخبراء أن الألمان قد نشروا كل ما ذكره ( نوستراداموس ) عن انتصارات ( هتلر ) و ( ألمانيا النازية ) وحذفوا كل ما يشير إلى العكس ..

وفي حزم التقى البروفيسير ( ه . كان ) بمسئول المخابرات البريطانية قائلاً :

- الألمان لعبوها بمهارة حقيقية .

أوما المسئول برأسه إيجاباً ، وهو يقول بشيء من الضيق :

- ليس لدينا أدنى شك في هذا .

ثم تنحج ، ليترد عنه توتره ، قبل أن يشد قامته ، متابعاً :

- السؤال الآن هو: كيف نواجه هذا الأمر !؟

أشار البروفيسير ( كان ) بسبابته وإبهامه ، مجيباً :

- الواقع أن هناك طريقتين ، لابد أن نمضى فيهما معاً ، بنفس  
القدر من الاهتمام .

مال مسئول المخبرات نحوه ، يسأله في لهفة وشغف واهتمام :  
- وما هما !؟

أجابه في سرعة وحسم :

- أولهما أن نمحو تأثير ما فعلته منشورات النازيين ، وثانيهما  
أن نرد الصاع صاعين .

كانت فكرته تكمن في طباعة نوعين من المنشورات ، التي  
ينبغي توزيعها على نطاق واسع ، أحدهما موجه إلى الإنجليز  
أنفسهم ، وإلى الدول غير المحتلة في ( أوروبا ) ، ويحوى  
تصحيحاً لما ورد في المنشورات النازية ، بحيث يضيف النبؤات  
والرباعيات الخاصة بهزيمة ( هتلر ) وانتحاره ، والنوع الآخر  
يحوى تلك الرباعيات الأخيرة وحدها ، ويتم إلقاؤه على المدن  
الألمانية والإيطالية .

وكان الأمران يحتاجان إلى دراسة جيدة لكتاب ( قرون ) ..

وهذا في حد ذاته أمر صعب للغاية ..

فكتاب ( قرون ) هذا ، الذي وضعه ( ميشيل نوستراداموس )

يعد أكثر الكتب مبيعاً ، عبر تاريخ الكتب المطبوعة كله ، إذ لم  
تتوقف طبعاته قط خلال ما يقرب من خمسة قرون ، تخللتها  
طباعات زائفة ، ورباعيات مزورة ، أطلق المؤرخون عليها اسم  
( تنبؤات أوليفاريس ) و( تنبؤات أورخال ) لذا فقد صار من  
العسير جداً العثور على طبعة دقيقة صحيحة من الكتاب .

ولكن البروفيسير ( هـ . كان ) يعد واحداً من أشهر الباحثين  
في التاريخ ، وأكثرهم صبراً ، وحرصاً على الدقة .

لذا ، فقد بذل الرجل جهداً مضمناً بحق ، حتى وضع دراسة  
دقيقة للغاية عن تنبؤات ( نوستراداموس ) ، ثم راح بعدها  
يصوغ المنشورين المطلوبين .

وفي وقت واحد تقريباً ، بدأت الطائرات البريطانية تلقى  
المنشورات ، على ( أوروبا ) و( ألمانيا ) ..

وكانت مفاجأة أدهشت ( جوبلز ) ، وأغضبت ( أدولف هتلر )  
غضباً عارماً ، خاصة وأنها تشير إلى هزيمة الرايخ الثالث  
واندحاره ، وإلى انتحار ( هتلر ) نفسه ..

وقرر ( جوبلز ) أن يواجه الرد بآخر أكثر عنفاً ..

وفي مقر المخبرات النازية ، بدأ عملية دراسة جديدة لتنبؤات  
( نوستراداموس ) ، لتكون وسيلة لمقاومة الرد البريطاني .

والواقع أن رباعيات (نوستراداموس) قابلة للتفسير على ألف وجه ، طبقاً للزاوية التي تنظر منها إليها فهي مكتوبة على شكل رباعيات شعرية ، تمتزج فيها اللاتينية والبروفنسالية ، والإيطالية ، والإغريقية بعبارات رمزية غير مباشرة ، تربطها علامات فلكية ، لتكون وسيلة لتحديد زمن حدوثها بالتقريب ..

لذا ، فقد أعاد النازيون ، تفسير الرباعيات ، التي اهتم بها البريطانيون ، لإثبات هزيمة (ألمانيا) النازية .

ومرة أخرى ، تساقطت المنشورات النازية ، ولكن على (بريطانيا) وحدها هذه المرة ..

وعاد البروفيسير ( ه . كان ) يضع منشورات مضادة جديدة .

ومع تعدد المنشورات وكثرتها من الجانبين فقدت تأثيرها على العامة والجنود في الجيشين بل وتحولت إلى وسيلة للفكاهة والسخرية .

وعلى الرغم من هذا ، كان قرار إيقافها صعباً على الجانبين .  
ففریق (جوبلز) خشى أن يوقف حرب المنشورات هذه ، حتى لا يفسح المجال لنفس الحرب ، عند الجانب البريطاني ..

والعكس بالعكس ..

ولكن ( هتلر ) حسم الأمر ، كما يحدث عادة ..

فلأنه يدرك جيداً تأثير التنبؤات القديمة على الناس ، وخاصة في (أوروبا) ، فقد أحنقه وأثار سخطه أن يتداول العامة منشورات (نوستراداموس) هذه ، وأمر بإيقافها فوراً ..

وانزعج (جوبلز) بشدة ، وحاول باستماتة أن يقتنع الفوهرل بخطأ هذا ، ولكن (هتلر) بدا صارماً وغازباً للغاية ، وهو يكرر أمره بإيقاف هذه الحملة فوراً ، ثم يقرن الأمر ببقاء (جوبلز) في منصبه هذه المرة .

وأسقط في يد (جوبلز) خبير الدعاية المحنك ، وأدرك أنه مضطر لإيقاف حملة التنبؤات القديمة ، بناء على أوامر الفوهرل ، على الرغم من ثقته في أن هذا سيحدث تأثيراً عكسياً بالغ الخطورة ..

واجتمع وزير الدعاية النازي مع فريقه ومستشاريه ، للبحث عن مخرج من هذه الأزمة ، حتى استقر أمرهم على حل واحد ..  
التخلي عن المنشورات الدعائية ، التي تحوى تنبؤات (نوستراداموس) إلى أخرى تحمل دعاية جديدة ، بدلاً من إيقافها دفعة واحدة ..

ولقد اقتنع (جوبلز) تماماً بالفكرة ..

## عملية سارين ..

أوشكت الحرب العالمية الثانية على نهايتها ، أو كادت ..  
القوات النازية تلقت ضربة قاصمة ، فى الجبهة السوفيتية ،  
وبدأت تراجعها المأساوى ، عبر الجليد الروسى الرهيب ..  
قوات الحلفاء هبطت فى ( نورماندى ) ، وبدأت مرحلة تحرير  
( أوروبا ) ، بدءاً من فرنسا ، وراحت مع السوفيت يطوقان ألمانيا ،  
ويهددها بمصير بشع ، لم يجُل بخاظرها ، حتى فى أحلك كوابيسها ..  
ووسط كل هذا ، وعلى الرغم منه ، لم يتراجع الزعيم النازى  
( أدولف هتلر ) عن لهجته التهديدية للجوفاء ، ولا صرخته ووعيده ،  
خاصة وهو يؤكد أنه يستعد لاستخدام سلاح سرى جديد ، سيقلب  
مسار الحرب كلها ، ويعيد النصر إلى جيش الرايخ الثالث ...  
فى البداية ، تصور قادة الحلفاء ، ورجال مخابراتهم ، أن ( هتلر )  
يطلق تهديدات جوفاء فحسب ، وأنه لا يملك ما يمكنه أن يهدد به ،  
و ...  
ولكن فجأة ، انتهالت الصواريخ على العاصمة البريطانية ..  
مئات من صواريخ ( ف - 1 ) ، و ( ف - 2 ) ، راحت تنسف  
المدينة القديمة ، وتهدم منازلها على رعوس سكاتها ، وأصحابها ،  
وحكوماتها ..

ولكنه لم يعرضها على الفوهرر قط ؛ ربما خشية أن يرفضها ؛  
فيضعه فى مأزق بلا حل .

وتم التنفيذ بعد يومين فحسب ..

وكانت مفاجأة للبريطانيين الذين باغتهم الطائرات الألمانية  
بمنشورات جديدة لم يستعدوا لمواجهتها قط .

ولكن فكرة فريق ( جوبلز ) كانت عبقرية بحق ، فقد أجبرت  
المنشورات الجديدة - بما تحويه من أمور مدروسة - الخبراء  
البريطانيين ، على إيقاف حملة التنبؤات المضادة ، وخوض  
الحرب الجديدة .

وهذا ( هتلر ) بعد أن غاب اسمه من المنشورات البريطانية الجديدة ،  
وراح يخطط للضربة القادمة المفاجئة ، على الجبهة الروسية .

وكانت تحوى أيضاً حرب منشورات جديدة ، بعد أن عرفت  
المخابرات الألمانية الطريق ، وأدركت أن الحرب ليست دائماً عسكرية ..

فهناك دوماً حرب أكثر خطورة ، وأكثر قدرة على تحطيم معنويات  
الخصوم ، وبث روح اليأس فى نفوسهم ..

حرب الورق ..

\*\*\*

وارتجفت القلوب فى عنف ..

فعلى الرغم مما نألفه عن الصواريخ ، فى زمننا هذا ، كانت  
أذاك سلاحاً جديداً مخيفاً ، لم يعرفه العامة ، أو حتى الخبراء ،  
إلا فى روايات الخيال العلمى فحسب ، إلى أن جاء العبقرى  
( فون براون ) ، وحوّلها من خيال إلى حقيقة ..

حقيقة دمرت نصف ( لندن ) ، فى ليلة واحدة ..

وهنا ، أدركت أجهزة المخابرات أن ( هتلر ) ، لم يكن مهووساً ،  
عندما تحدّث عن سلاح سرى ..

بل ، وراحت جهودهم كلها تتكثّف ؛ للتوصّل إلى جواب مهم  
للالغاية ..

تُرى أهذا هو السلاح السرى ، الذى تحدّث عنه الفوهلر ، أم أنه  
مجرد مقدّمة مخيفة له ..

فى تلك الأثناء ، كان الأمريكيون يعلمون أن علماء النازية كانوا  
يجاهدون ، للتوصّل إلى الطاقة النووية ، التى يجرون هم أيضاً  
تجاربهم السرية عليها ، منذ فترة ليست بالقصيرة ، إلا أنهم  
كانوا واثقين من أن افتقاد المعلومات كان يعنى أن بلوغ ذلك  
الهدف ، من الجبهة الألمانية ، أمر شبه مستحيل ، فى تلك  
المرحلة بالتحديد ..

ولكن تحريات المخابرات البريطانية كانت تشير إلى وجود  
سلاح سرى آخر ..

سلاح رهيب ..

وجديد ..

وفتاك ..

ووسط التكهنات ، ومحاولات كشف الأغوار ، وسبر الحقائق ،  
وصلت إلى المخابرات البريطانية معلومة ، عن قُرب إنتاج  
الألمان للجيل الثالث ، من صواريخهم المدمرة ..

جيل ( ف - 3 ) ..

ووفقاً لمعلومات جاسوس رفيع المستوى ، كان ( ف - 3 )  
يختلف كثيراً عن نظيريه السابقين ، إذ كان أكبر حجماً ، وأكثر  
قوة ، وأبعد مدى بكثير ، حتى إنه يمكن إطلاقه من قلب ( برلين ) ،  
ليعبر المحيط كله ، إلى ( واشنطن ) مباشرة ..

أما قوته التفجيرية ، فكانت مفاجأة ..

مفاجأة محيرة للغاية ..

فعلى الرغم من مداه وقوته ، لم ترد معلومة واحدة ، تشير  
إلى أنه يحمل رأساً متفجراً !! ..

فالقاروخ ( ف - 3 ) سيحمل بالفعل أخطر سلاح سرى ، توصل  
إليه الألمان ، فى الأشهر الأخيرة من أبشع حرب عرفها التاريخ ..  
الغاز ..

غاز عديم اللون والرائحة ، لا يمكنك أن تشعر بوجوده ، إلا أنه  
ما إن يدخل الجهاز التنفسى ، حتى يصيبه بالتهابات حادة ، تؤدى إلى  
صعوبة فى التنفس ، وارتشاح فى الرئة ، وتضخم فى الحويصلات  
الهوائية ، فينهار الشخص ، ويلقى مصرعه خلال أقل من ساعة ، مع  
آلام مبرحة ، تلتهم كيانه كله ..  
غاز اسمه ( سارين ) ...

لم تكن غازات الأعصاب ، أو الغازات السامة سلاحاً مجهولاً  
أو مستحدثاً ، فى ذلك الحين ، إذ استخدمها الألمان أيضاً ، فى  
الحرب العالمية الأولى ، وحققوا بواسطتها انتصارات فائقة ، فى  
مراحلها الأولى ، إلا أنها كانت من أنواع أبسط ، تطلق معها سحباً  
من الدخان ، ورائحة نفاذة ، تنبه الأعداء إلى ضرورة ارتداء  
الأقنعة الواقية ، والقتال بما تدربوا عليه ..

ولكن ( سارين ) كان أخطر بكثير ..

جرام واحد منه ، كان يكفى لتلويث هواء مدينة صغيرة بأكملها ،  
مع انتشار سريع غير محسوس ، بحيث تكون أول أعراضه هى  
الانهيارات الرئوية ، والوفاة السريعة ..

لماذا سيعبر المحيط إذن؟! ..  
لماذا يعتبره النازيون سلاحهم السرى ، لو أنه لن يسبب  
الدمار نفسه ، الذى أحدثته الصواريخ السابقة؟! ..

السرى يكمن إذن فى المادة التى سيحملها ( ف - 3 ) ..  
وهذا ما ينبغى أن يسعوا جميعاً لمعرفته ...

وهكذا ، أطلقت المخابرات البريطانية جيشاً من رجالها ،  
وجواسيسها ، وعباقرتها ، ومحليليها ؛ لجمع أية معلومة ممكنة ،  
مهما صغر شأنها ..

ولأن الأحداث كانت تجرى بسرعة مذهشة ، فقد جند البريطانيون  
والأمريكيون نخبة من أفضل رجالهم ومحليليهم ؛ للتعامل مع ذلك  
الموقف الدقيق ..

وبسرعة ، راحت المعلومات تتوافد ... وتتوافد .. وتتوافد ..

وكما يحدث فى لعبة ( البازل ) الشهيرة ، راح الرجال يجمعون  
كل معلومة ، ويرصونها بدقة إلى جوار المعلومات الأخرى ،  
لتنضح الصورة رويداً رويداً ، وتظهر الحقائق لحظة بعد أخرى ..

وأخيراً ، اكتملت الصورة ..

وبدت مفزعة مخيفة ، إلى أقصى حد ..



ولو حمل ثلاثة صواريخ ، من طراز ( ف - 3 ) ، عبوات من غاز ( سارين ) ، وانفجرت في ثلاث مدن بريطانية ، فقد يبيد هذا نصف البريطانيين بضربة واحدة ..

ويا له من سلاح !..

والواقع أن أجهزة مخابرات الحلفاء قد أصيبت بالهلع ، عندما توصلت إلى تلك الحقائق ، ووجدت أنه من المحتم أن تنشط أكثر وأسرع ، لكشف كل ما يتعلق بهذا الأمر ، قبل أن يبلغ الألمان نقطة اللا عودة ، ويبدعون في استخدام أخطر أسلحتهم ..

كان من الواضح أن مشروعهم لم يكتمل بعد ، وإلا لاستخدموا ( سارين ) على نطاق واسع ، خاصة وأن الزحف السوفيتي يقترب من عاصمة رايخهم ..

لذا ، أصبح الوقت هو أهم عامل حيوي ..

على الإطلاق ..

وبسرعة ، اجتمع رجال المخابرات البريطانية ، مع عدد محدود من المكتب الإستراتيجي الأمريكي ، الذي أصبح فيما بعد نواة المخابرات الأمريكية ، وراحوا يعدون خطة لمنع ( ألمانيا ) من إنتاج صواريخ ( ف - 3 ) ، التي يمكنها حمل ( سارين ) إليهم ..

في البداية ، فكّر الأمريكيون في غارة عنيفة على مصنع شركة ( آي . جي . فاين ) ، التي تقوم بتركيب وتصنيع الغاز القاتل ، إلا أن البريطانيين فاجنوهم بأن المصنع موجود في قلب أحد جبال ( ألمانيا ) ، ومحاط بأكثر من مليوني طن من الأسمنت المسلح ، الذي لن تخترقه قنبلة معروفة ..

ولأن القنبلة الذرية لم تكن قد اكتملت بعد ، حاول البريطانيون ابتكار قنبلة جديدة ضخمة ، ذات قوة تدميرية عنيفة ..

ولقد شنوا غارة بواسطتها بالفعل ..

وسقطت القنبلة الرهيبة على الجبل ، وسببت دماراً شديداً للغاية ..

إلا أنها لم توقف مشروع ( ف - 3 ) ..

ولا إنتاج غاز ( سارين ) ..

وهنا ، أدركوا جميعاً أن عليهم البحث عن وسيلة جديدة ،

و ...

« وسيلة بشرية !.. »

ألقي الاقتراح ضابط مخابرات شاب ، اشتهر في الأروقة البريطانية السرية بأنه صاحب خيال جامح ، وابتكارات ظاهرها الجنون ، وباطنها عبقرية أدهشتهم جميعاً ، خاصة وأنه ينتمي إلى أسرة نبيلة ، ينست يوماً من أن تضعه في منصب يتناسب وقدراته ..

وفى شىء من العصبية ، استقبل أحد الأمريكيين اقتراحه ، قائلاً :

- أى سخف هذا ... مصنع ( فاين ) محاط بحراسة ألمانية شديدة للغاية ، وكل العاملين فى داخله تم انتقاؤهم بعناية تامة ، ويخضعون لمتابعة ومراقبة دائمين ، ومن المستحيل أن تنجح فى تجنيد أحدهم ، أو زرع عميل بينهم ، أو ...

قاطعهُ الضابط الشاب ( آيان فليمنج ) ، الذى حظى فيما بعد بشهرة واسعة ، باعتباره مبتكر أشهر شخصيات الجاسوسية ( جيمس بوند ) ، وهو يقول فى حماس :

- ومن قال : إننا سنفعل هذا أو ذاك!؟

تبادلوا جميعاً نظرة دهشة ، قبل أن يتساعل ضابط بريطانى أكبر رتبة من ( فليمنج ) :

- ماذا سنفعل إذن!؟

مال الشاب إلى الأمام ، وأجاب فى حزم :

- نهاجم .

صدم جوابه الموجودين جميعاً ، وثار عليه الأمريكيون فى غضب عنيف ، إلا أنه حافظ على هدوئه الشديد ، وانتظر حتى أفرغوا كل ثورتهم فى وجهه ، ثم بدأ يشرح فكرته ..

وهنا ، صمتوا جميعاً ..

فعلى الرغم من أن خطته قد بدت مجنونة تماماً ، إلا أنها نجحت فى جذب اهتمامهم وانتباههم ..

والأهم ، أنها كانت ممكنة التطبيق ..

على الرغم من خطورتها ، التى تقترب من حافة الانتحار ..

ولكن الهدف كان شديد الحساسية والخطورة ، والوقت يمضى بسرعة لا يتصورها أحد ، والنتائج أخطر من أن يلتهمها تردد أو قلق ..

ثم إن هذا كان الاقتراح الوحيد المقدم ..

لذا ، فقد تم وضع الأمر موضع التنفيذ فوراً ..

وخلال ثمان وأربعين ساعة فحسب ، تمت دراسة الموقف مرة أخرى ، ووضع الخطة كلها ، فى وجود ( فليمنج ) ..

وبعدها ، شنت الطائرات البريطانية غارة عنيفة ، على موقع مصانع ( آى جى .فاين ) ..

ولأول مرة ، فى تاريخ الحروب ، قام رجال الكوماندوز البريطانيون بعملية هبوط بالمظلات ، فى قلب الغارة ..

سنة من البريطانيين ، بينهم أمريكي واحد ، هبطوا على مسافة كيلومتر واحد من المصانع ، وشنوا عليها هجوماً صاعقاً ، قبل حتى أن تتوقف القاذفات الثقيلة عن القصف ..

وكانت أخطر عملية انتحارية ، فى تاريخ الحرب العالمية الثانية ..

أو ربما فى تاريخ الحروب كافة ..

فالذين قاموا بالعملية ، كانوا معرضين للموت ، بنفس القنابل ، التى تنهال على الهدف ..

ولهذا ، كان وقع المفاجأة على الألمان مذهلاً ..

كانوا يختبئون من قصف جوى ، فوجدوا البريطانيين ينقضون عليهم فى مخابئهم ..

وبسرعة مذهشة ، مع عامل المفاجأة الشديد ، سيطر البريطانيون على المكان ..

وبخطة مدروسة بمنتهى الدقة ، انتشر الرجال السبعة فى المصنع الرئيس ، وراحوا يزرعون المتفجرات فى أماكن خاصة ، تم تدريبهم عليها فى سرعة ..

كانت المدة المقترحة للغارة ، هى ثلاث الساعة فقط ، ولقد نجح

الرجال فى زرع متفجراتهم ، والانسحاب بتكنيك مدروس ، قبل الوقت المحدود بدقيقة واحدة ، بعد أن خسروا فرداً واحداً فقط ..

ومع نهاية الغارة ، وانسحاب القاذفات البريطانية الثقيلة ، دوت عدة انفجارات أخرى عنيفة ..

انفجارات نشأت من قلب الجبل ..

من قلب مصنع غاز الموت ..

لم تنسف المتفجرات خزائناً واحداً ، من خزانات المواد الكيماوية ، المستخدمة فى إنتاج ( سارين ) ؛ حتى لا تتسبب فى كارثة بيئية عنيفة ، وإنما نسفت كل أجهزة التصنيع والمعامل ..

وكانت حالة رهيبة من الفوضى والاضطراب ..

حالة استغلها البريطانيون ؛ للاختفاء فى أماكن مختارة مسبقاً ، والاطمئنان إلى نجاح العملية بشكل نهائى ..

وفى ( لندن ) ، عرف ( فليمنج ) النتيجة ..

لقد تم إيقاف مشروع ( سارين ) و ( ف - 3 ) ، لفترة طويلة ..

فترة قد لا تملكها ( ألمانيا ) النازية فعلياً ..

وعلى الرغم من أن الألمان قد تحركوا فى وحشية وجنون ؛

## صفحات من تاريخ الجاسوسية ..

### عملية فنلو

ساد القلق أوروبا كلها ، فى تلك الأيام العصيبة ، من نهايات عام 1938م ، وبدايات 1939م ، ففى تلك الآونة ، كانت كل أجهزة المخابرات الأوروبية ، وبالذات جهاز المخابرات البريطانى ، المعروف باسم ( آى - إم - 6 ) ، تبذل قصارى جهدها ؛ لتحديد أهداف ( هتلر ) الأساسية ، التى تشف عنها خطبه الملتهبة ، وتوعدهاته العصبية ..

وتحت قيادة الأدميرال سير ( هوج سنكلير ) ، راح جهاز المخابرات البريطانى يدس جواسيسه ، فى ( ألمانيا ) و ( أوروبا ) ، لجمع كل المعلومات الممكنة عن نوايا ( هتلر ) وطموحاته ، واستعداداته لشن أية حروب قادمة ..

وجاءت المعلومات مخيفة .. وإلى أقصى حد ..

فالزعيم النازى يعيد بناء آلتة الحربية ، على نحو لم تعرفه أية دولة ، فى ( أوروبا ) كلها ..

دبابات .. طائرات .. مدافع ميدان .. أسلحة خفيفة .. ذخائر ..

بحثاً عن منفذى العملية ، إلا أنهم عجزوا عن هذا تماماً ؛ بسبب تكثيف الهجوم على ( برلين ) ، من الشرق والغرب ..

وبعد فشل السلاح السرى ، توقف ( هتلر ) عن تصريحاته تماماً ، واختبأ فى مخبأ سرى ، فى نفس الوقت الذى حمى فيه المنشقون أفراد الكوماتدوز البريطانيين ، حتى أطبق الحلفاء على ( برلين ) من كل جانب ..

وانتحر ( هتلر ) ؛ ليضع نهاية للرايخ الثالث ، ولأحلام وطموحات ( ألمانيا ) كلها ..

أما سلاحه السرى ، فقد أصبح مجرد تاريخ ، يتحدث عنه العديدون ، دون أن يدركوا أنه كان يحمل يوماً ما اسماً واضحاً ..  
اسم ( سارين ) .

\*\*\*

كل شيء يتم إنتاجه بالمنتجات ، وبأسلوب لا يمكن أن تسعى إليه دولة ، لمجرد الحفاظ على أمن وسلامة حدودها ، بل دولة تستعد لشن حرب .. بل حروب ..

وهنا ، اجتمع ( سنكلير ) برجاله ، وعلى رأسه نائبه ( ستيفورات . ج . فنرز ) ؛ لبحث ودراسة ذلك الموقف المعقد ، والخطير إلى أقصى حد ..

وفي ذلك الاجتماع ، استعرض رجال المخابرات البريطانية كل ما لديهم من معلومات ، وناقشوا كل التفاصيل والاحتمالات ، قبل أن يتراجع ( سنكلير ) في مقعده ، ويقول في حزم :

- باختصار أيها السادة ، نحن في وضع بالغ التوتر والخطورة ، ولو لم نتدخل لفعل شيء ما ، في الوقت المناسب ، فسيشعل ذلك المجنون النار في ( أوروبا ) كلها .. بل وربما في العالم أجمع .

اعتدل نائبه ( فنرز ) وهو يقول في اهتمام :

- السؤال : الآن هو ما الذي يمكن أن نفعله؟! ..

تبادل الكابتن ( س . باين بست ) ، والميجور ( ه . ر . ستيفنز ) نظرة صامتة ، قبل أن يتنحج الأول ، ويرفع يده طالباً الكلمة ، ثم يقول في خفوت :

- أعتقد أن لدينا - ( ستيفنز ) وأنا - حلاً لهذه المعضلة .

سأله ( سنكلير ) في لهفة :

- وما هو؟! ..

استدار ( بست ) ببصره إلى ( ستيفنز ) ، الذي تتنحج أيضاً في توتر ، قبل أن يجيب ، في حزم واقتضاب :

- المنشقون .

و اندفع ( بست ) يشرح الأمر في حماس ، قائلاً :

- كلنا يعلم أن أسلوب ومبادئ الحزب النازي ، لا تلقى قبولاً لدى الجميع ، ولكن أسلوب ( هتلر ) الديكتاتوري الدموي ، يمنع الكل من إبداء اعتراضاتهم ، وخاصة في صفوف الجيش ، لذا فقد كوّن بعض ضباط الجيش الألماني تنظيمًا سرّيًا ، يدبر حاليًا مؤامرة خفية ، للإطاحة بالزعيم ( أدولف هتلر ) وحزبه .

قال ( سنكلير ) ، في حذر أكثر :

- كلنا نعلم هذا ، ولكن ليس لدينا دليل واحد ، على صحة وجود هذه المؤامرة المزعومة ، حتى هذه اللحظة .

تبادل ( بست ) و ( ستيفنز ) نظرة صامتة أخرى ، قبل أن يفرد الأخير قامته على مقعده ، قائلاً بكل الحزم :

- نحن لدينا يا سيدي .

وكانت مفاجأة مذهشة .. للجميع ..

\* \* \*

سرت موجة عنيفة من التوتر ، فى كيان ذلك العميل البريطانى ، الذى لم تفصح الوثائق عن اسمه أبداً ، وهو يعود إلى منزله ، فى قلب (برلين) ، فى الخامسة من مساء ذلك اليوم ، من بدايات يناير 1939م ..

كان ألمانى الملامح ، والجنسية ، والأصل أيضاً ، إلا أنه ، ومنذ صعود الحزب النازى إلى الحكم ، شعر بغصة مؤلمة فى حلقه ، واستبصر مصيراً أسود ينتظر بلاده ، فى ظل ديكتاتورية (أدولف هتلر) ورجاله ؛ لذا فقد قرّر أن يسعى بكل كيانه وقوته ، لمنع حدوث هذا بأى ثمن ، ومن هذا المنطلق ، كان من الطبيعى أن تلتقطه عيون خبراء جهاز المخابرات البريطانى ، وأن تصل إلى (لندن) عدة تقارير بشأنه ، بين عشرات التقارير الخاصة بكل المعارضين لنظام الحكم النازى ، فى (لندن) ، وعلى يدى (سنكلير) ورجاله ، بدأت عملية فرز وتصنيف ودراسة كل التقارير ، الواردة من (برلين) ، وباقى بلدان (ألمانيا) ؛ للبحث عن يمكن إقناعهم ، وتجنيدهم للعمل لحساب المخابرات البريطانىة ، فى قلب النازية ..

ولقد نال ذلك الألمانى اهتمام وتقدير الجميع ، وتم انتخابه للقيام بتلك المهمة ، التى لم يكن يعلم بأمرها ، أو حتى يتصور إمكانية حدوثها .. والمؤسف أن الوثائق ، التى تم الكشف عنها ،

حتى لحظة كتابة هذه السطور ، لم تتضمن اسم ذلك الألمانى ، أو وسيلة تجنيده ، باعتبارها من الأسرار العليا ، التى لن يتم الكشف عنها ، قبل عام 2015م ، أى بعد مرور خمسة وسبعين عاماً ، على نهاية الحرب العالمية الثانية .. ولكن ما يهمنا هنا ، هو أنه قد تم تجنيده بالفعل ، وأنه قد صار واحداً من أفضل عملاء المخابرات البريطانىة ، فى قلب (برلين) ..

ولأن الرجل كان مقتنعاً ، بأن القضاء على (هتلر) ورجاله هو الوسيلة المثلى ، لإيقاف ذلك المد النازى ، الذى يقود بلاده إلى الهاوية ، فقد راح يتعاون مع المخابرات البريطانىة بكل طاقته وحماسه ، وبدأ يجمع المعلومات ، ويرسل التقارير والصور ، على نحو لم ينجح فيه عميل آخر ، فى ذلك الموقع .. وربما إلى هذا تعود أهمية وخطورة ذلك العميل ، ويعود حرص المخابرات البريطانىة على عدم ذكر اسمه ، وتفصيل عملية تجنيده ؛ إذ لم يمض عام واحد ، حتى صار أهم عملاء (لندن) ، فى قلب (برلين) ، ولأن وظيفة الرجل كانت تمنحه نوعاً من الحصانة والثقة ، فى المجتمع النازى ، فقد كان يمارس لعبة الجاسوسية فى هدوء وثقة ، وبنشاط جم ، ويعود كل يوم إلى منزله ، وجيوبه تحمل عشرات الصور والوثائق والمعلومات ، و ... ولكن دوام الحال من المحال ؛ ففى ذلك اليوم ، فى بدايات

يناير 1939م ، شعر ذلك العميل بأن الأمور لا تسير على ما يرام .. هناك حتماً من يراقبه ومن يتبعه ، وهذا لا يمكن أن يعنى سوى أمر واحد فقط لا غير .. لقد انكشف أمره بوسيلة ما ..

وبكل قلق الدنيا ، راح الرجل يحث الخطى ، محاولاً بلوغ أى شارع جانبي؛ ليتخلص من كل ما تحويه جيوبه ، من أوراق وصور ، تكفى لإعدامه فى قلب أكبر ميادين (برلين) ، بلا أدنى شفقة أو رحمة ، وفى كل لحظة تمضى ، كان يوقن أكثر وأكثر من أنه مراقب ومتبوع ... رجلان .. بل ثلاثة رجال ، يسرون خلفه طوال الوقت ، دون أن يحاول أحدهم استيقافه ، ولو لحظة واحدة ، فزاد العميل من سرعته ، واتجه نحو أول شارع جانبي ، وتبخرت مع مبادرته هذه أية ذرة للشك فى أعماقه ، مع زيادة الرجال الثلاثة لسرعتهم خلفه .. إنهم يطاردونه إذن .. وبسرعة ، دلف إلى ذلك الشارع الجانبي ، والتقط كل محتويات جيب معطفه ، و ...

« لن نسمح لك بأن تفعل هذا .. »

اخرقت أذنه تلك العبارة الصارمة القاسية ، مع تلك الأصابع الفولاذية ، التى قبضت على معصمه ؛ لتمنعه من إلقاء ما لديه ، فى نفس اللحظة التى برز فيها رجل ضخم الجثة أمامه ، يتطلع إليه بنظرة وحشية شرسة ، قائلاً بكل خشونة الدنيا :

- لقد انتهى أمرك .

ومع آخر حروف كلماته ، شعر العميل بضربة على مؤخرة رأسه ، غاب بعدها عن الوعي تماماً ..

ووفقاً لتقريره ، لم يدرك كم مضى عليه فاقد الوعي ، ولكنه عندما أفاق ، وجد نفسه مقيداً بإحكام إلى مقعد ثقيل ، داخل قبو رطب ، مضاء بمصباح واحد باهت ، وجدرانه ملوثة ببقع داكنة ، افترض على الفور أنها بقع من الدم ، فى حين يجلس رجل واحد ، فى ركن القبو ، وقد أولاه ظهره ، وعلى الرغم من هذا ، فلم يكذب يفتح عينيه ، حتى فوجئ بالرجل يلتفت إليه ، ويصيح فى خشونة فظة :

- لقد استعاد وعيه .

ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى هبّ من مقعده فجأة ، وضرب الأرض بقدمه فى قوة ، ويده ترتفع أمامه ، صائحاً :

- هايل ( هتلر ) .

وعندئذ ، أدرك العميل أن ضابطاً من الضباط الكبار قد وصل إلى المكان ، فرفع عينيه يتطلع إلى ذلك الزى الرسمى ، الذى ملأ بصره كله ، قبل أن يتطلع إلى وجه الضابط ( شلنبرج ) مباشرة ..

ومنذ اللحظة ، التي التفت فيها عيونهما ، ولسبب لم يفهمه قط ، ولم يستطع حتى شرحه في تقريره ، أدرك العميل أن (شلنبرج) هذا سيكون له دور كبير ، في المرحلة القادمة ، والعجيب أنه كان على حق في شعوره هذا ، إلى حد مذهل ...

« اتركنا وحدنا .. »

انطلق صوت (شلنبرج) بذلك الأمر الصارم ، الذي استقبله الرجل بتحية عسكرية قوية ، وأسرع ينفذه دون أدنى اعتراض أو مناقشة ، حتى أصبح الضابط النازي الوسيم وحده في القبو ، يتطلع في صمت صارم ، إلى العميل ، الذي سرت في جسده قشعريرة باردة كالثلج ، وحاول أن يقول شيئاً ، أى شيء ، ولكن لسانه انعقد في حلقه ، فلم يستطع النطق بحرف واحد ، حتى سأله (شلنبرج) فجأة :

- أنت تعمل لحساب البريطانيين .. أليس كذلك !؟

حدق العميل فيه طويلاً في صمت ، وقد امتلأت نفسه برهبة عجيبة ، جعلته غير قادر على التفوه بحرف واحد ، فجذب (شلنبرج) مقعداً ، كما فعل الضخم من قبل ، وجلس على مسافة متر واحد منه ، وتطلع إلى عيني العميل مباشرة ، وهو يقول :  
بنفس الصرامة ، التي بدت وكأنها جزء من شخصيته :

- اسمعنى جيداً يا هذا .. ما لدى نحوك ليس مجرد شكوك ، أو حتى افتراضات واستنتاجات .. لقد كشفت أمر علاقتك بالبريطانيين ، منذ ستة أشهر كاملة ، وقمت بمراقبتك شخصياً ، وعلى مسئوليتي الخاصة ، ورأيتك تلتقي برجالهم ، وتحصل على الأسرار والوثائق والمعلومات والصور من أجلهم ، وعلى الرغم من هذا فقد واصلت مراقبتك بنفسى ، حتى زالت من أعماق كل ذرة من الشك ، وهنا .. هنا فقط ، اتخذت قرارى باعتقالك ، إياك أن تحاول النفي أو الإنكار .. قلت لك : إننى قد راقبتك بنفسى ؛ لم أشأ أن يعلم هؤلاء الأوغاد بأمرك .. أوغاد النازية .

صعقت العبارة العميل ، فحدق فيه بكل ذهوله ، دون أن يخطر بباله لحظة واحدة أنه يشهد مولد أخطر عملية مخابرات ، فى تاريخ الحرب العالمية الثانية ... وبكل ذهوله ، هز رأسه ، وكأنما يحاول إيقاظ نفسه مما يسمعه ، لو أنه مجرد حلم ، وعاد يحدق فى (شلنبرج) ، الذى يقدم له عرضاً يستحيل رفضه ، فلقد اقترب منه ، ومال نحوه ، وتطلع إلى عينيهِ مباشرة ، حتى خيل للرجل أنه قد اخترق كيانه حتى النخاع ، وهو يقول بمنتهى الصرامة :

- أريد موعداً مع رجال المخابرات البريطانية .

وكانت مفاجأة للعميل .. مفاجأة مذهلة .



وفي نهار أحد أيام أوائل (فبراير) ، عام 1939م ، وعلى الرغم مما بدا عليه مبنى جهاز المخابرات البريطانية (إم - أي - 6) ، من هدوء وصمت ، في تلك الساعة ، إلا أن إحدى حجراته كانت تشهد نشاطاً مكثفاً ، ومناقشات حامية متصلة ، منذ غروب شمس اليوم السابق ، فبمنتهى الدقة ، راح مدير المخابرات آنذاك ( هوج سنكلير ) ، يراجع مع نائبه ( فنرز ) ، ورجليه ( بست ) و ( ستيفنز ) تفاصيل ذلك العرض المدهش ، الذي عاد به عميلهم الألماني ، من قلب ( برلين ) ، ويدرسون كل الاحتمالات ، وكل الملابس ، بما فيها احتمالات الخداع والتحايل ، وخاصة بعد أن أعلنهم ( شلنبرج ) بأنه أحد المنشقين عن النظام النازي ، في قلب جهاز مخابراته الرهيب ، حتى قال ( سنكلير ) في حزم :

- إننا أمام احتمالين ، لا ثالث لهما ، فإما أن نكون أمام أكبر خدعة في عالم المخابرات ، أو أمام أكبر فرصة في التاريخ ؛ لمساندة نظام مناوئ للحكم النازي ، ولست أنوى إضاعة الفرصة أبداً .

ثم التفت إلى ( بست ) و ( ستيفنز ) ، مستطرداً :

- فليكن .. ضعا خطة حذرة ، وابدأ الاتصال .. فوراً ..

وكانت هذه هي البداية ..

\*\*\*

تطوّرت الأمور بسرعة ، في الأشهر القليلة التالية ، على نحو مخيف ، جعل الاتصال بالميجور الألماني ( شلنبرج ) ، ومجموعته من المنشقين العسكريين ، أمراً حتمياً لا يقبل الجدل ، أو حتى التأجيل لحظة واحدة .

ففجأة بدأ الفوهرر الألماني ( أدولف هتلر ) ، في تنفيذ مخططاته الاستعمارية التوسعية ؛ لمد نفوذ ( ألمانيا ) النازية ، إلى ( أوروبا ) كلها ، لم يكن هذا مفاجئاً للجميع في حد ذاته ، إلا أن البداية جاءت دون أن يتوقعها أحد بحجة استعادة ( ألمانيا ) لما فقدته في الحرب العالمية الأولى ، بسبب معاهدة ( فرساي ) للاستسلام ..

وعلى الرغم من وضوح الصورة وقوتها ، التزمت معظم بلدان ( أوروبا ) بالحذر ، ورفضت إعلان الحرب على ( ألمانيا ) ، ما لم تحتم الظروف هذا ..

ولقد التقى ( بست ) و ( ستيفنز ) بالميجور ( فالتر شلنبرج ) شخصياً ، في مدينة ( برن ) السويسرية المحايدة ، وقضيا معه بعض الوقت ، الذي انتهى باقتناعهما به ، وبحماسه الشديد ، في مقاومة النظام النازي ، وبذل أقصى جهد لإسقاطه ..

وبخطوط بسيطة ، ودون الدخول في التفاصيل ، شرح لهما ( شلنبرج ) أسلوب تنظيم المجموعة ، وقدراتها ، واحتياجاتها ، مؤكداً

إن كل ما يطلبونه هو بعض الدعم المادي ، مع وعد من البريطانيين بعدم استغلال ضعف (ألمانيا) ، خلال فترة إسقاط النظام النازي ، للانتفاض عليها واحتلالها ..

ومن (برن) ، عاد (شلنبرج) إلى (برلين) ، في حين اتجه (بست) و(ستيفنز) مباشرة إلى (لندن) ، دون أن يدركا أن ما حملاه معهما سيقلب الأمور كلها رأساً على عقب .. وبمنتهى العنف .

\*\*\*

\* من الأمور التي يجهلها العديدون ، أن عمل أجهزة المخابرات ليس عسكرياً بالدرجة الأولى ، ولكنه يعد أحد أعمال السيادة والسياسة ، ليس لوسائله ، ولكن لنتائجها ، التي هي في نهايتها نتائج سياسية محضة ، مهما اتخذت من صور وسيطة ، خلال مرحلة التنفيذ ؛ ولهذا السبب ، كان من الطبيعي أن يحمل مدير المخابرات البريطانية (هوج سنكلير) تقارير (بست) و(ستيفنز) ؛ ليضعها كلها أمام رئيس الوزراء البريطاني آنذاك (نفييل تشامبرلين) ..

وفي ظروف أوروبية مشتتة كهذه ، كان من الطبيعي أن يلغى رئيس الوزراء البريطاني كل مواعيده ، وأن يجتمع طويلاً بالأدميرال (سنكلير) ؛ ويستمع إلى كل التفاصيل ، ويقرأ بنفسه

كل التقارير ، قبل أن يتراجع في مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يتطلع طويلاً إلى (سنكلير) ، في صمت وتفكير عميقين ، ثم يعتدل فجأة ، قائلاً في حزم :

- فليكن يا سير (سنكلير) .. سنمسك العصا من منتصفها كما يقولون .. سنبقى على خط الاتصالات ، بيننا وبين (شلنبرج) ومجموعته ، ولكننا لن نمنحهم التمويل الكافي في الوقت الحالي ، في حين سنواصل مباحثاتنا السياسية مع الحكومة النازية ، حرصاً على حسن سير الأمور ، ولكن تذكر يا سير (سنكلير) .. حتى يصدر أمر واضح مباشر ، بالاتصال بالمنشقين العسكريين الألمان ، وتمويلهم ، لن تكون لنا صلة رسمية بما يحدث .

ومنذ اتخذ رئيس الوزراء البريطاني قراره ، بإمساك العصا من منتصفها ، بدأت عملية الاتصال بالمنشقين العسكريين الألمان تتخذ مساراً مميّزاً إلى حد ما ، على الرغم من تواصل الاتصال بالضابط الألماني (شلنبرج) ، الذي شكوا أكثر من مرة ، من ضعف التمويل ، وإضاعة الوقت في روتينيات بيروقراطية معقدة ، دون القيام بإجراءات حاسمة ، أو اتخاذ قرارات حازمة ..

وعلى الرغم من استمرار (بست) و(ستيفنز) في عملهما ، ومن التقائهما بالألماني (شلنبرج) مرتين أخريين ، خلال الفترة من أوائل مارس ، وحتى أوائل سبتمبر 1939م ، إلا أنهما قد فقدتا

الحماس للعملية إلى حد ما ، خاصة وأن شيئاً ما فى ( شلنبرج ) لم يكن يروق للميجور ( ستيفنز ) ، على عكس زميله ( بست ) ، الذى كان يرى أن ذلك الألمانى نموذج مثال لأى رجل مخابرات ، أياً كانت هويته ، فهو رياضى ، ممشوق القوام ، هادئ الحديث ، يطلّ الذكاء من عينيه فى وضوح ، ويتروى ليفكر جيداً ، قبل أن يدلى بأى رأى .. ولكن اختلافهما هذا كان محصوراً بينهما فحسب ، فلم تتضمنه تقاريرهما الرسمية ، أو يبلغا به رؤساءهما ، الذين استشفوا الأمر من أسلوبهما فى الحديث عن ( شلنبرج ) ، كما أشار نائب مدير المخابرات ( فنرز ) ، فى أحد تقاريره السرية ، التى لم تُنشر إلا بعد سنوات طوال ..

ثم فجأة ، تطوّرت الحرب ، وتطوّرت معها كل الأمور .. ففى أغسطس 1939م ، عقد ( هتلر ) مع الاتحاد السوفيتى ميثاق عدم الاعتداء ، وأصبح حراً فى قطع مفاوضاته مع دول ( أوروبا ) ، ثم هاجم ( بولندا ) ، فى الأوّل من سبتمبر ، مما دفع ( إنجلترا ) ، وغالبية دول الكومنولث ، و( فرنسا ) إلى إعلان الحرب على ( ألمانيا ) رسمياً ، فى الثالث من سبتمبر ..

ومع إعلان الحرب ، تم استدعاء ( هوج سنكلير ) لمقابلة رئيس الوزراء ( تشامبرلين ) فوراً ، ودون إضاعة لحظة واحدة ..

وفور دخول ( سنكلير ) إلى مكتب ( تشامبرلين ) ، بادره هذا الأخير فى حماس وحزم ، بأن الاتصال بأولئك المنشقين الألمان صار أمراً حيويّاً للغاية ، ثم أصدر أوامره ببدء العملية فوراً ..

ومع صدور قرار رئيس الوزراء البريطانى ، بتنشيط وإحياء عملية الاتصال المباشر ، مع ( شلنبرج ) ورجاله ، عاد النشاط والحماس يدبان فى نفسى الكابتن ( بست ) والميجور ( ستيفنز ) مرة أخرى ..

وبعد اجتماع دام ثلاث ساعات متصلة ، بين ( سنكلير ) و( فنرز ) ، ورجلى المخابرات ، تقررّ الاتصال بالألمانى ، وإبلاغه بتطوّر الموقف ، وبضرورة عقد لقاء مباشر ، فى أقرب فرصة ممكنة ؛ لتحديد خطوات المرحلة القادمة ، وتقديم كل التسهيلات والخدمات ، ووسائل التمويل الممكنة ، وهنا اقترح ( بست ) ألا يتمّ لقاء ( شلنبرج ) وحده ، وإنما الإصرار على مقابلة بعض الضباط ، المشاركين معه فى تلك الخلية المنشقة؛ كضمان لصدق مزاعمه قبل التعامل معه بهذا الانفتاح ..

ولقد وافقوا جميعاً على هذا الاقتراح ، دون استثناء واحد ، ولكن مع تحفظ ( فنرز ) ..

وعن طريق عميل ألمانى آخر ، تمّ إبلاغ ( شلنبرج ) بالأمر ، وبأهمية الوقت البالغة هذه المرة ..

وفي الأول من نوفمبر 1939م ، وصلت إلى المخابرات البريطانية رسالة من ( شلنبرج ) ، بخطه وتوقيعه ، والكود السري المتفق عليه ، للتأكد من صحة الرسالة ، مع تحديد موعد للقاء بالمجموعة القيادية للضباط المنشقين ، في الثامن من نوفمبر عند النقطة الحدودية ، الموجودة في بلدة ( فنلو ) الهولندية ، على مسافة أمتار قليلة ، من الحدود الألمانية ...

وكالمعتب ، كانت الرسالة ، المكتوبة بشفرة خاصة ، تحدد وسيلة التعارف ، والإشارة السرية ، ومكان اللقاء بالتحديد ..

وفي هذه المرة ، كان الاجتماع طويلاً .. طويلاً للغاية ؛ فلقد استغرق أربع عشرة ساعة كاملة ، أعاد خلالها رجال المخابرات البريطانيون مراجعة وفحص وتقييم كل سطر ، وكل كلمة ، بل وكل حرف ، في تقارير ( بست ) و ( ستيفنز ) ، مع إعادة دراسة الموقف كله ، بمنتهى الدقة والحذر ، وعاد احتمال الخداع يطرح ، ولكن حدوث المقابلة على أرض هولندية محايدة ، جعل الاحتمال ضعيفاً ، ثم إن رئيس الوزراء أصدر أمراً بتنفيذ العملية ، ولم تعد هناك أية إمكانيات للتراجع .

لا بد وأن تتم عملية ( فنلو ) ... وفوراً ..

\*\*\*

انطلقت زفرة ملتهبة كالحمم ، من صدر ( ستيفنز ) ، وهو يتطلع عبر زجاج السيارة الصغيرة ، إلى الجزء الواضح من الطريق ، الذي يقود إلى تلك النقطة الحدودية الهولندية ، في بلدة ( فنلو ) الصغيرة ، عند الحدود الألمانية ، في ليلة الثامن من نوفمبر عام 1939م ، قبل أن يتراجع في مقعده ، محاولاً إجبار نفسه على الاسترخاء ، على الرغم من توتر الموقف ، ولكنه لم يكذب قط ، حتى لاح ضوء مصباحي سيارة من بعيد ، أضيئنا وانطفأ مرتين متعاقبتين ، فاعتدل الأثنان في مقعديهما ، وقال ( بست ) في انفعال :

- لقد وصل .

نطقها ، على الرغم من أنه كان يشعر في أعماقه بقلق مبهم .. قلق عجيب ، جعله يشعر أن هذا اللقاء بالذات ، سيختلف عن كل ما سبقه ، وستكون له نتائج خطيرة .. خطيرة للغاية .

وعلى الرغم من أن عقارب الساعة لم تتحرك لدقيقة واحدة ، بعد الإشارة المتفق عليها ، إلا أن تلك الثواني قد بدت أشبه بدهر كامل ، بالنسبة لضابطي المخابرات البريطانيين ، اللذين شملهما صمت ثقيل مهيب ، وهما يحدقان في الظلام ، في انتظار وصول ( شلنبرج ) ومجموعته ، في أية لحظة ، والكوخ الخشبي لنقطة الحدود الهولندية يبدو لهما واضحاً ، من مكنهما هذا ، بكل ما نال حراسه من تعب وملل ، و ...

وفجأة ، انقضت سيارة ألمانية الصنع على الكوخ ، لتطمه مع حاجز الحدود تمامًا ، وتتحطم معه أيضًا ، وفي لحظة واحدة ، وبتناسق مذهل ، وثب أربعة رجال من السيارة ، وراحوا يطلقون النار على حرس الحدود الهولنديين ، بغزارة وشراسة لا حدود لهما ، وخاصة بالنسبة لبلد محايد مثل ( هولندا ) ..

وكمحترفين ، سحب ( بست ) و ( ستيفنز ) مسدسيهما ، ودفع كلاهما باب السيارة المجاور له ، واندفعا محاولين التدخل ، أو حماية نفسيهما على الأقل .. ولكن فجأة ، وجدا كومة من فوهات المدافع الآلية في وجهيهما ، مع هتاف صارم ، يقول بالألمانية ، دون أية محاولة للترجمة :

- حركة واحدة ، ونسفكما بلا رحمة .

ولم يكن هناك سبيل للمقاومة ، أو حتى للتكفير فيها ، مع ذلك الفارق الملحوظ ، في العدد والسلاح ؛ لذا فقد استسلم رجلا المخابرات البريطانية ، وألقيا سلاحهما أرضًا ، وفي لحظة واحدة ، انشقت الأرض عن سيارة ألمانية أخرى ، دفع المسلحون رجلى المخابرات البريطانية داخلها ، لتنتقل بهما ، تحت حراسة مشددة ، عبر الحدود الألمانية ، وانعقد لسانا البريطانيين تمامًا ، وخفضت قلوبهم في عنف ، عندما عبرت بهما السيارة حاجز الحدود المحطم بالفعل ، وانطلقت نحو آخر مكان يتمنيان الذهاب إليه ، في تلك الآونة .. نحو ( برلين ) ..

وعلى الرغم من أن المسافة ، التي تفصل الحدود الهولندية عن ( برلين ) ، ليست بالبسيطة ، فقد كانت أوامر الفوهرل تحتم وصول ضابطي المخابرات البريطانيين إلى العاصمة ، في أسرع وقت ممكن ، بعد وقوعهما في قبضة رجاله ؛ لذا فما إن تجاوزت السيارة الألمانية الحدود بأسيريتها ، حتى كانت في انتظارها طائرة خاصة ، ثم نقل ( بست ) و ( ستيفنز ) إليها معصوبي الأعين ، ومقيدي المعصمين خلف ظهريهما في إحكام ، لتقلع الطائرة فورًا ، في اتجاه ( برلين ) .. ومع هبوطها هناك ، حملت سيارة خاصة ، محاطة بحراسة مكثفة ، على نحو مبالغ ، ضابطي المخابرات البريطانيين إلى سجن خاص ، في قلب بيت الثعالب نفسه .. وهناك ، وسط رجال ( الجستابو ) وجهاز ( إس دي ) ، أدرك ( بست ) و ( ستيفنز ) أنهما قد سقطا في قبضة العدو ، وأن مصيرهما سيكون رهيبًا .. حتمًا .. قبل حتى أن يسمعا صوتًا ، يقول في صرامة قاسية :

- ارفعوا العصابات عن عيونهما .

ومع قوله ، رفع بعضهم العصابات السوداء عن عيون ( بست ) و ( ستيفنز ) ، ولثوان ، بهرهما الضوء ، فأغلقا عيونهما قليلًا ، ثم فتحاها ، لتتسعا عن آخرهما ، وهما يحدقان في ذلك الضابط النازي ، الذي وقف أمامهما في زهو ظافر ، وهو يقول :

- مرحبًا بكما في أرضنا .

فذلك الضابط كان ( شلنبرج ) .. الميجور ( فالتر شلنبرج ) ..  
شخصيًا ..

\* \* \*

امتقع وجه رئيس الوزراء البريطانى ( نفييل تشامبرلين ) ،  
واتسعت عيناه عن آخرهما ، بكل زعر وارتياح الدنيا ، وهو  
يُحدِّق فى وجه سير ( هوج سنكلير ) ، مدير المخابرات البريطانية ،  
هاتفًا بصوت مرتجف :

- اختطفوهما !؟

أوما ( سنكلير ) برأسه إيجابًا فى مرارة ، وهو يقول :

- نعم يا سيادة رئيس الوزراء .. المخابرات الألمانية خدعتنا ،  
من خلال ضابطها ( شلنبرج ) ، وتعاملت معنا بحنكة ومهارة  
وصبر ، طوال عشرة أشهر كاملة ، وبعبقرية مذهشة ، جعلتهم  
يوقعون برجلينا فى النهاية .

عضَّ رئيس الوزراء شفته السفلى ، وهو يهزُّ رأسه ، قائلاً :

- بل يوقعون بنا نحن يا رجل .. إنها فضيحة .. مضيية ..  
كارثة ، لن تمضى بسلام أبدًا .. اثنان من كبار ضباط مخابراتنا ،

يسقطان فى قبضة الألمان ، بهذه السذاجة المدهشة .. يا للكارثة ! ..  
كل أسرارنا أصبحت فى يد العدو .

وسقط مدير المخابرات البريطانى .. بعنف ..

ولأول مرة فى حياته ، منذ التحق بالمخابرات البريطانية ، تم  
استدعاء ( ستيوارت ج . فنرز ) ، إلى مكتب رئيس الوزراء  
شخصيًا ، الذى سأله فور دخوله :

- ما مدى سوء الموقف فى رأيك !؟

مطَّ ( فنرز ) شفثيه ، وهزَّ رأسه ، قائلاً :

- الموقف بلغ أقصى درجات السوء ، يا سيادة رئيس الوزراء ؛  
فسقوط عميل للمخابرات ، تم تدريبه على نحو جيد ، يعدَّ خسارة  
كبيرة لأى جهاز ، أما سقوط ضابط مخابرات ، فى قبضة جهاز  
معاد ، فهو كارثة كبرى ، بكل المقاييس .

أعاد الجواب ( تشامبرلين ) إلى شحوبه وامتقاعه ، فبقى على  
مقعده صامتًا كالحجر لفترة طويلة ، قبل أن يتساءل ، بصوت  
سمعه ( فنرز ) بالكاد :

- هل تقترح شيئًا ، لتفادى الانهيار الكامل !؟

أجابه ( فنرز ) فى سرعة ، وكأنه كان ينتظر السؤال ويتوقَّعه :

- بالتأكيد .. لا بد وأن ننسى أمر ( بست ) و ( ستيفنز ) ، وكل ما لديهما من معلومات ، وأن نعيد بناء وتنظيم كل شيء على نحو جديد ، بحيث لا تعود لمعلومات النازيين عن نظمنا أية قيمة .. سنغير وسائلنا ، وأقسامنا ، وأسلوب تعاملنا مع المعلومات ، وكذلك أسلوب تعامل رجال المخابرات معها .. كل ضابط سيعرف ما يخصه منها فقط ، من الآن فصاعداً ، ولا أحد سيطالع عمليات الآخرين ، إلا للضرورة القصوى؛ لتفادي حدوث أية كوارث مماثلة مستقبلاً وأسماء عملائنا أنفسهم ستوضع فى خزانة خاصة ، فى مكتب مدير الجهاز وحده ، بحيث لا يعرف الضباط سوى الأسماء الكودية وحدها ، وسنعمل فوراً على تجنيد عدد جديد من العملاء ، فى مختلف بلدان ( أوروبا ) ، و ...

قاطع ( تشامبرلين ) ، وهو يعتدل ، ويلتقط ورقة معدة مسبقاً أمامه قائلاً :

- هذا يكفى .. ستتولى أمر جهاز المخابرات البريطانى ، حتى يشفى ( سنكلير ) من مرضه ، أو ... أو تتغير الأمور ..

وبلهفة حقيقية ، التقط ( فنرز ) القرار ، قائلاً :

- أعدك بألا أخذك أبداً ، يا سيادة رئيس الوزراء ..

ولقد كان ( فنرز ) صادقاً للغاية ، فى عبارته الأخيرة هذه ؛ فقد

بدأ عملية الإصلاح الهيكلى لجهاز المخابرات البريطانى ( إم - آى - 6 ) ، فور وصوله إلى مكتبه ، كرئيس مؤقت للجهاز ..

وفى الرابع والعشرين من نوفمبر ، توفى ( سنكلير ) ، متأثراً بتلك الهزيمة البشعة ، التى اختتم بها ملفه ، وأصبح ( ستوراج فنرز ) هو الرئيس الفعلى للمخابرات البريطانية .

وفى الوقت ذاته ، كان الكابتن ( س . باين بست ) ، والميجور ( ه . ر . ستيفنز ) ، قد اتھارا من وطأة التعذيب الوحشى الرهيب ، الذى تعرضا له ، على يد ( شلنبرج ) الهادئ الوسيم ، وطاقم خبراء جهاز ( إس - دى ) ، وراحا يدلّيان بما لديهما من معلومات ، ويبوحان بكل ما فى جعبتهما من معارف وأسرار .. وكان لديهما الكثير بالفعل .. والكثير جداً ..

ولقد أدى ما حصل عليه الألمان ، عبر خدعتهم هذه ، إلى القضاء على معظم أفراد شبكة جاسوسية ( إم - آى - 6 ) ، فى ( أوروبا ) كلها ، وقد كشف ضابطا المخابرات البريطانىة أيضاً عن عملاء بلجيكيين وهولنديين ..

وفى بيان أدلى به ( هنريش هملر )؛ لتبرير احتلال ( ألمانيا ) لدولتى ( هولندا ) و ( بلجيكا ) ، فى مايو 1940 ، استخدم رئيس جهاز ( إس - دى ) تلك المعلومات ، التى تم انتزاعها من رجلى المخابرات البريطانىين ، لتأكيد كلماته وقوته ..

## في العمق ..

على الرغم من الحرب الطاحنة ، التي تدور رحاها في ( أوروبا ) كلها ، وجيوش النازي تكتسح كل ما أمامها بلا رحمة ، ظلت ( سويسرا ) هادئة ، آمنة ، محايدة كعادتها ، في تلك الفترة الحرجة ، في أربعينات القرن العشرين ..

وعلى أرضها ، تعايش الخصوم ، بصورة رسمية شرعية ، دون قتال أو تناحر ، احتراماً للمبدأ المحايد ، الذي انتهجته ( سويسرا ) ، عبر تاريخها الطويل ، حتى إنها كانت المكان الوحيد في العالم تقريباً ، الذي يمكن أن يجلس فيه ديبلوماسي ألماني ، مع آخر إنجليزي ، على مقهى واحد ، دون أن يلفت هذا انتباه أحد ..

هذا على السطح فحسب ..

أما في العمق ، فقد كانت الصورة تختلف تماماً .. فعلى نحو غير رسمي ، كانت ( سويسرا ) تزخر بجواسيس الطرفين ، وبمحاولات لا حصر لها ، لكشف الأسرار في الجانبين ، وتجنيد كل من يمكن تجنيده في المعسكرين ..

ثم إن وجود خط سكك حديدية مباشر ، يربط بين ( سويسرا ) و ( ألمانيا ) ، كان يغري الإنجليز دوماً ، بمحاولة دفع بعض

وفي الوقت ذاته ، أعلنت ( ألمانيا ) للعالم كله ، أن المخابرات البريطانية قد تأمرت لقتل ( هتلر ) ، وأنه قد نجا من الحملة بأعجوبة ..

ولقد تمت مكافأة ( شلنبرج ) بسخاء ، ومنحه ( هتلر ) بنفسه الصليب الحديدي ، من الطبقة الأولى ، وهو أعلى وسام للشجاعة ، في ( ألمانيا ) كلها ، تقديراً لدوره في عملية ( فنلو ) ، مما رشحه فيما بعد للقيام بعملية لاخطاف دوق ( وندسور ) ، في عملية مذهشة أخرى ، ربما يتم نشر وقائعها ، في القريب العاجل جداً ..

أما ( تشمبرلين ) ، فقد حطمته تلك العملية تماماً ، وبخاصة لما تسببت فيه من خسائر حربية فادحة ، وهزائم متوالية ، أجبرته على الاستقالة ، وإفساح الطريق أمام منافسة ( وينستون تشرشل ) ، الذي اعتلى كرسي رئاسة الوزراء ، مؤيداً تلك التغييرات الجذرية ، التي أجراها ( فنرز ) ، ومصرراً على التصدي للخطر النازي ، حتى أسقطه في عام 1945م ..

ولكن حتى هزيمة ( ألمانيا ) ، وخسارتها للحرب العالمية الثانية ، لم تنجح في محو ما قام به جهاز مخابراتها ، مع الأشهر الأولى للحرب ، ليحفر اسمه في تاريخ عالم المخابرات إلى الأبد ، بتلك العملية التي قلبت الدنيا كلها رأساً على عقب ..

عملية ( فنلو ) .

\*\*\*



عيونهم وجواسيسهم ، إلى قلب المعسكر النازي ، لجمع المعلومات من الداخل ..

في عمق العدو ..

وكانت معظم هذه المحاولات تبوء بالفشل الذريع ..

بعضها بسبب الرقابة الصارمة ، ووسائل التفتيش الدقيقة ، التي يتبعها الألمان عند حدودهم ، والبعض الآخر يتم كشفه داخل الأراضي الألمانية نفسها ، مع أي خطأ بسيط ، أو في أثناء عمليات الفحص الدورية ..

لذا فقد كان الشغل الشاغل للإنجليز هو البحث عن وسيلة مضمونة ، لزرع جاسوس في العمق الاستراتيجي النازي ، لتعويض النقص في البيانات والمعلومات الدقيقة ، ومعرفة نيات وأهداف العدو ، قبل أن يضعها موضع التنفيذ ..

وتوالى المحاولات ..

وتوالى الفشل ..

ومع انتصارات الألمان المتلاحقة ، وغاراتهم العنيفة على (لندن) ، تضاغت أهمية زرع عميل في العمق ، وصار من المحتم أن يجد الإنجليز وسيلة لهذا ، مهما كان الثمن .

و ...

فجأة ، ودون مقدمات ، أتاهم حل عجيب ، على طبق من فضة ..

كان صباحاً لم تشرق فيه الشمس ، وانهمرت فيه الأمطار غزيرة ، على مدينة (برن) السويسرية ، عندما ارتفع رنين الهاتف ، في مكتب مستر (جورج كاهل) ، القائم بالأعمال البريطانية ، فالتقطت سكرتيرته السماعة بحركة آلية ، قائلة بلهجتها الإنجليزية الحازمة :

- من المتحدث؟!!

بدا عليها الاهتمام بعض الوقت ، مما جذب انتباه مستر (كاهل) ، الذي لاحظ حالة الدهشة ، التي أعقبت اهتمامها ، فأشار بيده يتساءل عن المتحدث ، وسمعها تقول في توتر ، وهي تضع يدها على مسماع الهاتف :

- شخص يتحدث الإنجليزية بلكنة ألمانية ، ويصر على التحدث معك شخصياً .

غمغم الرجل في حيرة قلقة :

- بلكنة ألمانية؟!!

ثم مد يده ، والتقط منها سماعة الهاتف ، وقال في هدوء بارد :

- (جورج كاهل) .. من المتحدث؟!!

أتاه ذلك الصوت ، الذي وصفته سكرتيرته بدقة ، وهو يقول  
في هدوء عجيب :

- اسمعني جيدًا يا مستر ( كاهل ) .. أنا ألماني ، كما ولا بد أنك  
قد أدركت من لهجتي ، ولكنني لست نازيًا على الإطلاق ، وإن  
كنت أحتل منصبًا مهمًا ، داخل القيادة الألمانية .

كانت تلك المعلومات القليلة السريعة ، بالغة الأهمية والخطورة ،  
حتى إن حاجبي مستر ( كاهل ) قد انعقدا عن آخرهما ووثب حذر  
غريزي إلى عقله ، وانسكب مع صوته وكلماته ، وهو يقول :

- وما شأنى أنا بهذا !؟

ظل صوت الألماني هادئًا للغاية ، وهو يقول :

- دعك من هذه اللعبة المضحكة يا مستر ( كاهل ) ، فأنا أعلم ،  
بحكم منصبى ، إنك على اتصال مباشر بمكتب المخابرات البريطانية  
السرى فى ( سويسرا ) .

معلومة أخرى مباغتة ، جعلت قشعريرة باردة تسرى فى جسد  
( كاهل ) ، قبل أن يستعيد صرامته ، قائلاً :

- فلنفترض أن هذا صحيح .. ما الذى تريده منى بالضبط !؟

فى هذه المرة ، كانت المفاجأة أكثر مما يحتمل مستر ( كاهل ) ،  
حتى إنه هتف فى انفعال :

- تلتقى بمن !؟

تجاهل الألماني السؤال تمامًا ، وهو يقول فى حزم صارم :

- سأصل مرة ثانية ، فى تمام التاسعة مساء .. وتذكروا جيدًا ..  
سأعود إلى ( برلين ) فى السابعة والنصف من صباح الغد ..  
إنها فرصتكم الأخيرة .

لم يكد ( كاهل ) ينهى الاتصال مع ذلك الألماني المجهول ، حتى  
أسرع بجرى اتصاله بمكتب المخابرات البريطانية السرى فى  
( برن ) ..

ولم يمض نصف الساعة ، حتى كان رجل المخابرات البريطانى  
( توماس مان ) ، مع فريق من رجاله فى مكتبه ، يسألونه فى  
اهتمام بالغ عن مضمون الحديث الهاتفى ، ويستمعون إليه فى صبر ،  
وهو يعيده مرة ، وثانية .. وثالثة ..

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشر ظهرًا ؛ لذا فقد  
اجتمع الرجال فى مكتب ( كاهل ) ، لدراسة مغزى ذلك الاتصال  
الهاتفى ، قبل أن يتراجع ( توماس ) فى مقعده ، ويقول فى حزم :

- هناك احتمالان ، لا ثالث لهما .. إما أن ذلك الألماني سيطلب  
اللجوء السياسى إلينا ، نظير ما يحمله من معلومات ، عن  
القيادة العسكرية النازية ، أو ...

صمت لحظة ، ثم مال إلى الأمام ، وأضاف بمنتهى الصراحة :

- أو أنه يعرض التعاون المستقبلي معنا .

تبادل الرجل نظرة صامتة ، قبل أن يقول أحدهم :

- الاحتمالان مفيدان لنا ، ولكنني أتمنى صحة الاحتمال الثاني .

غمغم ( توماس ) :

- كلنا هذا الرجل .

ثم استعاد حزمه ، وصرامته ، وهو يتابع :

- ولكن المهم أن نعرف أولاً من هذا الرجل ، وما موقعه في

القيادة النازية ، وكيف بلغ ذلك الموقع ، دون أن يكون نازياً

حتى النخاع !؟

قال رجل آخر :

- كل نظام به عدد من المتسلقين ، الذين يمكنهم التظاهر

بالانتماء له ، فقط ليفوزوا بالغانم أو المناصب الكبرى .

تساءل رجل ثالث في قلق :

- وهل يمكن أن نثق في رجل كهذا !؟

أشار ( توماس ) بيده ، قائلاً في صرامة : هذه الأسئلة سابقة

لأوانها .. المهم الآن أن نعرف من ذا الذي نتحدث إليه !؟

قال أحد الرجال : فور اتصاله سوف ..

قاطعة ( توماس ) في صرامة :

- إننا لن ننتظر اتصاله .

ثم نهض من مقعده ، متابعاً في حزم :

- ( برن ) بلدة صغيرة ، وعدد الألمان الذين يزورونها لقضاء

إجازاتهم محدود ، ومازالت أماننا تسع ساعات ، حتى موعد

اتصاله القادم ، ولن نضيع هذه الساعات التسع عبثاً .. هل

تفهمون !؟

كان قوله هذا تكليفاً لرجاله ، بالسعى لمعرفة هوية ذلك

الألماني ، قبل أن تحين لحظة اتصاله التالية ..

ومن المؤكد أن الرجال قد أبلوا بلاءاً حسناً بحق ، ففي تمام

التاسعة ، وعندما أجرى الألماني اتصاله ، التقط ( توماس ) سماعة

الهاتف ، وقال في هدوء ، وهو يدور بمقعده في استرخاء :

- مرحباً يا ( فون داين ) إنني أنتظر مكالمتك .

جاوبه الصمت بضع لحظات ، قبل أن تأتيه ضحكة عصبية ،

قال الألماني بعدها :

- كنت واثقًا من أنكم ستعملون بأقصى طاقتكم ، ولهذا منحتكم تلك الفترة الطويلة ، قبل اتصالي الثاني ، لأتأكد من أن التعاون معكم لن يكون محفوفًا بالخطر .

لم يكذ ( توماس ) يسمع عبارة التعاون معكم هذه ، حتى تفجر بداخله كل الاهتمام ، وإن كنتم هذا عن صوته الهلأئ ، وهو يقول :

- ما الذى تريده بالضبط يا سيد ( فون داين ) ؟!

أجاب الألماني فى سرعة وحزم :

- هذا يحتاج إلى لقاء مباشر .

ومنذ هذه اللحظة ، بدأت الأمور تتحرك بسرعة كبيرة ، أكثر من المعتاد ..

فبترتيبات أمنية مشددة ، واحتياطات على أعلى مستوى ، التقى ( توماس مان ) بالألماني ( رودلف فون داين ) فى منزل آمن ، فى قلب ( برن ) ..

كان الرجل بالفعل موظفًا كبيرًا ، فى قسم المعلومات الخاص ، فى القيادة العسكرية النازية ، وعضوًا فى الحزب النازى ، على الرغم من بغضه الشديد لأسلوب الحكم القهرى الديكتاتورى ، الذى التهم خمسة من أفراد عائلته المقربين ، دون رحمة أو شفقة ..

وبمنتهى الوضوح ، كان يطلب العمل لحساب المخابرات البريطانية ..

فكانت فرصة نادرة للبريطانيين ، لا يمكن تجاوزها أو التغاضى عنها ، ولكن هذا الأسلوب المباشر لا يروق أبدًا لنظم المخابرات ، لما يثيره فى نفسها من الشك والحذر والريبة ..

ولقد أكد ( فون داين ) أنه ليس خائنًا لوطنه ( ألمانيا ) وإنما يسعى لهزيمة النظام النازى ، الذى يقود وطنه إلى الهلاك .

ولم يناقش الإنجليزى قط فى هذا الأمر ، ولكنهم أجروا كل ما يمكنهم من تحريات عنه ، قبل أن يقرروا التعاون معه فعليًا ..

وفى زيارته التالية ، لقضاء إجازة قصيرة سريعة فى ( سويسرا ) ، بدأ ( فون داين ) تدريباته ، على يد ( توماس ) ، ليدلف بقدميه إلى ذلك العالم الغامض المثير ..

عالم الجاسوسية ..

وعاد ( فون داين ) إلى ( برلين ) وحقييته تحوى الخبر السرى ، وكتيب الشفرة وكل ما يحتاجه عالمه الجديد .

ومنذ أول أيام عودته ، بدأ ( فون داين ) يتحدث عن تلك السويسرية الحسنة التى وقع فى غرامها منذ اللحظة الأولى ، وراح يصف حسنها وجمالها ، ورقتها ..

وبعد عودته بأسبوع واحد ، وصله خطاب معطر من ( برن ) يمتلئ بعبارات الحب الملتهبة ويحوى صورة للحسنة السويسرية ، وقعنها بطلاء شفيتها ..

وأصبح الخطاب حديث المكان كله ، قبل مرور ساعة واحدة على استلام ( فون داين ) له .

وحساسية منصبه وموقعه ، فى القيادة الألمانية ، كانت خطابه تخضع للفحص والمراقبة ؛ لذا فقد بدأ يرسل لمحبيبته السويسرية خطابات الحب ، ويستقبل خطاباتهما ، دون أن تحوى الخطابات الواردة ، أو المرسله ، أى شىء يمكن أن يثير الشبهات .

وبالتدريج اعتاد رجال الفحص والمراقبة خطابات ( فون داين ) وأصبحوا يكتبون بفتح المظاريف ، ثم إعادة إغلاقها برباط لاصق خاص ، يحمل ما يشير إلى أن الخطاب قد خضع للفحص ..

وبدأ البريطانيون يختبرون نظم الرقابة الألمانية ، مع خطابات ( فون داين ) ..

ولقد استخدموا فى هذا أساليب عبقرية ومبتكرة بحق ، ووسائل غاية فى البساطة والحنكة ، كشمعة بيضاء صغيرة ، يتم وضعها بين طيات الخطاب ، أو ذرات فى السكر فى خطاب آخر ..

ومع الوقت ، تأكدت المخابرات البريطانية فى روتينية عملية الفحص ، وعدم جديتها ..

وهنا ، بدأ سيل المعلومات ينهمر ..

كل ما يقع تحت يد ( فون داين ) ، كان يتحول إلى رسائل مشفرة ، بالحبر السرى ، يكتبها الألمانى فى الليل ، ثم يتركها لتجف ، قبل أن يحمل دفتره الخاص إلى مقر عمله ، ويكتب رسالته إلى محبوبته السويسرية الوهمية ، بالحبر العادى ، تحت سمع وبصر الجميع ، فى جرأة يحسد عليها ..

وفى إجازته القصيرة ، كان يسافر إلى ( برن ) بحجة لقاء محبوبته ، حيث يستقبله ( توماس ) ، فى المنزل الأمن المتفق عليه ، ليدر به على مهارات جديدة ، أو يناقشه فى بعض ما أرسله من معلومات ، أو يملى عليه بعض الأوامر الجديدة ..

ومع إعلان ( ألمانيا ) الحرب على ( روسيا ) تضاعفت أهمية وجود ( فون داين ) فى القيادة الألمانية ، مما دفع البريطانيين إلى القيام بعملية انتحارية ، لنقل جهاز اتصال لاسلكى بعيد المدى ، إلى داخل الأراضى الألمانية ، بحيث يتمكن ( فون داين ) من العثور عليه ، ونقله خفية إلى منزله ..

وفى اللقاء التالى ، بدأت عملية تدريب الألمانى على إرسال واستقبال البث اللاسلكى المشفر ..

وبدأت ( ألمانيا ) مرحلة الهزائم ..

أمور عديدة راحت تنهار على نحو مقلق ، يوحى بوجود تسرب شديد فى المعلومات ، من داخل القيادة العسكرية نفسها ..

وكان هذا يعنى وجود جاسوس فى العمق ..

جاسوس لا بد من البحث عنه والعثور عليه ، مهما كان الثمن ..

وبأوامر من ( هملر ) شخصياً ، بدأت عملية فحص دقيقة ، لكل خطاب يصل أو يرسل من القيادة ..

وكان هذا يشمل خطابات ( فون داين ) أيضاً ..

ولكن ذلك الألمانى كان عبقرياً بحق .. وبكل المقاييس ، فقد انتبه إلى حالة التوتر ، التى سادت القيادة ، فتوقف فوراً عن إرسال المعلومات ، أو استخدام الحبر السرى ، وإن لم يتوقف عن إرسال خطابات الغرام الملتهبة ، إلى تلك السويسرية المزعومة ، التى واصلت إرسال خطاباتها إليه بدورها ..

ولن ( هملر ) كان أيضاً عبقرياً فى مضماره ، فقد راح يفحص بنفسه ملفات كل العاملين فى القيادة الألمانية ، واستعان فى هذا بأحد أفضل رجاله ..

( إيريك فون كلايست ) ..

ولأن الرجلين من عباقرة المخابرات عبر التاريخ ، فقد راحا يتبعان أسلوب الفرز والاستبعاد ، لحصر العالمين ، الذين يحتمل تورطهم فى الأمر ..

وعلى الرغم من منصب ( فون داين ) ، وتاريخه فى الحزب النازى ، انتقاه ( فون كلايست ) من بين المشتبه فيهم ؛ نظراً لما أصاب عائلته ، تحت الحكم النازى .

وبدأت عملية مراقبة دقيقة ، وسرية للغاية ، لتضييق دائرة الاشتباه ..

وأثناء عملية المراقبة ، وقع ( فون داين ) فى أول وأكبر خطأ فى حياته ..

لقد بث بعض المعلومات اللاسلكية ..

والتقط أحد أجهزة المراقبة البث ، وتم حصر نطاق الإرسال ، وراجع ( فون كلايست ) المعلومات مع أسماء المشتبه فيهم ..

وفى الثالثة صباحاً ، بعد ثلاثة أيام بالتحديد ، اقتحم رجال المخابرات الألمانية منزل ( فون داين ) ، وألقوا القبض عليه ، وهو يبث بعض المعلومات العسكرية بالفعل ..

وكانت خسارة كبيرة للبريطانيين ، أن تم إلقاء القبض على ( فون داين ) ، وإعدامه بعد محاكمة قصيرة ..

ولكن من المؤكد أن ما أرسله من معلومات ، خلال فترة عمله الطويلة ، كان قد وضع الألمان فى موقف لا يحسدون عليه ، بعد أن بلغ منحى هزائهم أقصاه ، وأصبح اندحارهم التام مسألة وقت فحسب ..

هذا لأنه كشف أسرارهم كلها أمام خصومهم ، وطغهم طغنة نجلاء ..

فى العمق .

\*\*\*

على عكس البداية القوية ، التي شهدتها العالم كله ، للحرب العالمية الثانية ، عندما انطلقت جيوش ( هتلر ) من عقالها ؛ لتجتاح أمامها أعتى وأقوى الجيوش القديمة ، في ( أوروبا ) كلها ، وتسقط أعلام ( فرنسا ) و ( هولندا ) ، و ( بولندا ) ، تحت أقدام القوات الألمانية النازية ، التي سيطرت في عامين فحسب ، على رقعة هائلة من الأرض ، تفوق مساحة دولتها الأصلية بسبع مرات على الأقل ، ثم تتجه بكل عنفوانها نحو ( روسيا ) ، في نفس الوقت الذي تدك فيه قواتها العاصمة البريطانية دكا ، لم يأت منتصف عام 1942م ، حتى بدا من الواضح أن ساحة المعركة تشهد تحولاً خطيراً ، وانقلاباً جذرياً ، يوحى باتقلاب دفة الأمور ، وببدء رد الفعل ، في اتجاه قوات المحور ، مع ضربات العنيفة ، التي تلقفتها الجيوش النازية ، وسط ثلوج ( روسيا ) ، والتي أجبرتها لأول مرة على التراجع ، ونقل سياستها من الهجوم إلى الدفاع ، وتحويل اتجاهها من الشرق إلى الغرب ..

وفي ( لندن ) ، راحت المخابرات البريطانية تنظم العملية تلو الأخرى ؛ لتوجيه ضربات قوية قاصمة للقوات النازية ، وتجنيد الجواسيس والعملاء ، لسرقة الوثائق والمعلومات ، ومفاتيح الشفرة ، التي تساعد على دحر العدو النازي ، وتعميق اندحاره أكثر وأكثر ..

ومن بين رجال المخابرات البريطانية ، حظى الماجور ( ويليام تروت ) بمنتهى الثقة ، لنجاحاته المتوالية ، في جلب أكبر كم من الأسرار والمعلومات ، من قلب الكيان النازي ، حتى اعتبره جهاز المخابرات النازي العدو رقم واحد للرايخ الثالث ، على كل الجبهات ..

ولأن ( أدولف هتلر ) لم يكن يقبل أبداً بتفوق غير الآريين ، فقد أحققه كثيراً نجاح ( ويليام تروت ) ، مما جعله يستدعى قائد الجستابو والمخابرات ( هملر ) ، ليسند إليه مهمة واضحة ومحددة ..

القضاء على الماجور ( ويليام تروت ) .. وبأى ثمن ..

ولأن ( هملر ) رجل مخابرات محترف ، ولأنه يؤمن تماماً بمبادئ الرايخ الثالث ، وقواعد النازية ، وبزعيمه ( أدولف هتلر ) ، اعتبر أن ما تلقاه هو أمر مقدس واجب التنفيذ ، وبأقصى سرعة ..

في البداية ، جال بخاطره القيام بعملية انتحارية عنيفة ، يتسلل خلالها فريق من رجال الكوماتدور النازيين ، بالتسلل إلى العاصمة البريطانية ، حيث يتعقبون ( تروت ) ، وفقاً لمعلومات استطلاعية مسبقة ، ثم ينقضون عليه في منطقة يتم اختيارها بدقة ؛ ليمطروه برصاصاتهم ، ويزيحهونه مع نجاحاته المتواصلة من طريق المد النازي إلى الأبد ..

ولكن خطة كهذه كانت تحوى عشرات من نقاط الخطر والمجازفة ،

كما أن الفريق الذي سينفذها ، لا تكتب له العودة حتمًا ، مما يعنى خسارة مجموعة من أكثر رجال الكوماندوز كفاءة ، فى عملية قد لا يتحقق الغرض منها ، لأى سبب كان !..

لذا ، كان من الضرورى البحث عن وسيلة أخرى ..

وسيلة أكثر منطقية ، وأكثر مخابراتية أيضًا ..

وفى اجتماع عاجل ، ضم معاونيه الثلاثة فحسب ، طرح ( هملر ) تكليف الفوهلر وأوامره ، وطلب الآراء والمقترحات ..

ووسط مجموعة من الآراء المعقّدة ، غير القابلة للتنفيذ ، نهض رجل المخابرات النازى الشاب ( رودلف راينهارد ) ، ليقول فى حزم :

- تحريات عملاتنا فى ( لندن ) ، تؤكّد أنهم يعملون على حماية ( تروت ) هذا طوال الوقت ؛ لأنهم يدركون مدى خطورته بالنسبة لنا ، ويثقون فى أننا سنبدل كل طاقتنا للوصول إليه ؛ لذا فعلمية التخلّص منه لابد وأن تتم بأسلوب دقيق وبارع للغاية .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

- وبتضحية كبيرة أيضًا .

سأله ( هملر ) فى اهتمام :

- وما الذى تقصده بالتضحية بالضبط !؟

التقط ( راينهارد ) نفسًا عميقًا ، ليجيب بمنتهى الحزم :

- أقصد تضحية كبيرة .. كبيرة للغاية .. تضحية تتناسب مع الهدف .

وعندما شرح خطته ، أدرك الجميع أنها بالفعل خطة دقيقة ، وبارعة ..

وأن التضحية التى يقصدها كبيرة بالفعل ..

وإلى أقصى حد ..

وفى ( لندن ) ، وبعد أسبوع واحد من هذه الأحداث ، كان الماجور ( ويليام تروت ) يتلقّى التهنية من رفاقه ، بعد نجاح عملية جديدة ، حصل عملية بوساطتها على مفتاح شفرة اتصالات الطيران النازى ، عندما دلف أحد الرجال إلى الحجرة ، وهو يقول فى اهتمام :

- هناك رجل يطلب مقابلة أحد المسئولين هنا ، ويلجّ فى الطلب على نحو عجيب ، ويرفض الانصراف مؤقتًا ، حتى لو تحدّد له موعد تال .

سأله أحد رفاق ( تروت ) :

- وما سبب المقابلة الذى أعلنه !؟

هزّ الرجل رأسه ، قائلاً :



- إنه لا يعطن أسبابه ، إلا أنه يؤكد أن الأمر عاجل وخطير للغاية .  
تبادل الرفاق نظرة صامتة ، قبل أن يقول الماجور (كاربنتر) :  
- فليكن .. سألتقى به في مكتب الاستقبال ، في الطابق السفلى .

لم تمض دقيقة واحدة ، حتى كان الماجور (كاربنتر) يلتقى  
بالرجل ، الذي بدا شاحباً متوتراً ، وهو يقول :

- معذرة يا سيدي .. لقد بذلت جهداً كبيراً ، حتى أصل إلى هنا ،  
دون أن ينكشف أمرى ، وربما لا يمكنني أن أعود مرة أخرى .

تراجع الماجور (كاربنتر) في مقعده ، متسائلاً :

- ماذا لديك بالضبط يا رجل !؟

ازدرد الرجل لعابه في صعوبة ، وزاغت عيناه على نحو واضح ،  
وهو يقول :

- إنني أعمل في قصر اللورد (وينتر بورن) .

أوماً (كاربنتر) برأسه متفهماً ، وقال :

- اللورد (وينتر بورن) من رجال مجلس العموم ، وهو ..

قاطع الرجل ، في عصبية شديدة :

- وهو جاسوس نازي .

انتفض (كاربنتر) على مقعده في عنف ، على الرغم من بروده  
المعروف ، وحدث في وجه الرجل بدهشة عارمة ، قبل أن ينعقد  
حاجباه في صرامة ، وهو يقول :

- سامع يا هذا ... في زمن الحرب ، لا يحق لك أن تلقى  
الاتهامات على هذا النحو ، وبخاصة عندما يتعلق الأمر برجل له  
مكانته السياسية والاجتماعية ، ولم يتطرق إليه الشك قط ، مثل  
اللورد (دينتر بورن) .

كرّر الرجل في عناد وعصبية أكثر :

- سيدي .. إنني أعمل في قصر اللورد منذ أكثر من عشرة  
أعوام ، وهو رب عملي وولي نعمتي ، ولقد ترددت كثيراً قبل أن  
أتى إليكم للإبلاغ عنه ، ولكنني كنت أتمزق بين ولائي له ،  
وانتمائي لوطني خاصة وأن .. وأن ...

اضطرب كثيراً ، عند هذه النقطة ، وتضاعفت عصبية أكثر  
وأكثر ، وبدا وكأن الكلمات قد احتبست في حلقه ، مما جعل  
(كاربنتر) يستحثه ، قائلاً :

- وأن ماذا يا رجل !؟

ازدرد الرجل لعابه في صعوبة بالغة ، وبدا وكأنه يجاهد  
تردده ، قبل أن يندفع قائلاً في توتر :

- خاصة وأنه قد تلقى أوامر نازية ، بالتخلص من أحدكم .

تراجع (كاربنتر) في مقعده ، هاتفاً :

- من أحدنا !؟

أوما الرجل برأسه إيجاباً ، وقال في سرعة ، وكأنما يخشى أن يغلبه خوفه ، ويمنعه من الاستطراد ، لو تردّد لحظة واحدة :

- نعم .. أحدكم .. إنه ماجور يدعى (توت) .. (ويليام تروت) .

وتراجع (كاربنتر) في مقعده أكثر وأكثر ، وانعقد حاجباه بمنتهى الشدة ، وقد أيقن تماماً من أن الرجل صادق في قوله وشكوكه ؛ إذ إن عددًا من رفاقه قد تلقوا دعوة إلى العشاء ، على مائدة اللورد (وينتر بورن) ، وعلى رأسهم زميله الماجور (تروت) ..

وكان من الضروري إبلاغ (تروت) بالأمر فوراً ، ولم تكن دهشته بأقل من دهشة (كاربنتر) ؛ لذا فقد عاد يستجوب الرجل مرة .. وثانية .. وثالثة ، قبل أن يطلب منه الصمت تماماً ، ويجنده للعمل لحسابه ، داخل قصر اللورد (وينتر بورن) ، في نفس الوقت الذي بدا فيه يجمع كل المعلومات الممكنة عنه ، من هذا المنظور الجديد ..

والواقع أنها كانت صدمة عنيفة لجهاز المخابرات البريطاني كله ،

فاللورد (وينتر بورن) لم يكن عضواً في مجلس العموم البريطاني ، وواحد من كبار رجال المجتمع فحسب ، وإنما كان أيضاً أحد أعضاء لجنة الدفاع ، المسئولة عن متابعة نفقات الجيش البريطاني ، واتفاقياته الاقتصادية ، والعسكرية أيضاً ، وكشف أنه يعمل لحساب المخابرات النازية ، يعنى أن كل ما يتعلّق بالجيش البريطاني ، كان مكشوفاً إلى حد كبير للنازيين ، طوال السنوات الماضية ..

وهذا ما أثبتته التحريات الجديدة ، وبخاصة تلك التي أكدها عميل رفيع المستوى ، في قلب الجهاز النازي ، عندما أرسل بعض البرقيات ، التي أرسلها (وينتر بورن) للمخابرات النازية ، والتي تحوى معلومات ، لم يكن بوسع أحد معرفتها ، إلا لو كان عضواً في لجنة الدفاع بالفعل ..

وكتداع طبيعي ، لهذه الصدمة العنيفة ، كان على جهاز المخابرات البريطاني أن يلجأ إلى حلين ، لا ثالث لهما ؛ فإما أن يتم إلقاء القبض على اللورد (وينتر بورن) مباشرة ، وتوجيه تهمة التجسس لحساب المخابرات النازية في زمن الحرب إليه ، أو الانتظار حتى يتم جمع كافة المعلومات والدلائل القوية ، التي تثبت تورطه ، ثم إلقاء القبض عليه بعدها ، على نحو لا يسمح له بالاعتراض ، أو ادعاء البراءة ، بأى حال من الأحوال ..

ولأن الرأي العام البريطاني ، لم يكن ليتقبل الأمر أبداً ، دون

أدلة قوية واضحة ، تم الاتفاق على تبني الوسيلة الثانية ، وقبول دعوة اللورد (وينتربورن) ، تحت مظلة من المعلومات ، وإلقاء القبض عليه ، متلبسًا بمحاولة التخلُّص من (تروت) ، مما يضىء شرعية ومصداقية قويتين على الموقف ، ويوفر كل الأدلة المنشودة ..

وعبر الرجل ، الذى أبلغ عن الأمر ، والذى أطلق عليه البريطانيون فى وثائقهم اسم (جون) ، تم ترتيب الموقف كله ..

فاللورد (وينتربورن) ، وفقًا لأقوال (جون) ، كان سيدس للماجور (تروت) سمًا بطيء المفعول ، فى الشراب الذى سيتناوله فى الحفل ، بحيث يبدأ تأثير ذلك السم بعد اثنتى عشرة ساعة ، فيصاب (تروت) بأعراض تتشابه مع أعراض الأزمات القلبية ، ويلقى مصرعه على مكتبه ، وسط رفاقه ، وعلى نحو لا يتطرق إليه الشك قط ..

وتم وضع خطة دقيقة ؛ لتفادى حدوث هذا ، بالتنسيق مع (جون) ، بحيث يستبدل كأس (تروت) ، فى اللحظة الأخيرة ، دون أن ينتبه (وينتربورن) إلى هذا ، ثم يسلم الكأس الأصلية إلى (كاربنتر) ، الذى يقوم بتحليل محتوياتها ، وإثبات محاولة القتل بالسم بطيء المفعول ..

وفى مساء السبت التالى ، لى الرجال دعوة اللورد (وينتربورن) بالفعل ، واستقبلهم الرجل بمنتهى الحرارة والترحاب ، وقضى معهم بعض الوقت ، فى حديث مستفيض ، حول تطورات الحرب ، وتراجع الجيوش النازية ، وتوقعات هزيمة (هتلر) فى المستقبل ، بل وامتد الأمر إلى محاولات التكهن بمصير الفوهرلر ، بعد الهزيمة والانحدار ، وبمصير (ألمانيا) كلها من بعده ..

ثم حان وقت تناول الشراب المنعش ، والتى تسبق مأدبة الطعام مباشرة ، وظهر (جون) مع باقى الخدم ، وهم يحملون الكنوس ، وبدا من الواضح أن اللورد يتابعهم فى اهتمام بالغ ، وخصوصًا (جون) ، الذى اتجه مباشرة نحو (تروت) ، الذى يحمل فى الحفل كالمعتاد اسمًا مستعارًا ، وانحنى يقدم له كأسه ، قائلاً :

- كأسك يا سير (سكوت) .

وبحركة بارعة متفق عليها ، اتخذ (جون) وقفته ، بحيث يحول بين اللورد ورؤية ما يحدث ، فى حين التقط من طيات ثباته كأسًا أخرى ، ناولها للماجور (تروت) خفية ، وهو يدس الكأس الأصلية فى نفس الجيب الخفى ، من سترته الكبيرة الفضفاضة ..

وفي هدوء يستحق الإعجاب ، انسحب ( جون ) من الحجرة ،  
والتقى في ممر جانبي بالماجور ( كارينتر ) ، فناوله الكأس الأصلية  
في حذر ، مغمماً :

- هل أدبت دورى كما ينبغي يا سيدي ؟!

أجابه ( كارينتر ) في حزم ، وهو يفرغ محتويات الكأس في  
قنينة صغيرة ، ثم يدسها في جيبه :

- بالتأكيد يا ( جون ) .. بالتأكيد .

في نفس اللحظة التي نطق فيها عبارته ، كان اللورد ( وينتر  
بورن ) يرفع كأسه أمام ضيوفه ، قائلاً في حماس :

- نخب انتصار ( بريطانيا ) المنتظر .

شاركه الجميع النخب ، ومن بينهم ( تروت ) ، الذي رفع كأسه  
البديلة إلى شفتيه ، وجرعها حتى الثمالة ..

وفي مساء الليلة نفسها ، في وكر الثعالب ، وهو الاسم الذي  
يطلقونه على مقر جهاز المخابرات النازي ، انعقد حاجبا ( هملر ) ،  
وهو يستقبل مساعده الشاب ( راينهارد ) ، قائلاً :

- هل وصلت أخبار من ( لندن ) ؟!

ابتسم ( راينهارد ) ، وهو يجيب في حزم :

- بالتأكيد يا جنرال .. لقد كانت أمامنا عقبة كبرى ، ألا وهي  
أن عملاءنا لم ينجحوا أبداً في معرفة الهوية الحقيقية للماجور  
( ويليام تروت ) ، نظراً للسرية المطلقة ، التي يحيطون بها ، في  
جهاز المخابرات البريطاني ، ولكن خطتنا الدقيقة ، وتضحيتنا  
الكبرى بأهم عملائنا ، في لجنة الدفاع البريطانية ، دفعتهم إلى  
كشف هوية ( تروت ) ، وما إن تعرفه عملينا الثاني ، حتى دس  
له السم في كأسه ، وبرقيته تؤكد أنه قد جرع كأسه كلها ..

تألقت عينا ( هملر ) ، وهو يقول :

- وماذا عن عملينا ؟!

أجابه ( راينهارد ) بنفس الحزم :

- ما إن يلقي ( تروت ) مصرعه ، حتى لا تعود له أية أهمية ..  
فليظفر به البريطانيون لو شاءوا ، أو فليمزقوه إرباً لو أرادوا ، فلن  
يعنينا أمره بعدها .. هذا هو القاتون أيها الجنرال .. قاتون الحروب .

ولقد كان ( راينهارد ) صادقاً ، في كل حرف نطق به ، ففي  
الليلة نفسها ، ومع منتصفها تماماً ، أصيب ( ويليام تروت ) بأزمة  
قلبية عنيفة ، بسبب ذلك السم ، الذي دسّه له ( جون ) ، بعد أن  
كشف هويته ، في حين لم يثبت الفحص وجود أية سموم ، بطيئة  
أو سريعة ، في محتويات الكأس الأصلية ..

## قاهر الجواسيس ..

من المؤكد أن العالم كله ، على اتساع رقعته وتاريخه ، لم يشهد مرحلة طويلة متصلة ، من الحروب العنيفة ، والمصادمات الشديدة ، التهمت خلالها ساحة الجاسوسية ، وازدهرت ، وأنجبت آلاف العمليات المثيرة ، التي تبهر العقول ، وتحبس الأنفاس ، وتخلب الأبواب ، من فرط جرأتها ، وعبقريتها ، وأساليبها المدهشة المبتكرة ، مثل الحرب العالمية الثانية ..

ولأن لكل فعل رد فعل ، مساوياً له في القوة ، ومضاداً له في الاتجاه ، كان من الطبيعي أن ينشأ تيار مضاد ، وأن تولد ساحة حرب جديدة ، قوامها رجال صنعوا من أنفسهم وعبقريتهم جبهة جديدة قوية ، مهمتها الرئيسية هي مواجهة الجواسيس ، وأساليبهم ، وابتكاراتهم ، لكشف أمرهم ، والإيقاع بهم ، ومنعهم من تحقيق مآربهم ..

كل جانب ، بزوا وتفوقوا ، وسجلوا تاريخهم بحروف من جهد وعرق ودم ، في هذا العالم الغامض المثير ..

وعلى رأس كل هؤلاء ، استقر أقوى خبير لمكافحة الجاسوسية ، عرفته تلك الفترة الحافلة ..

( إيريك فون كلايست ) ..

ولقد تم إلقاء القبض على اللورد (وينتربورن) ، بتهمة الخيانة في زمن الحرب ، وتم إعدامه رمياً بالرصاص ، بعد تصديق مجلس العموم البريطاني على الحكم ، الذي صدر بناءً على كومة من الوثائق والأدلة ..

أما (جون) ، فقد فر من القصر ، بعد أن تأكد من شرب (تروت) للسم مباشرة ، وانطلقت المخابرات البريطانية للبحث عنه ، بعد مصرع هذا الأخير ، في طول (لندن) وعرضها ، حتى تم الإيقاع به في ضاحية بعيدة ، وألقى القبض عليه ، وتم استجوابه لستة أسابيع كاملة ، قبل أن يتم إعدامه أيضاً رمياً بالرصاص ، وفقاً للقانون نفسه ..

القانون الذي لا يعرف الرحمة أو الهوادة ..

قانون الحروب .

\*\*\*

و ( فون كلايست ) يشترك مع ( أدولف هتلر ) ، الزعيم النازي الكبير ، في أن كليهما نمساوي الأصل ، بدأ كشخص بسيط ، ثم التحق بالحزب النازي ، وترقى فيه بسرعة ، حتى بلغ أرفع مناصبه ..

ففي الوقت الذي أصبح فيه ( أدولف هتلر ) مستشارًا للحزب ، حصل رفيقه ( هملر ) على منصب رفيع في مخابرات النازي ، وكان ( فون كلايست ) هو ذراعه اليمنى ، وعقله المفكر ، والشخص الوحيد الذي يمنحه ثقته وأذنه ، ويسند إليه أصعب وأدق المهام ، في عالم مكافحة الجاسوسية ..

ولقد كان ( فون كلايست ) جديرًا بهذا دون أدنى شك ، كما تشهد ملفات وسجلات مكافحة الجاسوسية ، في ( ألمانيا ) النازية .. وعلى عكس باقي رجال الجستابو ، في ( ألمانيا ) النازية ..

وعلى عكس باقي رجال الجستابو ، والمخابرات الألمانية ، لم يكن ( فون كلايست ) يؤمن بالعنف ، أو باستخدام القوة ، لانتزاع المعلومات أو الاعترافات ، من كل من يتم إلقاء القبض عليه ، بتهمة الجاسوسية ، فقد كان يؤمن تمامًا بأن كل ما يمكن أن تفعله القوة ، هي أن تمنحك اعترافًا ، لا يمكنك أن تثق في صحته ، بأكثر مما تثق في قدرة صاحبه على تحمل الألم والعذاب ..

فبالنسبة له ، كان انتزاع الاعترافات والمعلومات فن ، ولعبة يستمتع بكل لحظة منها ، كما لو أنها رقعة شطرنج فارسية أصلية ، بين لاعبين ماهرين ، لا يشعر أيهما بالنصر والظفر ، إلا إذا كان خصمه قويًا ماهرًا مثله ..

وتاريخ ( فون كلايست ) يحوى العديد من القضايا ، التي أثبت فيها براعته ، وسعة حيلته ، وذكاءه المفرط ..

ولعل أشهر هذه القضايا قضية المعلومات ، التي كانت تتسرب من مقر الجيش في ( باريس ) ، حيث يعمل العشرات من الباريسيين ، في وظائف مدينة معاونة ..

فمع تسرب المعلومات المستمر ، قامت المخابرات النازية بحصر كل المشتبه فيهم ، من العاملين في المقر الرئيس ، وتم إخضاعهم لنظام أمنى محكم تمامًا ، حيث يتم تفتيشهم بمنتهى الدقة ، في دخولهم وخروجهم ..

ولكن كل هذا لم يسفر عن شيء ..

وعندما تواصل التسرب ، على الرغم من كل الإجراءات ، وحتى بعد أن تم فحص أزياء العاملين شبرًا شبرًا دون جدوى ، قرّر ( هملر ) إسناد هذه المهمة لجواده الأسود الرابع دومًا ..

( إيريك فون كلايست ) ..

وعلى متن طائرة حربية خاصة ، سافر ( فون كلايست ) ، من  
( برلين ) إلى ( باريس ) ، حيث استقبله رجال ( الجستابو )  
والمخابرات وهم يرتجفون ، متصورين أنه سيكون نسخة طبق  
الأصل من رئيسه ( هملر ) ، فى عصبية وعجرفته وقسوته ؛  
لذا فقد أدهشهم أيما دهشة ، بمظهره الواثق القوى الهادئ ،  
وقامته الممشوقة ، وذلك البريق المهيب ، المطل من عينيه ،  
وهو يهبط من الطائرة ، بعد رحلته المباشرة ، بزي عسكرى  
أنيق ، ونشاط جم ، ليقول بلهجة من اعتاد أن يأمر فيطاع :

- دعونا نبدأ العمل فوراً ، فكل دقيقة تمضى ، قد تعنى المزيد  
من تسرب الأسرار ..

كان هذا أمراً مدهشاً إضافياً ، فالرجال كانوا يتصورون أنه  
سيحتاج ولو إلى ساعة واحدة من الراحة ، قبل أن يبدأ عمله ،  
وكانوا قد أعدوا مائدة حافلة ، ولكن ( فون كلايست ) لم يبد قط ، فى  
حياته كلها ، اهتماماً بالطعام وشهواته ؛ لذا فقد أصر على بدء  
العمل مباشرة ، وانتقل مع رجال المخابرات النازية إلى مقر القيادة  
الباريسى ، وطلب مواجهة كل المشتبه فيهم فوراً ، على أن يرتدى  
كل منهم ملابس الانصراف ، وكأنه سيغادر المقر إلى منزله ..

وعلى الرغم من أن الرجال لم يفهموا ما يرمى إليه ( فون  
كلايست ) ، إلا أنهم نفذوا أوامره بمنتهى الدقة ، ووقفوا يراقبون

ما سيفعله ، بمنتهى الدقة ، والاهتمام ، بعد كل ما بلغهم من  
براعته ومهارته ، فى كشف الجواسيس ..

كانوا يتوقعون استجابات صارمة ، ونظرات نارية ، وأصوات  
جمهورية ؛ لذا فقد أدهشهم ( فون كلايست ) كثيراً ، عندما جلس  
صامتاً هادئاً ، يراقب المشتبه فيهم بعينين كالصقر ، دون أن  
ينبس ببنت شفة ، أو يرتسم على وجهه أدنى انفعال ..

كان من الواضح أنه يفحصهم ويسبر أغوارهم ، بكل خبرته  
وذكائه وتاريخه ، و ... « فكرة ذكية بالفعل .. »

نطقها ( فون كلايست ) بغتة ، وهو ينهض من مقعده ، ويتجه  
نحو موظف باريسى طويل القامة ، يرتدى معطفاً سميكاً ، له  
أزرار معدنية كبيرة ..

وبهدوء واثق ، وعينين تتألقان ببريق النصر ، وضع ( فون  
كلايست ) يده على كتف الباريسى ، قائلاً فى رصانة ظافرة :

- دعنى أهنئ رؤساءك على عبقريتهم .

حاول الرجل أن يعترض ، ولكن ( فون كلايست ) استوقفه  
بإشارة صارمة قاسية من يده ، قبل أن يمد أصابعها إلى أحد  
أزرار المعطف ، ويديره فى خفة وسرعة ..

وقبل أن يستوعب رجال المخابرات النازية الأمر ، سقط غطاء

الزر الكبير ، وسقطت من داخله أوراق صغيرة ، مكتوبة بحروف دقيقة للغاية ، حاملة ألق أسرار القيادة ، فى الأسبوع المنصرم ..

وفى نفس الوقت ، الذى اتسعت فيه عيون الرجال دهشة وانبهاراً ، التقط ( فون كلايست ) معطفه ، وأشار إليهم بيده فى حزم ، قائلاً :

- هيا .. دعونا نعود إلى المطار .

كان رجلاً فذاً ، من نوع مدهش ، حتى إن الرجال قد رافقوه فى انبهار ، إلى المطار ، ولم يتمالك أحدهم نفسه ، فسأله :

- ولكن كيف توصلت إلى الأمر بهذه السرعة يا سيدي .. إنك لم تلق حتى سؤالاً واحداً ..

ابتسم ( فون كلايست ) فى هدوء رصين واثق ، وهو يشير إلى رأسه ، قائلاً :

- لم أكن بحاجة إلى أية أسئلة .. الأمر كله تم حله هنا .. بالعقل والمنطق ، والخبرة ..

بهذه البساطة ، عبّر عن وجهة نظره ، قبل أن يستقل الطائرة الحربية ذاتها ، فى طريق العودة إلى ( برلين ) ، دون أن يلقي نظرة واحدة على ( باريس ) ، على الرغم من أنه قد كشف على التو واحدة من أبرع وسائل نقل المعلومات ، التى ابتكرتها المخابرات

البريطانية ، والتى أدى كشفها إلى الإيقاع بعشرات الجواسيس البريطانيين ، فى كل البلاد ، التى وقعت تحت الاحتلال النازى ..

ولكن من الضرورى أن نشير هنا إلى أن البريطانيين قد وجدوا حلاً عبقرياً بسيطاً ، للحفاظ على وسيلتهم ، وحمايتهم فى الوقت ذاته ، بعد أن كشفها ( فون كلايست ) ، ومن الطريف أن كل ما فعلوه هو أنهم قد عكسوا اتجاه فتح الأزرار ، وعندما كان الألمان يحاولون فتحها كما تعلموا ، كانوا فى الواقع يحكمون إغلاقها ..

ولم تكن هذه هى القضية الوحيدة ، التى كشفت عبقرية ( فون كلايست ) ، فذات مرة ، تم إلقاء القبض على جاسوس بريطانى فى ( بولندا ) ، بعد أن حامت حوله الشبهات بشدة ، ولكنه أصرّ على إنكار التهمة ، على الرغم من كل ما تعرض له ، بل وبدا وكأنه لا يعرف أو يفهم كلمة إنجليزية واحدة ..

ومن الواضح أن نكاء الجاسوس قد استهوى ( فون كلايست ) ، وخاصة بعد أن عجز عمالقة ( الجستابو ) عن انتزاع المعلومات منه ، مع خبرتهم وقسوتهم ..

وسافر ( فون كلايست ) إلى ( وارسو ) ، والتقى بذلك الجاسوس البريطانى ، فى مقر ( الجستابو ) ..

كان شاباً بسيط المظهر ، بولندى الملامح ، يرتدى ثياب فلاح



عادي ، ويقف في احترام وخوف واضحين ، إلا أن كل هذا لم يخدع النازي المخضرم ، وخاصة مع بريق الذكاء الواضح ، الذي لمح في عيني الشاب ، والذي جعله يبتسم في أعماقه ، ويشعر بنشوة المواجهة والصراع ، وهو يقول :

- تتصور أنك قادر على خداعي .. أليس كذلك !؟

نطقها بإنجليزية سليمة تمامًا ، ولكن الشاب ظل صامتًا ، ساكنًا ، دون أن تبدو عليه أدنى دلالات الفهم ، فاعتدل ( فون كلايست ) ، وقال في حزم ، وباللغة البولندية هذه المرة :

- اسمع يا هذا .. أنا واثق من أنك بريطاني جاسوس ، على الرغم من كل ما تحمله من أوراق سليمة ، وتاريخ تم صنعه بدقة بالغة ، ولكن ثق أنني سأكشف أمرك ، إن عاجلاً أو آجلاً .. هل تعلم لماذا !؟

تطلع إليه الشاب في بلاهة مصطنعة ، فتابع في صرامة :

- لأنني الأكثر ذكاءً ..

خيل إليه أنه قد لمح بريقاً ساخراً في عيني الشاب ، على الرغم من ملامحه البسيطة المستكينة ، فأضاف في قوة :

- والأيام القادمة ستثبت هذا .

ومنذ تلك اللحظة ، وعلى عكس أسلوبه المعتاد ، راح ( فون كلايست ) يستجوب الشاب مرة ، ومرة .. ومرات ..

وفي كل مرة كان يلقي الأسئلة نفسها ، ويحصل على الأجوبة نفسها ..

الشيء الوحيد ، الذي كان يتغير في كل مرة ، هو الكلمة الإنجليزية ، التي كان يقحمها عمداً ، هنا أو هناك ، وسط أسئلته ، حتى يتأكد مما إذا كان الشاب يعرف الإنجليزية على عكس ما يدعى أم لا ، باعتبار أن هذا وحده يحسم قضية ما إذا كان جاسوساً من عدمه ..

كان ( فون كلايست ) واثقاً في أعماقه من أن الشاب جاسوس ، إلا أنه ، وبحكم شخصيته ، كان يحتاج إلى دليل قاطع ..

وإلى انتصار قوى واضح ، يُغذي في أعماقه ذلك الشعور المنعش ، الذي يسعى إليه دوماً ، في كل قضية يتولى أمرها ..

ولكن الشاب كان ذكياً بارعاً بالفعل ..

فعلى الرغم من أنهم كانوا يتركونه ليوم كامل بلا نوم أو راحة ، قبل أن يخضع للاستجواب ، إلا أن عقله ظل يقظاً دوماً ، فلم يقع في الفخ مرة واحدة ، بل وكان يبدي دهشة وحيرة متقنين ، عندما يدس ( فون كلايست ) أية كلمة إنجليزية ، وسط حديثه البولندي ..

وبدت القضية أكثر تعقيداً للجميع ، وأكثر إقناعاً ، بالنسبة لرجل المخابرات الألماني القذّ .. وذات يوم ، وبينما الشاب مستغرق في النوم ، انتشر بعض الدخان في السجن ، وارتفعت أصوات تصرخ في فرع :

- حريق .. حريق ..

كانت الصرخات تنطلق بالإنجليزية ، وبأصوات مرتفعة للغاية ، مما أيقظ الشاب من نومه ، ولكنه لم يغادر فراشه ، وإنما راح يهتمهم بكلمات بولندية ساخطة ، وهو يدس رأسه في فراشه ، وكأنما يحاول استعادة نومه ..

ثم انطلقت الصرخات نفسها مرة أخرى بالبولندية ، فقفز الشاب من فراشه مذعوراً ، وراح يصرخ في رعب ، ويدق باب زنزانته بقبضته ، مناشداً الألمان إخراجة ، قبل أن يلتهمه الحريق ..

وكان هذا انتصاراً جديداً للشباب ، بذكائه ، وحنكته ، وثقته ، وجرأته ..

وكان على ( فون كلايست ) أن يجلس ، ويفكر ، ويدرس الموقف كله مرة أخرى ..

وفي الصباح التالي ، استدعى الألمان ذلك الشاب ، وأوقفه في منتصف حجرة الاستجواب ، وراح يدور حوله بعض لحظات ، قبل أن يستقر خلف مكتبه ، ويقول في يأس :

- إما أنك عبقرى ، على نحو لم نشهده من قبل ، أو أنك برىء بالفعل .

تطلع إليه الشاب في صمت مستكين ، فتابع في مرارة :

- دعني أعترف بأنك قد هزمتني ، وانتصرت عليّ في هذه اللعبة .. ولما كان من المستحيل أن ينتصر عليّ جاسوس بريطاني ، مهما بلغت براعته ، فهذا يعني أنك برىء بالفعل ..

وتنهّد في أسى واستسلام ، وهز رأسه في حسرة ، ثم رفع عينيه إليه ، قائلاً :

- لقد انحسم الأمر .. أنت حر .

تراقصت ابتسامة على شفתי الشاب ، وانطلقت من صدره تنهيدة ارتياح ، تألقت معها عينا ( فون كلايست ) ، ونهض من خلف مكتبه ، واستعاد ابتسامته الظافرة ، وهو يقول بالإنجليزية :

- عجباً! .. المفترض أنك لا تفهم الإنجليزية ، فكيف إذن شعرت بالارتياح ، على الرغم من أنني قد نطقت كلمة ( أنت حر ) بالإنجليزية!؟

تجمدت عينا الشاب ، وهو يتطلع إليه بنظرة حادة ، مستعيداً كل كلمة نطق بها ، ثم لم يلبث أن استرخى في وقفته ، وابتسم ، قائلاً بالإنجليزية :

- أهنتك .

تألقت عينا ( فون كلايست ) فى ظفر أكثر ، وهو يقول :

- كنت أعلم أنك ستفقد بعض حنرك ، عندما أغمرك بنشوة النصر .

قالها ، وترك رجال ( الجستابو ) يستجوبون الشاب ، ليستقل طائرته ، عائداً إلى ( برلين ) ، وفى جعبته نصر جديد ..

وعلى الرغم مما سبق ، إلا أن أبرع قضية ، كشف أمرها ( فون كلايست ) ، فى عالم الجاسوسية المضادة ، لم تحظ بالشهرة الكافية ..

ربما لأن النصر قد تحقق فيها بسرعة أكثر من اللازم ..

فذات يوم ، ألقى ( الجستابو ) القبض على محاسب ألماني ، يعمل فى قسم الحسابات والمراجعة ، فى مقر قيادة القوات فى ( برلين ) ، واتهمته بالتجسس لحساب البريطانيين ، بناءً على معلومة مؤكدة ، أرسلها أحد جواسيس ( برلين ) فى ( لندن ) ..

ووفقاً للمعلومة ، كانت بحوزة المحاسب رسالة ، تحوى أوامر بالغة الأهمية والخطورة ، مرسلة إلى رئيس شبكة جاسوسية بريطانية فى ألمانيا ، يمكن من خلالها تحديد اتجاهات وأهداف القيادة البريطانية ، فى المرحلة القادمة من الحرب ..

ولما كانت ( ألمانيا ) قد تورطت بالفعل ، فى ذلك الحين ، فى حربها مع ( موسكو ) ، بكل ما حمله هذا من مسنوليات واستنزافات اقتصادية جديدة ، كان من المهم جداً أن تعرف ما

تنتويه الجبهة البريطانية ، فى الفترة التالية ، لاتخاذ كل الاحتياطات الخاصة بهذا الشأن ..

ولقد عثر رجال ( الجستابو ) على عدد من الخطابات بالفعل ، فى حقيبة المحاسب وجيوبه ، وتم عرضها كلها على قسم الشفرة ، الذى فشل فى إثبات وجود أية كتابات خاصة ، أو أحبار سرية عليها ، أو حتى شفرة جديدة متقنة ..

وعندما عجز الكل عن تحديد وكشف الأمر ، أسند ( هملر ) المهمة إلى ذراعه اليمنى ، ورجله العبقري فى هذا المضمار ، ( إيريك فون كلايست ) ..

وما إن تلقى ( فون كلايست ) التكليف ، فى السادسة والنصف صباحاً ، حتى ارتدى زيه العسكرى ، واتجه فوراً إلى قسم الفحص ، وطلب الاطلاع على الرسائل كلها ، وراح يقرأ كلاً منها فى عناية واهتمام ..

وفى الثامنة تقريباً ، انتخب من بين الرسائل كلها رسالة بعينها ، انعقد حاجباه ، وهو يطالعها فى دقة بالغة ، قبل أن يتوقف عند آخر شيء يمكنك أن تتصوره ..

عند النقطة ، التى توضع فى نهاية الرسالة ..

لسبب ما ، بدت له مختلفة عن باقى الخطاب ، وكأنما كتب

## قلب الزعيم ..

منذ عام 1929م ، وعقب الانتخابات ، التي أسفرت عن فوز ساحق وغير متوقع للحزب النازي ، بدأ ( أدولف هتلر ) يتسلل إلى أعماق الشعب الألماني ، الذي ذاق مرارة هزيمة مؤلمة ، في الحرب العالمية الثانية ، وبات متشوقاً للانتصار ما ، يعيد إليه كرامته ، ويعيده إلى أمجاده التاريخية القديمة ..

وعبر سلسلة خطب حماسية ، وتحت إشراف عبقرى دعائي ، وهو ( جوزيف جوبلز ) ، تحول ( هتلر ) إلى شعلة من نار ، ليس في ( ألمانيا ) وحدها ، ولكن في معظم عواصم ( أوروبا ) ، التي حرص أن تبلغها إذاعاته ، بكل اللغات المعروفة ، حتى بات ذكر اسمه مقروناً بالاحترام والتوقير ، ودليلاً على الوطنية والنزاهة والثقة ..

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية ، والانتصارات الساحقة ، التي حققها ، الجيش النازي ، جن جنون الشعب والجيش بالزعيم ، وتحول مع سياسة ( جوبلز ) ، إلى ما يشبه الآلهة ، حيث تم وصفه دوماً بالكامل ، الذي لا ينقصه شيء .. أي شيء ..

ولم تمض سنوات قليلة ، حتى تأجج هذا الشعور ، في نفس

صاحبه الكلمات كلها بقلم ما ، ثم أتى بقلم آخر ، ووضع النقطة في نهاية الخطاب ..

وبفحص تلك النقطة ، التي لم تجذب انتباه أحد ، أيقن ( فون كلايست ) من أنها لم توضع بقلم ما ، وإنما هي عبارة عن صورة ضوئية دقيقة جداً ..

وبسرعة ، وضع ( فون كلايست ) النقطة تحت الميكروسكوب ، وقام بتكبيرها ألف مرة ، و ...

وبدت الكلمات البيضاء واضحة ، وسط الدائرة السوداء ، حاملة رسالة كاملة ، بكل ما بها من أوامر ، وطلبات وتعليمات ..

وانبهر الكل ، حتى ( أدولف هتلر ) نفسه ، بتلك العبقرية المذهلة ؛ لذا فقد كان هو من أطلق على ( فون كلايست ) ذلك اللقب ، الذي ظلّ يحمله بفخر ، حتى آخر عمره ..

لقب ( قاهر الجواسيس ) .

\*\*\*

كل مواطن وجندى ألماني ، مع اجتياح ( هتلر ) لأوروبا ، واتجاهه إلى ( آسيا ) و ( أفريقيا ) ، وهجومه على الاتحاد السوفيتي ، على الرغم من وجود معاهدة عدم اعتداء بينهما ..

ولأن الحلفاء قد أدركوا مدى خطورة موقع ( هتلر ) ، في قلب الشعب الألماني ، وتأثير ألوهيته المصطنعة في الجيش ، أصبح على قمة اهتماماتهم محاولة تحطيم الأسطورة ، وإسقاط ( أدولف هتلر ) ، من جبال الآلهة ، إلى مصاف البشر ..

وبكل الوسائل الدعائية الممكنة ، حاولت المخابرات الإنجليزية والروسية البحث عن ثغرة ما ، تبيح لها نشر ما يزيل صفة الكمال ، عن الزعيم النازي ، لعل هذا يخفف من الحماس ، ويساعد على كسر وتحطيم الروح المعنوية ، في زمن الحرب ..

ومن أجل بلوغ هذا الهدف ، راح جهازا المخابرات يتبادلان كل ما يقع تحت أيديهما ، من وثائق ومعلومات ، بحثًا عن تلك الثغرة ..

وذات يوم ، وقعت في يد ضابط المخابرات السوفيتي ( يوري بولياكوف ) معلومة بدت تقليدية للوهلة الأولى ..

معلومة تقول : إن الجهد الشديد ، الذي يبذله ( هتلر ) ، قد أدى إلى إصابته ذات يوم بأزمة قلبية ، وهو يجلس في مكتبه ، وتم استدعاء طبيبه الخاص ، في سرية بالغة ، حيث أجرى له

بعض الإسعافات العاجلة ، وأوصى له بالراحة والاسترخاء ، لأسبوع على الأقل ، وقدم تقريرًا سرّيًا لقائد ( الجستابو ) ( هملر ) ، في هذا الشأن ..

في البداية ، لم يتوقف ( بلياكوف ) طويلاً ، أمام تلك المعلومة ، واكتفى بمراجعتها ، مع ما ورد معها من معلومات ، ولكنه ما إن انتهى ، حتى عاد يطالع المعلومة مرة أخرى ، وطرح على نفسه سؤالاً ..

لماذا أخفوا الخبر عن الشعب؟! ..

المعلومة تقول : إنهم لم يخفوها عن الشعب فحسب ، وإنما على جنرالات الجيش ، وجنرالات القيادة أيضًا ..

وهذا ربما يعني الكثير ..

والكثير جدًا ..

ظلّ ( بلياكوف ) يدرس الأمر في ذهنه طوال الليل ، ثم قرّر في النهاية إرسال المعلومة إلى البريطانيين ، لعلهم يفيدون منها أكثر ..

وعبر برقية مشفرة ، عبرت ( أوروبا ) كلها ، وصلت المعلومة إلى مقر المخابرات البريطانية ، واتخذت مسارها المعتاد ، لتستقر أخيرًا في يد سير ( هوجو سنكلير ) ..

وهنا يبدو الفارق واضحًا ، بين المخابرات السوفيتية ،  
والبريطانية ..

فقد قضى سير ( سنكلير ) ساعة كاملة يتأمل المعلومة ،  
ويدرس الموقف من كل الوجوه ، قبل أن يطلب عقد اجتماع  
لمعاونيه ، وما إن ضمَّتْهم مائدة الاجتماعات ، حتى طرح عليهم  
المعلومة .

راح كل واحد منهم يدلى بدلوه ، و ( سنكلير ) يستمع إليهم في  
اهتمام بالغ ، حتى قال أحدهم :

- لو أن الأمر بيدى ، لما أوليت هذا الأمر اهتمامًا ، إلا إذا  
فكرنا في أن نستغل ضعف قلبه ؛ لنصيبه بأزمة ثانية ، لعلها  
تكون قاتلة .

هنا ، اعتدل ( سنكلير ) ، وقال فى صرامة :

- هل تعتقد هذا ؟!

غمغم صاحب الاقتراح :

- إنه رأى الشخصى .

وهنا ، غادر ( سنكلير ) مقعده ، على قمة المائدة ، وقلماً يفعل ،  
وراح يدور حول المجتمعين ، وهو يقول ، وكأنه يحدث نفسه :

- عندما وصل ( كريستوفر كلومبوس ) ، إلى أولى الجزر  
الأمريكية ، كانت أول مرة فى التاريخ ، يرى فيها الوطنيون أناسًا ،  
ذوى بشرة بيضاء ، أو سفناً بهذه الضخامة ؛ لذا فقد اعتبروا  
( كلومبوس ) وبخارته آلهة ، أتت من نهاية العالم ؛ لترشدهم  
إلى الصواب ، وبسرعة ، خضعوا لهم ، واستجابوا لأوامرهم  
ورغباتهم ، وغمروهم بالهدايا والعطايا ، ولم يجروا أحدهم على  
مخالفتهم قط ، وظلَّ الأمر على هذا النحو ، حتى تمردَّ رجال  
( كلومبوس ) ، فارتكب أكبر خطأ ، فى حياته كلها ؛ إذ أمر بجلد  
الرجل علنا ، وهنا أدرك الوطنيون أن ذوى البشرة البيضاء  
ليسوا آلهة ، وأنهم مثلهم ، يتألمون ، ويتوجعون ، ويعاقبون ،  
وتنزف منهم نفس الدماء الحمراء .. وهنا انكسرت عصا الطاعة  
دفعة واحدة ، وبدأ الوطنيون فى التمرد والعصيان .

سأله أحد الرجال :

- ماذا تعنى بقصتك هذه يا سيدي ؟!

توقف ( سنكلير ) عن الدوران ، ليقول فى حزم :

- ما أعنيه هو أن وضع ( هتلر ) لا يختلف كثيرًا عن وضع  
( كلومبوس ) ، وكما حطمت دماء البشرة البيضاء ألوهيته ، يمكننا  
أن نفعل المثل مع ( هتلر ) ، بنشر تقريره المرضى على الشعب .

قال أحد الرجال فى حماس :

- يمكننا أن نكتب منشورًا بهذا ، وتلقيه طائراتنا على الشعب  
الألماني ، و ...

قاطعه ( سنكلير ) فى صرامة :

- مجرد دعاية سلبية ، يمكن دحضها بخطبة حماسية من ( هتلر ) ، أو منشور دعائى مضاد من ( جوبلز ) .

سأله آخر :

- ماذا ينبغى أن نفعّل إذن ؟!

تألّقت عينا ( سنكلير ) ، وهو يجيب :

- أن نحصل على التقرير الأصيل .

بهت الجميع لقوله ، وبدا لهم ما يقترحه أمراً بالغ الصعوبة ، عسير المنال إلى حد كبير ، إلا أنه واصل فى حماس هادئ :

- عندما يقع التقرير الرسمى فى يدينا ، يمكننا أن نطبع منه ملايين النسخ ، وتلقيها طائراتنا على الشعب الألمانى ، فى طول ( ألمانيا ) وعرضها .. بهذا نصدم الشعب الألمانى ، وندفعه للاستيقاظ من سباته ، ومواجهة الحقيقة البشرية لزعيمة الملهم .. هذا سيوجّه ضربة قاصمة للروح المغنوية النازية ، وربما يفتت الجبهة الداخلية تماماً ، مما سيكون له تأثير إيجابى ضخم ، على مسار الحرب كلها .

صمت الرجال بضع لحظات ، قبل أن يقول أحدهم فى قلق :

- ولكن ذلك التقرير ، كما تقول المعلومة ، يندرج تحت الوثائق السرية للغاية ، والتي يحتفظ بها ( هتلر ) فى خزائنه الخاصة ،

فى مقر ( الجستابو ) ، المعروف باسم ( بيت الثعالب ) ، والوصول إلى تلك الخزائنة شبه مستحيل ، ولقد فشلنا أكثر من ثلاث مرات ، فى بلوغ موقعها ، فما بالك بمحتوياتها .

أدار ( سنكلير ) عينيه ، فى وجوه الجالسين ، قبل أن يعاود الدوران حولهم ، وهو يقول :

- القاعدة الثابتة الوحيدة ، التى تيقنت منها ، عبر ثلاثين عاماً من العمل بالمخابرات ، هو أنه لا وجود لكلمة مستحيل ، فى قاموس أجهزة المخابرات .. كل مشكلة لها حل ، وكل نظام أمنى ، مهما بلغ إحكامه ، به ثغرة ما ، واللعبة كلها تدور حول البحث عن تلك الثغرة ، واستغلالها إلى أقصى حد ؛ لتحقيق الهدف ، الذى قد يبدو من زاوية أخرى مستحيلاً .

غمغم أحد الرجال :

- وكيف نتجاوز الثغرة هذه المرة ؟!

توقّف ( سنكلير ) ، وأعمل فكره بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

- ما دمنا لا نستطيع بلوغ تلك الوثيقة ، داخل خزائنة ( هتلر ) الخاصة ، فلا بد وأن نجبرهم هم على إخراجها .

سأله أحدهم فى لهفة :

- وكيف هذا ؟!

عادت عينا سير ( هوجو سنكلير ) تتألقان ، وتراقصت فى ركن شفتيه ابتسامه خفيفة ، قبل أن يجيب :

- هذا هو السؤال .

فى تلك الليلة ، لم ينم الرجال طويلاً ؛ إذ امتد اجتماعهم مع ( سنكلير ) حتى الساعات الأولى من الصباح ؛ ليضعوا خطة الحصول على التقرير الطبى الرسمى ، والسرى لقلب الزعيم النازى ..

ومع نسمات الصباح الأولى ، وعبر برقية شفرية مطوَّلة ، بدأت العملية ...

وقبل أن يمضى أسبوع واحد ، فوجئ ( هملر ) باستدعاء خاص وعاجل من الفوهرلر ، فهرع إلى مكتبه ، واستقبله ( هتلر ) فى غضب ، وهو يهتف به فى ثورة :

- ماذا أصابك يا ( هملر )؟! .. كيف يمكن أن تفقد أوراقاً بهذه الخطورة؟! ..

لم تكن لدى ( هملر ) أدنى فكرة ، عما يتحدث عنه الفوهرلر ؛ لذا فقد سأل فى حيرة :

- أية أوراق أيها الزعيم؟! ..

دقَّ ( هتلر ) سطح مكتبه بقبضته ، وهو يقول بثورته الصارمة :  
- ذلك التقرير الطبى اللعين .. كان ينبغى أن تمزقه فوراً ، لا أن تحتفظ به ؛ ليحصل عليه أعداؤنا .

اتسعت عينا ( هملر ) ، فى دهشة واستنكار ، وهو يقول :  
- مستحيل أيها الزعيم ... ذلك التقرير ، الذى تتحدث عنه ، يكمن فى أعماق خزانتي السرية الخاصة ، التى لا يعرف مكانها سوى ، والتى يستحيل أن يعثر عليها أحد .  
صاح ( هتلر ) :

- خطأ .. تلك الوثيقة وقعت فى قبضة السوفيت .. لدى عميل خاص ، بالغ السرية والأهمية ، فى قلب جهاز مخابراتهم ، أبلغنى أنهم يناقشون الآن ، كيفية الاستفادة منها .  
وعاد يطرق سطح مكتبه ، مضيقاً :

- هل تعلم ما يمكنهم فعله بوثيقة كهذه؟! .. إنهم يستطيعون إشارة بلبله لا حصر لها ، فى نفس الشعب الألمانى ، الذى يعتبرنى الزعيم الكامل ، الذى لا تشوبه شائبة ، ولا يعانى من أى نقص ، فى أى مضمار .

اعتدل ( هملر ) ، وقال فى حسم ، وقد زال منه أدنى شك :



- مستحيل أيها الفوهلر .. تلك الوثيقة في خزانتي ، ولم يحصل عليها أحد .

صاح ( هتلر ) :

- كيف عرفوا فحواها إذن ؟!

أجابه في حزم :

- هناك وسائل عديدة لهذا .

لوح ( هتلر ) بيده ، هاتفًا :

- ليست لديك وسيلة واحدة لإثبات هذا .

اعتدل ( هملر ) ، وشد قامته ، قائلاً :

- لدى وسيلة حاسمة أيها الفوهلر .. الوثيقة نفسها .. سأحضرها فورًا ، لتطالعها بنفسك .

غادر مكتب الفوهلر على الفور ، واتجه إلى مكتبه ، وأخرج الوثيقة من خزانته ، وتأكد منها ، ثم حملها ، واتجه نحو الفوهلر مرة أخرى ..

وهناك ، انعقد حاجبا ( هتلر ) في شدة ، وهو يطالع الوثيقة ، قبل أن يسأل في توتر ، مكرراً :

- كيف عرفوا فحواها إذن ؟!

أجابه ( هملر ) ، محاولاً التخفيف من الموقف :

- ربما بلغتهم معلومة ما ، من أحد عيونهم ، ولكنهم ليسوا واثقين منها حتمًا ، وليس لديهم دليل واحد عليها ، مما يحجم إمكانية الاستفادة منها تمامًا .

هزأ ( هتلر ) رأسه ، وقال :

- لا بد وأن هذا هو التفسير بالتأكيد .

ارتاح ( هملر ) للوسيلة ، التي انتهى بها الأمر ، والتي أثبتت أنه كفاء لموقعه ، وحمل الوثيقة ، عائدًا إلى سيارته ، وبينما يعبر ردهة مقر الحكم ، استوقفه أحد ضباط المخابرات ، ومال عليه يسأله ، عن أمر بدا بالغ السرية ، وعاجل للغاية .

وبينما يتحدثان ، فقد أحد جنود الحراسة وعيه فجأة ، فسقط يرتطم بضابط المخابرات ، الذي ارتطم بـ ( هملر ) بدوره في عنف ، وكاد يسقطه أرضًا ، لولا أن سيطر الضابط على نفسه في سرعة ، وأمسك ( هملر ) ، قائلاً في انزعاج :

- أنت بخير يا جنرال ؟!

أجابه ( هملر ) ، وهو يعتدل في سرعة :

- بالتأكيد .

أدى الضابط التحية النازية ، واستأن في الاصراف ، وترك ( هملر )  
يمضى في طريقه ، دون أن يدرك أن الجندي الذي فقد الوعي ،  
كان ينفذ عن جهل أوامر ضابط المخابرات ، الذي أقتعه بأن هذه خطة  
سرية ، أمر بها الفوهرل شخصياً ، أما ضابط المخابرات نفسه ، فكان  
واحداً من أهم عملاء المخابرات البريطانية ، في قلب الجهاز السرى  
النازى ، وأن البريطانيين رأوا أن أهمية العثور على تقرير هتلر  
الطبي السرى ، أكثر أهمية وتأثيراً من بقاءه في موقعه ، فدفعوه  
لتنفيذ الخطة ، ونشل الوثيقة من ( هملر ) ، على أن يغادر بها  
( ألمانيا ) كلها بعدها ، ويلجأ إلى ( بريطانيا ) ..

وكانت خطة عبقرية وجريئة بالفعل ، لولا أمر واحد ..

فما إن ابتعد الضابط في طريقه ، حتى تأججت شكوك ( هملر )  
فجأة ، بحكم دماء التآمر ، التى تسرى فى عروقه ، وبحث عن  
الوثيقة بسرعة فى جيبه ، فلما لم يجدها ، صاح بالحراس :

- أوقفوا هذا الرجل .

أدرك ضابط المخابرات عندئذ أن أمره قد انكشف ، وحاول أن  
يعدو عبر باب ( الرايخستاج ) ؛ حتى يبلغ السيارة التى تنتظره  
أمامه ، إلا أن بعض الحراس اعترضوا طريقه ، فى حين أخرج  
( هملر ) مسدسه ، وقال فى غضب :

- خائن .

وبرصاصة واحدة ، أسقط الضابط ، الذى كان من سوء حظه  
أنه لم يمت على الفور ، وإنما تم نقله إلى جحيم ( الجستابو ) ،  
لاستخلاص كل ما يمكن من معلومات عنه ، ولم يعرف أحد  
مصيره بعدها قط ..

أما الوثيقة نفسها ، فقد رأى ( هملر ) ، بعد هذا الموقف ، أن  
الفوهرل كان محقاً بشأنها ، فقام بإعدامها بنفسه ..

وهكذا خسر البريطانيون عملية عبقرية ..

عملية قلب الزعيم ..

النازى .

\*\*\*

## قلب المقاومة ..

ديسمبر 1940م .. أخبار الحرب العالمية الثانية كله ، والجيش النازي يبلغ أوج انتصاراته الساحقة في ( أوروبا ) ، وقادته يولون أبصارهم شطر الجليد السوفيتي ، و ( إنجلترا ) تلهث في إرهاب ، مع عنف الهجوم الألماني ..

أما في ( فرنسا ) ، فقد بدت الصورة على السطح هادئة مستقرة ، توحي بأن الشعب الفرنسي ، المنغمس طيلة عمره في الفن والجمال ، قد استسلم للاحتلال ، وخضع للنظام النازي المستبد ..

ولكن الحقيقة كانت تختلف كثيراً تحت السطح ..

وكلمة تحت السطح هذه ليست تعبيراً مجازياً ، أو نوعاً من المحسنات البديعية ، وإنما هي حقيقة واقعية ، عرفها العالم كله ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ..

ففي قلب شبكة مترو الأنفاق الباريسية ، وتحت سطح العاصمة الفرنسية ، كان مقرّ المقاومة الفرنسية ، أشرس مقاومة شعبية واجهها النازيون ، في كل دول ( أوروبا ) ، التي وقعت في قبضتهم ..

ومن المستحيل أن يمرّ أي مؤرخ ، من مؤرخي الحرب العالمية الثانية ، على المقاومة الفرنسية مرور الكرام ، أو يتجاوزها دون

التوقف عندها طويلاً ، فالنازيون لم يتصوروا ، أو يخطر ببالهم قط ، أن يلقوا كل هذه المقاومة الشرسة العنيفة ، من شباب اشتبهوا في ( أوروبا ) كلها بالتراخي والدعة والميوعة ، مثل الشباب الفرنسي ..

ولأن خسائر النازيين من المقاومة الفرنسية كانت عنيفة وكبيرة ، أرسل ( هتلر ) إلى ( باريس ) أحد أفضل رجال ( الجستابو ) ، وهو الكولونيل ( فون هام ) ، بأوامر واضحة محددة ..

سحق المقاومة الفرنسية عن آخرها ..

وبأى ثمن ..

وفور وصوله إلى ( باريس ) ، اتجه ( فون هام ) مباشرة إلى مبنى المخابرات النازية ، وطلب من رجاله إعداد حجرة لإقامته في المبنى ، لأنه سيقوم به بصفة دائمة ، حتى تنتهي مشكلة المقاومة الفرنسية تماماً .

ومنذ لحظاته الأولى ، أثبت الرجل أنه من طراز صلب عنيد ، فقد قضى ليلتين كاملتين دون نوم أو راحة ، يراجع تقارير المخابرات عن المقاومة ، وعملياتها ، وكل الإجراءات التي اتخذت لكشفها وإجهاضها ، والتقى بكل شخص تولى هذا الأمر ، وناقشه طويلاً بمنتهى الصبر ، حتى يجمع كل المعلومات الممكنة ..

وبعد أن انتهى من كل هذا ، اتجه إلى حجرته ، وطلب عدم إيقاظه ، مهما كانت الأسباب ..

ولقد نفذ رجاله أوامره بمنتهى الدقة ، فلم يحاول أحدهم إيقاظه ، طوال العشرين ساعة التالية ، على الرغم من أن المقاومة الفرنسية قد نسفت سيارة من سيارات الدورية الألمانية ، وقتلت أحد ضباط النازي ..

وعندما استيقظ ( فون هام ) ، مفعماً بالنشاط والحيوية ، بعد هذا النوم العميق ، استمع إلى هذه الأخبار ، وهو يحلق لحيته ، ويرتدي زيه العسكري ، ثم اتجه إلى حجرة الاتصالات ، وأرسل برقية عاجلة مشفرة إلى ( برلين ) ؛ ليستدعي الشخص الذي يراه مناسباً تماماً لهذه المهمة الخاصة جداً ..

( هنرييت بيرترخت ) ..

وهنرييت هذه امرأة فاتنة ، ذات سحر خاص ، سبق وأن عملت لحساب المخابرات الألمانية في ( هولندا ) ، وحققت نجاحات لا يستهان بها ، كما أنها حادة الذكاء ، تتحدث بطلاقة تامة عدة لغات أوروبية ، بارعة إلى حد مدهش ، في استخدام الأسلحة والقنابل ، بالإضافة إلى أهم صفاتها ، في نظر ( فون هام ) ..

أنها امرأة قاسية كالصخر ، بلا قلب تقريباً ..

وفي سرية تامة ، وصلت ( هنرييت ) إلى ( باريس ) ، وتم نقلها داخل سيارة مغلقة ، من المطار إلى مبنى المخابرات مباشرة ؛ لتلتقى بالكولونيل ( فون هام ) ..

ولم يعرف أحد أبداً ما دار بينهما ، في ذلك اللقاء المغلق ، الذي استغرق ست ساعات كاملة ، ولكن المؤكد أن ( هنرييت ) قد غادرت حجرة ( فون هام ) ، وهي تعرف تقريباً كل ما يعرفه عن المقاومة الفرنسية ..

ولأن ( هنرييت ) تجيد الفرنسية بطلاقة مدهشة ، فقد بدأ ( فون هام ) بزرعها في ( الحى اللاتيني ) ، في قلب ( باريس ) ، لتندمج مع الفرنسيين ، باعتبارها واحدة من ضحايا النازيين ، الذين قتلوا والديها بلا رحمة ..

ووفقاً للخطة ، لعبت ( هنرييت ) دور الفرنسية الغاضبة المتمردة ، التي تبغض النازيين ، ولا تحاول حتى إخفاء هذا ، حتى إن جيراتها الفرنسيين راحوا يحذرونها من اندفاعها ، فلما فشلوا في كبح جماحها ، بدعوا يتجنبونها ، خشية أن تمتد مشكلاتها إليهم ..

ومن الطبيعي ، والحال هكذا ، أن تصطدم ( هنرييت ) ، التي احتفظت باسمها ، ذي الإيقاع الفرنسي ، بسلطات الاحتلال النازي ،

وأن يتم اعتقالها صورياً مرتين أو ثلاثة ، عادت في إحداها بعين متورمة ، وعلى الرغم من هذا فقد واصلت عنادها ، وغضبها ، ولم تتراجع عن ثورتها على الاحتلال النازي قط ..

ولكن العجيب أن كل هذا ، على الرغم من البراعة التي أدت بها ( هنريت ) دورها ، لم ينجح قط في اجتذاب رجال المقاومة الفرنسية ، أو دفعهم إلى الالتقاء بها ، ومحاولة تجنيدها ..

ولقد أحق هذا ( فون هام ) بشدة ، وجعله يعيد دراسة الموقف كله مرة ثانية ..

من الواضح أن رجال المقاومة الفرنسية أذكى مما يتصور ، وأنه ليس من السهل أبداً الإيقاع بهم ، مهما بلغت أناقة الفخ وبراعته ..

لذا ، كان من الضروري أن يتم تعديل الخطة ، على نحو عنيف وجريء ، إلى أقصى حد ..

نحو لا يمكن إلا أن يقتنع به رجال المقاومة الفرنسية ، مهما بلغ حذرهم ، أو بلغت تلك الشكوك الغريزية ، التي تعربد في أعماقهم ..

وفي تلك الليلة ، ألقى رجال ( الجستابو ) القبض على ( هنريت ) ، ليلتقى بها ( فون هام ) ، ويراجع معها تفاصيل الخطة الجديدة ..

والواقع أنها كانت خطة جريئة .. للغاية ..

وبعد ثلاثة أيام ، عادت ( هنريت ) إلى منزلها في الحي اللاتيني ، وهي شاحبة منهارة ، وردد البعض أن رجال ( الجستابو ) قد اعتدوا عليها ، وعاملوها معاملة وحشية قاسية ..

وبينما يتحدث كل جيرانها عنها بمنتهى الشفقة والتعاطف ، خرجت ( هنريت ) إلى الشارع في أبهى صورة وأجمل زينة ، وكأنما نسيت كل ما حدث ..

وعلى ناصية الشارع ، راحت تغازل الجنود الألمان علانية ، حتى توقف أحدهم لمغازلتها ، فمالت نحوه ، واختطفت مسدسه من غمده بغتة ، و ...

وأطلقت عليه النار ..

قتلت جندياً نازياً على قارعة الطريق ، وأمام عشرات الشهود من الطرفين ..

وانقض الجنود عليها ، وأمسكوا بها في غضب شرس ، وهي تقاوم في عنف ، وتصرخ بهتافات حول ( فرنسا ) الحرة ..

وكم أدهش الناس أن النازيين لم يقتلوا فوراً ، على قارعة الطريق ، إلى جوار الجندي !!

ولكنها كانت أوامر ( فون هام ) ، الذى كان يدخر لها نهاية أكثر مأساوية ..

لقد حوكت ( هنريت ) أمام محكمة عسكرية نازية ، رأسها هو نفسه ، وصدر ضدها حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص ، أمام قوس النصر مباشرة ..

وكانت لعبة بارعة بالفعل من ( فون هام ) ..

لعبة نجحت فى جذب انتباه رجال المقاومة الفرنسية بالفعل ..

ربما لغرابة الحكم ، أو لما يمثله الموقف من تحدٍ لقدراتهم ، وهم الذين لم يفقدوا حاستهم الفنية قط ، حتى فى أشق أيام القتال ..

وبعد ثلاثة أيام من صدور الحكم ، وأثناء نقل ( هنريت ) إلى قوس النصر ، لتنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص ، قام رجال المقاومة الفرنسية بعملية ناجحة ، قتلوا خلالها ضابطاً وجنديين ، ونجحوا فى اختطاف ( هنريت ) ، وإنقاذها من مصيرها الوهمى الزائف ..

ولقد كان ( فون هام ) يتوقع هذه المحاولة ، ويبنى عليها خطته كلها ؛ لذا فقد ضحى بالضابط والجنديين ، وبأية خسائر أخرى محتملة ، فى سبيل أن تصل ( هنريت ) إلى قلب المقاومة ..

أما ( هنريت ) نفسها ، فقد تظاهرت بالخوف والفرع ، عندما وضع رجال المقاومة عصابة سوداء على عينيها ، وراحوا يسرون بها طويلاً ، فى ممرات مظلمة رطبة ، لم تدرك ماهيتها بالضبط ، حتى بلغوا قاعة واسعة ، تضيئها مشاعل قديمة ، وهنا أزاحوا العصابة عن عينيها ، لتجد نفسها أمام خمسة رجال وفتاة واحدة ، داخل إحدى قاعات مجارى ( باريس ) القديمة ، وسمعت رئيس المجموعة ، وهو شاب أحمر الشعر ، يغطى النمش وجهه ، وهو يقول لها مبتسماً :

مرحباً بك فى صفوف المقاومة يا عزيزتى ( هنريت ) ..

ولو أن ( هنريت ) تمتلك قلباً ، لرقص فى تلك اللحظة ظفراً وسعادة ، ولكانت تلك الفرحة التى افتعلتها حقيقية ، وهى تهتف :

هل تقبلوننى فى صفوفكم !؟

ابتسم صاحب الشعر الأحمر ، وقال :

بالتأكيد يا ( هنريت ) .

ثم استدرك بصرامة مبالغتة :

ولكن ينبغى أن تجتازى الاختبار أولاً .

سألته فى حذر :

أى اختبار ؟

بدا لها غامضًا للغاية ، وهو يُجيب :

ستعرفين قريبًا .

أعادوا العصابة إلى عينيها ، وهي تعود عبر نفس الممرات الرطبة المظلمة ، ثم تلقفها اثنان من رجال المقاومة ، وحملها في سيارة صغيرة إلى منزل متواضع ، في الريف الفرنسي ..

ولثلاثة أسابيع كاملة ، عاشت ( هنريت ) في ذلك المنزل ، والرجلان يقومان على خدمتها ، حتى ظهرت فتاة ضئيلة الجسد ، قامت بقص شعرها الطويل ، وصباغته بلون أسود داكن ، ثم أخبرتها أنها ستعود إلى ( باريس ) ، باسم ( برجيت موروا ) ، وستعمل بعض الوقت خادمة في منزل جنرال ألماني ، من قادة الأمن في العاصمة ..

وبالفعل ، عادت ( هنريت ) معها ، والتحقّت بالعمل في منزل الجنرال الألماني ، لتدرك فعليًا مدى قوة المقاومة الفرنسية وبراعتها ..

وحتى تتقن اللعبة تمامًا ، راحت ( هنريت ) تنقل تفاصيل كل ما يحدث في منزل الجنرال النازي ، لتلك الفتاة الضئيلة ، التي لم تفصح عن اسمها أبدًا ، ولكن الألمانية كانت تغفل عمدًا كل ما يبدو لها معلومة خطيرة ، وهي تنقل أسرار الجنرال ..

وأخيرًا ، وبعد شهرين كاملين ، لم تحاول الاتصال خلالهما بالكولونيل ( فون هام ) مرة واحدة ، بدا وكأن لعبتها قد أتت ثمارها ..

ف ذات ليلة ، فوجئت بذلك الشاب ذي الشعر الأحمر في قبو منزل الجنرال ، وعلمت منه أنه أحد قادة المقاومة الفرنسية ، وأن اسمه هو ( جودو ) ..

وفي تلك الليلة ، طلب منها ( جودو ) أن تنضم إلى المقاومة ، ومنحها أسماء بعض من يمكنها الاتصال بهم ، مع خارطة لموقع القيادة ، داخل شبكة أنفاق المجاري القديمة .. وكان هذا أفضل من كل ما حلمت به ( هنريت ) ، منذ بدأت هذه المهمة ..

وقبل أن ينبجج الفجر ، كانت تتسلل من منزل الجنرال النازي ، إلى مبنى المخابرات النازية مباشرة ، حيث التقت بالكولونيل ( فون هام ) ، وسلمته كل ما لديها ..

وعلى الرغم من رصانة ( فون هام ) وصرامته المعهودتين ، إلا أنه لم يستطع كتمان فرحته وسعائته بما حقّقته ( هنريت ) ، ولكنه طلب منها العودة فورًا إلى منزل الجنرال ، حتى لا ينكشف أمرها ..

وطوال ذلك اليوم ، راح ( فون هام ) يراجع قائمة الأسماء ، وملف كل اسم منها ، ويطلع خريطة أنفاق المجاري القديمة ألف مرة ..

وفى صباح اليوم التالي ، كان قد وضع خطته ..

وكانت خطة مباشرة للغاية ..

فرقتان من الجنود تتوغلان فى أنفاق المجارى القديمة ؛  
لتصفية كل عناصر المقاومة الفرنسية وقياداتها ..

ثم اعتقال كل الأسماء الواردة بالقائمة ..

ولأنه يؤمن بأن السرية أساس النجاح ، فقد احتفظ بالتفاصيل  
كلها فى رأسه ، ووقع أوامر الاعتقال ، دون عرض الأمر على  
الآخرين أو استشارتهم ، ثم أصدر أوامره ببدء عملية تصفية  
المقاومة ..

وفى منتصف النهار بالضبط ، افتحمت الفرقتان الألمانيّتان  
أنفاق مجارى (باريس) القديمة ..

ووفقاً للخريطة التى سلمها (جودو) للجاسوسة (هنريت) ،  
تم حصار موقع قيادة المقاومة بمنتهى الإحكام ، ودون ترك منفذ  
واحد للفرار ..

وبإشارة متفق عليها ، تم افتتاح القاعة من مدخلها فى آن  
واحد ، وبقدر هائل من العنف والشراسة ، وانطلقت المدافع  
الآلية النازية تحصد كل شىء فيها بلا هوادة أو رحمة ..

ثم كانت المفاجأة المذهلة ..

لقد كانت القاعة خالية تماماً ، إلا من صندوق كبير ، فى  
منتصفها بالضبط ..

صندوق يحمل شحنة من المتفجرات ..

وجهاز توقيت بدائياً ..

وقبل أن يتراجع النازيون ، أو حتى يبتعدوا ، دوى الانفجار ..  
وكان انفجاراً عنيفاً ، أطاح بالفرقتين الألمانيّتين عن آخرهما ،  
وارتجت معه (باريس) كلها تقريباً ، وتفجرت النيران والدخان ،  
من شدة التضاضط ، عبر فتحات المجارى القديمة ، فى معظم  
أحياء العاصمة الفرنسية ..

وجنّ جنون (فون هام) ، عندما بلغه ما حدث ، واندفع كالنمر  
الجريح ، يلقي القبض ، وبمنتهى الشراسة ، على كل من ورد  
اسمه فى القائمة ، التى سلمها (جودو) للجاسوسة (هنريت) ..

وكانت الضربة أكثر عنفاً هذه المرة ..

فعلى الرغم من أن هذا لم يرد فى ملفاتهم ، إلا أن كل من ورد  
اسمه فى قائمة رجل المقاومة الفرنسية (جودو) ، كان من  
الفرنسيين المتعاونين مع المحتل ..



هذا ما أكده رجال المخابرات النازية ..

وهنا بدت الحقيقة واضحة جليّة ..

لقد كانت خدعة متقنة بحق .. من رجال المقاومة الفرنسية ..

كان من الواضح أنهم قد كشفوا أمر ( هنريت ) منذ البداية ، وأن بقايا العبث في أعماقهم جعلهم يديرون اللعبة على نحو ساخر للغاية ، لرد الكيد إلى صاحبه ..

وهكذا قادوا الجاسوسة النازية إلى وكر زائف ، أعدوا فيه فخاً للقوات الألمانية ، ومنحوها قائمة بأسماء المتعاونين مع المحتل ، ليثبتوا تفوقهم وسخريتهم ..

ولأول مرة في حياة ( هنريت ) ، أصابها زعر حقيقى ، جعلها تطلب من ( فون هام ) إعادتها فوراً إلى ( برلين ) ..

وبأسرع وسيلة ممكنة ..

ولكن ( فون هام ) رفض الفكرة بشدة ؛ نظراً لأن ( هنريت ) هى الوحيدة ، التى يمكنها تعرّف رجال المقاومة الفرنسية ، الذين تعاملت معهم .

ولم يتصور ( فون هام ) أن رجال المقاومة أيضاً يدركون هذه الحقيقة ..

لذا ، فعلى الرغم من إحاطتها بحراسة خاصة مشدّدة ، أصيبت ( هنريت ) بحالة تسمّم شديدة ، عجزت الوسائل الطبية المتاحة عن إسعافها ، فلفظت أنفاسها الأخيرة ، بعد يومين فحسب من حادث الانفجار ، وسافرت بالفعل إلى ( برلين ) ..

ولكن جثة هامة ..

أما ( فون هام ) نفسه ، فقد راح يعمل بكل طاقته وقوته وغضبه ؛ لكشف مقر المقاومة الفرنسية ورجالها ، دون أن يحقق سوى انتصارات محدودة ، خلال عام كامل ، مما أحنق ( أدولف هتلر ) وأغضبه ، وجعله يأمره بالعودة فوراً إلى ( برلين ) ..

وفى يوم عودته ، وبينما يتجه موكبه إلى المطار ، تحت حراسة مشدّدة ، ألقى أحدهم قنبلة على سيارته ، ونسفها معه نسفاً ، مع تحية من القلب ..

قلب المقاومة ..

الفرنسية .

\*\*\*

بعد رحلة طويلة نسبيًا ، توقَّف القطار القادم من ( سويسرا ) ، عبر ( لكسمبورج ) ، عند الحدود الألمانية ، في ذلك المساء ، من ليالى أغسطس 1940م ، ذروة الحرب العالمية الثانية ، التي أشعلها الرايخ الثالث فى ( أوروبا ) ، بأفكاره النازية ، وديكتاتورية زعيمه ( أدولف هتلر ) ، وعلى الرغم من أن معظم ركاب القطار كانوا يتمتعون بالجنسية السويسرية المحايدة ، التي لا ناقة لها فى الحرب ولا جمل ، إلا أن التوتر سرى فى ملامحهم وأجسادهم ، وخفق مع دقات قلوبهم ، عندما صعد رجال الجيش النازى إلى القطار ، وعلى رأسهم ضابط من ضباط ( الجستابو ) ، بزيه الأسود المخيف ، وذلك الصليب المعقوف حول ذراعه ، وراحوا يرمقون الكل بنظرات قاسية صارمة فظة ، تحمل ألف اتهام واتهام ، حتى للنساء والشيوخ والأطفال ..

كان تفتيشًا روتينيًا حدوديًا حتميًا ، فى زمن الحرب ، إلا أن النازيين كانوا يببالغون فى القيام به أيما مبالغة ، ويلقون القبض على كل من تراودهم ولو ذرة شك واحدة بشأنه ، ليتعرض إلى استجواب سخيف عنيف ، قد يضطره ، فى أحسن الأحوال ، إلى العودة إلى ( سويسرا ) ، وهو يحمد الله ( سبحانه وتعالى ) ويشكره ؛ لأنه لم يُلِق فى سجون ( برلين ) الرطبة المظلمة ..

ومع فوهات المدافع الآلية ، والنظرات الصارمة القاسية ، تجمَّد الركاب فى مقاعدهم ، وراحوا يتابعون حركة النازيين فى حذر ، وعينا ضابط ( الجستابو ) الشاب ، بارد الملامح ، تفحص وجوههم ، وترصد حركاتهم وسكناتهم ، وحتى ارتجافة جفونهم ، و ...

وفجأة ، توقَّف ضابط ( الجستابو ) ، عند رجل وقور ، فى منتصف الأربعينات من عمره ، يرتدى معطفًا سميكًا ، له أزرار كبيرة مستديرة ، وانعقد حاجباه فى شدة وقسوة ، بدت واضحة فى صوته ، وهو يسأله :

- ما اسمك وجنسيتك !؟

بدا الرجل مضطربًا متوترًا ، شأن أى شخص عادى ، فى ظروف مماثلة ، وغمغم فى عصبية :

- اسمى ( جون أندرسن ) ، وأنا سويسرى الجنسية ، والمفترض أن دولتنا محايدة ، و ...

قاطع ضابط ( الجستابو ) بمنتهى القسوة :

- ولماذا ترتدى معطفًا بريطانى الصنع !؟

بدت الدهشة على السويسرى ، وهو يغمغم مضطربًا :

- أهذه جريمة !؟

صاح فيه الضابط ، بكل صرامة وقسوة الدنيا :

- أجب السؤال .

ارتبك السويسري أكثر ، وبدا لباقي الركاب أن الموقف سيتوتر أكثر وأكثر ، عندما أجاب الرجل ، وكلماته ترتجف على شفثيه :

- أعلم أن المعاطف الألمانية ممتازة ، ولكن هذا المعطف رخيص الثمن ، ومصنوع من صوف جيد ، و ...

قاطع ضابط ( الجستابو ) ، بصرخة هادرة مباغثة ، وهو يستل مسدسه الضخم ، على نحو انتفضت معه أجساد الركاب جميعهم :

- هراء .

ثم ألصق فوهة مسدسه الباردة بصدغ الرجل ، وهو يجذبه من معطفه بقسوة وخشونة ، مستطردًا :

- من سوء حظك أننا نحفظ هذه اللعبة جيدًا ، ونعرف ما الذي يعنيه ارتداء معطف كهذا .

وانقضت أصابعه القاسية بغتة ، على أزرار المعطف ، مضيًا :

- بأزرار كهذه .

ارتجف جسد الوقور في عنف ، وبدا وكأن خصلات شعره قد ازدادت شيئًا ، من فرط الرعب ، وهو يهتف :

- وما عيب الأزرار؟! .. سأستبدلها بأزرار ألمانية ، لو أن هذا يريحكم .

ألصق ضابط ( الجستابو ) فوهة مسدسه بصدغه أكثر ، وهو يدير أحد الأزرار الكبيرة بأصابعه ، قائلاً :

- لا تتظاهر بالبراءة والسذاجة يا رجل .. نحن محترفون ، ونعلم جيدًا ما يمكن إخفاؤه ، في أزرار كبيرة مجوفة كهذه ، و ...

وفجأة ، بتر عبارته ، وازداد انعقاد حاجبيه في شدة ، وانتقلت أصابعه بحركة حادة وعصبية إلى زر ثان ... ثم ثالث .. ثم الرابع والأخير ..

وبعدها احتقن وجهه في شدة ، وهو يغمغم في عصبية :

- عجبًا .. المفترض أن ...

بتر عبارته مرة أخرى ، وتراجع بحركة حادة ، فلملم الوقور معطفه ، وهو يقول بكلمات مرتجفة مذعورة :

- هل .. هل تريدون مني التخلّص من الأزرار ، أم من المعطف

كله؟!!

اعتدل ضابط ( الجستابو ) ، وقال فى عصبية :

- لا تتخلص من شيء .

وأعاد مسدسه إلى غمده ، وهو يشيخ بوجهه عن الرجل ؛  
ليواصل جولته فى القطار ، وما إن انتهى منها ، حتى غادره ،  
وهو يشير إلى سائقه بمواصلة السير ..

وتحرك القطار نحو ( برلين ) ، وما إن تجاوز الحدود ، حتى  
مالت عجوز تجاور الوقور على أذنه ، هامسة :

- لا تخجل من ذعرك .. لقد كان يواجهك أنت ، وكاد قلبى أنا  
يتوقف من شدة الرعب .

منحها الوقور ابتسامة مجاملة ، لم تخل من التوتر ، قبل أن  
يتراجع فى مقعده ، ويسيل جفنيه ، وكأنما يحاول إزالة انفعالات  
اللحظات السابقة ، ولكن الواقع أن المشاعر التى تدور فى  
أعماقه كانت تختلف عما تصوّره كل ركاب القطار بلا استثناء ..

تختلف تمامًا ..

ففى أعماق أعماقه ، كانت تجلجل ضحكة ..

ضحكة ساخرة ظافرة عالية ..

وإلى أقصى حد ..

هذا لأن ما حدث منذ لحظات ، كان مجرد اختبار ..

اختبار لتقنية جديدة ، فى العالم الذى يحوى دومًا كل جديد  
وغامض ومثير ..

عالم الجاسوسية ..

فمع بداية الحرب العالمية الثانية ، كان من الطبيعى أن تنشط  
المخابرات البريطانية ، المعروفة باسم المكتب السادس ، أو  
( MI6 ) ، لجمع المعلومات من كل اتجاه ، ونقلها من وإلى  
( برلين ) ، عبر مسارات شتى ، تتصل وتنقطع ، وفقًا لنشاط  
جهاز مكافحة الجاسوسية الألمانى ( الجستابو ) ، أو المخابرات  
الألمانية ( SD ) ..

ولأن الأمور لم تكن متطورة ، كما هى الآن ، كان من الضرورى  
البحث عن أساليب ووسائل بسيطة وذكية ، لنقل الوثائق  
( الميكروفيلم ) ، بحيث تمر تحت أنف الألمان ، دون أن تثير  
شكوكهم أو شبهاتهم ..

والحقيقة أن البريطانيين قد برعوا كثيرًا فى هذا المضمار ،  
على الرغم من أن كل ما استخدموه من تقنية بسيطة ، يعتبر  
الآن ساذجًا للغاية ، إلا أنه كان فى أيامها لمحة من العبقرية  
الحقيقية ، فقد استخدموا مقبض المظلة ، كمخبأ سرى ، لإخفاء

( الميكروفيلم ) ، ويد المظلة لإخفاء الوثائق والصور ، والولاعات ،  
وعلب السجائر ، وحقائب النساء ، كتعمية لآلات التصوير الصغيرة ..  
وبين كل هذا ، كانت خدعة أزرار المعاطف المجوفة ..

ففى تلك الأيام ، كانت المعاطف تصنع من صوف ثقيل ،  
وتزود بأزرار كبيرة ضخمة ، وجد رجال المخابرات البريطانية  
أنها يمكن أن تحوى تجويهاً كافياً ، لإخفاء ( ميكروفيلم ) دقيق ؛  
لذا فقد بدعوا فى صناعة أزرار معاطف خاصة ، تحوى التجويف  
المطلوب ، وأمكنهم استغلالها بنجاح ، طوال النصف الأول من  
عام 1940م ، لنقل ( الميكروفيلم ) ، الذى يحوى التعليمات أو  
المعلومات ، من وإلى ( برلين ) ، تحت سمع وبصر رجال  
( الجستابو ) ..

ثم سقط جاسوس بريطانى ، فى قبضة النازيين ..

ومع سقوطه ، انكشف سر التقنية البريطانية العبقريّة ،  
البيسطة الناجحة لنصف عام كامل ..

وجن جنون الألمان ، عندما أدركوا الخدعة ، وعندما علموا  
أن المعلومات كانت تنتقل ، تحت سمعهم وبصرهم طوال الوقت ،  
فى صورة بريئة أنيقة ، بل وفاخرة أيضاً ، فى بعض الأحيان ..

وأصابتهم عقدة أزرار المعاطف الكبيرة ، فراحوا يهاجمون كل  
من يرتديها ويديرونها بأصابعهم إلى اليسار ، فانفتحت بعضها ،  
وكشفت ما بداخلها ، وسقط عدد آخر من الجواسيس  
البريطانيين ..

وفى المخابرات البريطانية ، أدرك الرجال أن لعبتهم قد اتكشفت ،  
وأسفوا كثيراً لفقدان وسيلة مذهشة كهذه ، وكان عليهم أن يعترضوا  
أذهانهم ؛ للبحث عن وسيلة جديدة ، بنفس براعة الوسيلة  
السابقة ، ونفس بساطتها ، وشكلها الخداع ..

وفى ذلك الوقت ، كان هناك شاب من أسرة بريطانية عريقة ،  
يعمل فى المخابرات البحرية ، ويملك عقلاً مذهشاً ، وخيالاً  
جامحاً ، كثيراً ما استفز رؤسائه ، الذين يفاجئون بعدها بأنه  
قابل للتنفيذ ، بل وناجح أيضاً إلى درجة مذهشة ..

والطريف أن الرئيس المباشر لذلك الشاب ، كان يثق فى  
عقليته وأفكاره المبتكرة ثقة مطلقة ، على الرغم من معرفته  
بتاريخه الطويل ، الذى حمل أمثلة موجهة على الاستهتار  
واللامبالاة ، والعبث الذى اشتهرت به طبقة النبلاء الرفيعة فى  
( إنجلترا ) ..

ومن منطلق هذه الثقة ، عرض عليه رئيسه الأمر ، وسأله :  
- هل تعتقد أنه باستطاعتك ابتكار وسيلة بارعة مماثلة  
يا ( فليمنج ) ؟!

صمت الشاب ( آيان فليمنج ) بضع لحظات ، وهو يتطلع إلى  
رئيسه المباشر ، الذي تربطه صداقة وثيقة بعائلته ، قبل أن  
يجيب في حزم :  
- بكل تأكيد .

ابتسم رئيسه ، وهو يشير بيده ، قائلاً :  
- دعنا نرى عبقريتك إذن .

نطقها بلهجة عجيبة ، تجمع بين السخرية والتقدير ، في مزيج  
يصعب تقليده ، أو حتى إقاؤه ، ولكن ( فليمنج ) الشاب لم يبال ؛  
إذ كان هو أيضاً من ذلك الطراز ، الذي يجمع في أعماقه بين الغرور  
والثقة ، والأعصاب الباردة كالثلج ؛ لذا فقد حمل السؤال إلى  
حجرة مكتبه الصغيرة ( جداً ) ، وحمل معه أحد تلك الأزرار المجوقة ،  
وراح يغلقه ويفتحه ، وهو يدير الأمر في رأسه ، ويعتصر خلايا  
مخه الرمادية ، في تحد خص به نفسه ، لمواجهة هذا الأمر  
اليسير ..

كان يحتاج إلى فكرة بسيطة ، وواضحة ، وأنيقة ..  
وعبقرية أيضاً ..  
ولقد راح يفكر ، ويفكر ، و ...

وفجأة ، قفز من مقعده ، وقد سطعت في ذهنه فكرة مدهشة ،  
وأمسك الزر الأجوف الكبير ، يحدق فيه لحظة ، قبل أن يختطف  
ورقة وقلمًا ، ويدون فكرته ، ثم يعدو إلى مكتب رئيسه  
المباشر ، ليعرضها عليه ..

وكما يحدث في كل مرة ، استنكر رئيسه الفكرة تمامًا في  
البداية ، واستهجنها ، ووصفها بأنها تافهة وسخيفة ،  
وستنكشف من اللحظة الأولى ، إلا أن ( فليمنج ) الشاب كان  
عنيذاً مثابراً ؛ لذا فقد راح يؤيد فكرته ، ويضرب الأمثلة عليها ،  
ويشرحها ، حتى اقتنع بها رئيسه تمامًا ، وقرر عرضها على  
رجال المكتب السادس فوراً ..

وفي مساء اليوم نفسه ، وبناءً على طلب ضابط مخابرات  
البحرية البريطاني ، تم عقد اجتماع خاص ..

وفي الاجتماع ، شرح الرجل فكرة ( آيان فليمنج ) ..

شرحها بنفس الاقتناع والحماس ، اللذين شرح بهما الشاب نفسه ، عندما كان في مكتبه ، قبل ساعات مضت ..

والواقع أن الأمر بدا كالصدمة ، على وجوه الرجال ..

لقد وجموا جميعاً ، على نحو عجيب ، وانسدلت عليهم ستارة من الصمت ، وعيونهم كلها تحديق في ضابط المخابرات البحرية ، الذي بدا له هذا أشبه باستهجان صامت ، ستعقبه حتماً عاصفة من اللوم والتفريع ؛ لأنه أضاع وقتهم الثمين في فكرة حمقاء كهذه ..

ولكن سير ( سنكلير ) ، أشهر وأبرع رجال المخابرات البريطانية وأعرفهم ، في ذلك الحين ، كان أول من رفع ستارة الصمت ، وهو يقول :

- فكرة عبقرية .

هنا فقط ، تنفس ضابط المخابرات البحرية الصعداء ، واستعاد

حماسه الأوّلى ، وهو يهتف :

- ويسيرة أيضاً .

أضاف رجل آخر :

- ولن تخطر ببال الألمان أبداً .

أشار سير ( سنكلير ) بيده ، قائلاً :

- لا يمكنك الجزم .

مع عبارته ، انسدلت ستارة الصمت مرة أخرى ، واستدارت العيون كلها إليه ، فتابع في حزم :

- لا بد من تجربة الفكرة عملياً .

وهكذا تقرر وضع فكرة ( آيان فليمنج ) موضع التنفيذ ، ودفعها إلى تجربة عملية ، من خلال ذلك العميل السويسري ، الذي قدم نفسه لضابط ( الجستابو ) باسم ( جون أندرسن ) ..

وسافر ( أندرسن ) ، من ( برن ) إلى ( برلين ) ، وهو يحمل تلك الوسيلة الجديدة ، التي تفتق عنها ذهن ( فليمنج ) ..

وواجهه ضابط ( الجستابو ) مباشرة ..

ولكنه لم يكشف أمره .. أبداً ..

وفور استقراره في ( برلين ) ، أبرق ( أندرسن ) إلى عمته في ( لوزان ) ؛ ليطمئنها على وصوله ، وكانت هذه البرقية تعني أن الخدعة قد نجحت ، وأن فكرة ( فليمنج ) قد عبرت الحدود بتفوق ..

وعندما استدعى ضابط المخابرات البحرية مرعوسه الشاب ؛  
ليبلغه بنجاح فكرته ، ابتسم هذا الأخير فى ثقة ، قائلاً :

كنت أعلم هذا .

والواقع أن الفكرة كانت مذهشة بحق ؛ إذ إن كل ما فعله  
( فليمنج ) الشاب ، هو أن عكس اتجاه فتح الأزرار المجوّفة ..

فقط عكس الاتجاه ، بحيث إنه عندما يحاول الألمان فتحها ،  
يكونون قد أحكموا إغلاقها فى الواقع ..

ولقد اعتمد الشاب ، فى فكرته هذه ، على ما يُعرف باسم  
( الفعل الشرطى المنعكس ) ؛ إذ إن الألمان قد كشفوا خدعة  
الأزرار المجوّفة ، وتدرّبوا على كشفها ، واعتادت أيديهم إدارتها  
إلى اليسار لفتحها ، فور شكهم فى أمرها ، إذن فكل ما عليه هو  
أن يجعلها تُفتح إلى اليمين وليس إلى اليسار ، ولن تنتبه  
أصابعهم المدرّبة إلى هذا أبداً ..

ولقد كان تقديره سليماً إلى درجة مذهشة ، ولم تنكشف خدعة  
الأزرار التى تُفتح عكس اتجاهها ، إلا مع سقوط عميل آخر ، فى  
أوائل عام 1945م ، وقبل نهاية الرايخ الثالث بأشهر قليلة ..

والمدهش أن ( فليمنج ) ، والذى تحوّل بعد انتهاء الحرب إلى

كاتب روائى ، وابتكر أشهر شخصية فى عالم الجاسوسية  
( جيمس بوند ) ، لم يستخدم هذه الفكرة ، فى رواياته أبداً ..

ربما لأنها بسيطة للغاية ، على نحو لن يبهر القارئ ، أو  
المشاهد فيما بعد ..

أو ربما لأنه كان يوماً رجل مخابرات محترفاً ، يدرك جيّداً  
القواعد ..

قواعد اللعبة ..

لعبة الجاسوسية .

\*\*\*



لم تمض أشهر قليلة على اشتعال الحرب العالمية الثانية في ( أوروبا ) ، حتى سقطت ( بولندا ) في قبضة النازيين ..

وحبست ( أوروبا ) كلها أنفاسها ، مع ذلك الحدث الرهيب ، ليس لأن ( بولندا ) قد سقطت فحسب ، ولكن لأن سقوطها حدث بأسلوب لم تعرفه الحروب من قبل قط ..

فعلى عكس كل ما سبقها من مواجهات حربية ، لم يبدأ ( هتلر ) قتاله مع ( وارسو ) بهجوم تقليدي ، تشنه المدفعية والمدرعات ، ويتبعه المشاة ، وتوازره الطائرات ..

لقد استخدم تكتيكاً جديداً ، لم يعرف قبلها قط ، ولم يخطر ببال مخلوق واحد من جنرالاته ، الذين كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم ، أنهم أفضل كثيراً منه ؛ باعتباره لم يدرس العسكرية قط ، مثلما فعلوا هم ..

لكن ما نسوه ، وتناساه العالم أجمع الآن ، هو أن ( هتلر ) لم يكن بسيطاً أو هيناً ، فربما لم يدرس العسكرية أبداً ، إلا أنه قد

اشترك في ثمانية وأربعين معركة ، خلال السنوات الأربع ، التي قضاها في الحرب العالمية الأولى ، وأنه قد حصل على وسام الشرف ، من الطبقة الثانية ، عام 1914م ، ثم لم يلبث أن حمل وسام الشرف من الطبقة الأولى ، في الرابع من أغسطس عام 1918م ..

ولأنه يبغض التقليدات ، فقد بدأ ( هتلر ) احتلاله لدولة ( بولندا ) ، قبل أن ينفذ هذا فعلياً ، بأربعة أشهر كاملة ..

ففي ذلك الحين ، وصل إلى ( بولندا ) صحفي يوغسلافي شاب ، يحمل اسم ( حاستين فلوبيير ) ، بحجة عمل تحقيق صحفي كبير ، حول ذلك المد النازي في ( أوروبا ) ، وتأثير خطب ( أدولف هتلر ) السياسية الحماسية ، التي تنتشر كالنار في الهشيم ، بين شباب ( أوروبا ) ، الطامح إلى التغيير ، بكافة جنسياته ..

ومن خلال ذلك الهدف المعن ، أصبح من حق ( فلوبيير ) أن يتجول في ( وارسو ) ، وأن يلتقى بمسئوليها السياسيين والعسكريين ، وبأفراد شعبها ، من كافة الطبقات ..

وبحكم طبيعته الصحفية ، كان ( فلوبيير ) يسجل كل ما يمر به ،

أمام عيون الجميع ، ودون أن يحاول إخفاء هذا أو مواراته لحظة واحدة ..

بل ، وكان ينشر بعضه ، في صحيفته اليوغسلافية أيضًا ..

أما المعلومات الكاملة ، والمؤيدة بالصور والوثائق والمستندات ، فقد كانت تصل إلى ( هتلر ) شخصيًا ، كل ثلاثة أيام ، بوسائل مخابراتية دقيقة ..

وفي حجرة مكتبه الخاصة ، اجتمع الفوهرلر مع نائبه ( هيس ) ، وقائد ( الجستابو ) وجهاز المخابرات ( هملر ) ، ليراجعوا معًا تلك النتائج ، قبل أن يقول ( هيس ) في حذر ، وهو يراقب انفعالات زعيمه :

- وفقًا لهذه المعلومات ، فالبولنديون على أهبة الاستعداد لمواجهةنا ، وستكون حربنا معهم عنيفة وشرسة .

أجابه ( هتلر ) في صرامة مقتضية :

- مطلقًا .

تطلع إليه الرجلان في حذر ، وكلاهما يخشى مجرد إبداء الرأي ، نظرًا لما اشتهر به ( هتلر ) من ديكتاتورية ، وعناد ،

وتشبت بالرأى ، في حين لم ينتبه هو قط إلى توترهما ، وهو يشير إلى خريطة ( بولندا ) ، قائلاً :

- كل ما ينبغي علينا معرفته ، هو أين تجتمع الحكومة البولندية ، ومتى ، وكيف يمكن عقد اجتماع لها ، يحضره كل قادة الجيش وجنرالاته وأركان حربهم .

تبادل الرجلان نظرة حائرة ، قبل أن يقول ( هملر ) :

- سأطلب من جاسوسنا أن يمدنا بتلك المعلومات ، في أقرب فرصة ممكنة .

زمجر الفوهرلر في شراسة ، وهو يقول :

- بل في نهاية الأسبوع ..

ثم عقد كفيه خلف ظهره ، وشد قامته في قوة ، مضيفًا بكل الحزم :

- على أقصى تقدير .

وأسقط في يد الرجلين ..

فعندما يضع ( هتلر ) موعداً ، فهو لا ينسأه ..

ولا يتنازل عنه أبداً ..

وهذا يعنى حتمية الحصول على المعلومات المطلوبة ، فى  
نهاية الأسبوع ..

وعلى أقصى تقدير ..

وبسرعة ، عاد ( هملر ) إلى مكتبه ، وأرسل الأوامر مباشرة  
إلى جاسوسه الأول فى ( وارسو ) ..

إلى ( حاستين فلوبير ) ..

وعلى عكس ذلك التوتر فى ( برلين ) ، استقبل ( فلوبير ) الأوامر  
بمنتهى الهدوء فى ( وارسو ) ..

ووضعها موضع التنفيذ على الفور ..

وبسرعة ، وباستخدام جاذبيته ، ولباقتة الصحفية المعروفة ، حدّد  
موعداً مع وزير الدفاع البولندى ؛ لإجراء حوار صحفى معه ، حول  
تلك الحشود الألمانية على الحدود ..

وفى براعة تحسب له ، راح يستدرج الرجل فى الحديث ، حول  
الاستعدادات والدفاعات ، حتى ألقى عليه سؤاله الحاسم :

- ومتى يحتاج الأمر إلى اجتماع شامل ، لكل القيادات العسكرية  
والسياسية ؟

وعلى الرغم من أن السؤال شديد الحساسية ، فى مثل تلك  
الظروف ، إلا أن الوزير أجابه بمنتهى الحزم ، وكأنما ينفث عن  
غضب وانفعال مكبوتين فى أعماقه :

- عندما نشر أن النازيين سيبدءون هجومهم بالفعل .

وعلى الرغم من أن هذا ما جاء يبحث عنه بالتحديد ، واصل  
( فلوبير ) حديثه مع الوزير لعشر دقائق أخرى ، ثم انصرف ،  
وقد حصل على ثلث ما يبحث عنه ..

فالآن ، علم متى يجتمع القادة ..

بقى أن يعرف كيف .. وأين ..

لذا ، فأثناء خروجه ، لم يضع ( فلوبير ) وقته هباءً ، وإنما  
راح يتودّد إلى ( زوشا ) ، السكرتيرة الحسنة لوزير الدفاع ،  
والتي لم تصدق أن شاباً وسيماً لبقاً مثله ، يلقي شبابه حولها ،  
فشجعتة بابتسامة جذابة ، وغمزة عين سريعة ، أمنت لهما لقاءً  
خاصاً ، بعد ليلة واحدة ، فى حانة من حانات ( وارسو ) الشهيرة ..

ليلتها رقصا ، وضحكا ، وتحدثا ، وتغازلا ..

وعندما افترقا ، فى الثانية صباحاً ، كانت ( زوشا ) قد وقعت

في غرامه حتى النخاع ، وباتت مستعدة لفعل أى شىء فى الوجود من أجله ..

ولأنه محترف ، لم يلق عليها ( فلوبيير ) سؤالاً واحداً مباشراً ..

فقط راح يغازلها ، ويضاحكها ، ويستدرجها ، حتى باحت له بكلمة السر ، التى ينبغى أن يتلقاها القادة ، لتحديد الاجتماع العاجل .. وقبل نهاية الأسبوع ، الذى حدده ( هتلر ) ، كانت قد باحت له بأخطر سر فى حياتها كله ..

بخطة استمرار الحكومة البولندية ..

تلك الخطة ، التى ينبغى أن ينفذها الجميع ، فى حالة تعرض البلاد للخطر ، أو لغزو أجنبى ..

وبواسطتها ، عرف ( فوبيير ) أين ستذهب الحكومة ..

وأين ستجتمع ..

وتختفى ..

وفى الموعد المحدد تمامًا ، كانت كل هذه المعلومات أمام ( هتلر ) ، الذى تألقت عيناه ، وشد قامته فى اعتداد ، ونقل بصره بين ( هملر ) و ( هيس ) ، قبل أن يقول فى ثقة :

- الآن فقط ، يمكننى أن أضمن لكم وقوع ( وارسو ) فى قبضتنا ..

وبأقل خسائر ممكنة ..

وبعد ساعة واحدة ، اجتمع الفوهرل بجنرالاته ..

وطرح خطته ..

وساد المكان وجوم شديد ..

وجوم سيطر على الكل ، وجعل وجوههم تشحب ، وأطرافهم تبرد ، وعقولهم تغلى فى رءوسهم ، من شدة توترهم . فالخطة ، وفقاً لمنظورهم ، ولكل دراساتهم العسكرية ، كانت غير منطقية .. وغير مقبولة ..

بل ومجنونة أيضاً ..

وعبثاً ، حاول الجنرالات ، الذين يعتبرون أنفسهم أساتذة العسكرية ، إثناء ( هتلر ) عن خطته ، دون إثارة غضبه .. ولكنه تشبث بالخطة ، وتحداهم جميعاً ، وأمر بالتنفيذ فعلياً ..

وبعد أيام ثلاثة ، تحركت القوات النازية ، على الحدود البولندية ،  
مما بدا للبولنديين أشبه بالتأهب للهجوم الشامل ..

وانطلقت صفارة الإنذار الكبرى ..

وبدأت ( زوشا ) إجراءات خطة الاستمرار ، وأبلغت الوزير ،  
الذى انطلق فى سيارة مغلقة إلى موقع بالغ السرية ، اجتمع فيه  
كل قادة ( بولندا ) ، السياسيين والعسكريين ، لدراسة الموقف ،  
وإصدار الأوامر اللازمة ..

وحده ( فلوبيير ) ، ظل هادئاً فى حجرته ، وقد استنتج عقله الذكى  
المدرّب ، طبيعة الخطة المدهشة ، التى وضعها عقل الفوهرل ..  
ووسط كل هذا ، وبينما كل العيون مفتوحة على اتساعها عند  
الحدود ، لم ينظر مخلوق واحد إلى السماء ..

إلى حيث الخطر الحقيقى ..

ففى سماء ( وارسو ) ، وعلى ارتفاع شاهق ، حلقت طائرات  
ألمانية ضخمة ، حاملة مئات ، بل آلاف من قوات العاصفة النازية ..  
وفى تتابع منتظم ، وبكافة تسليحهم وعتادهم ، هبط جنود وضباط

العاصفة النازيون بالمظلات ، على العاصمة البولندية ، فيما أطلق  
عليه الفوهرل فى خطته اسم ( تكنيك الصاعقة ) ، أو ( بليتزرريج ) ..

وكان اسماً على مسمى بالفعل ..

فالقوات النازية لم تهاجم الحدود البولندية ..

بل ولم تطلق عندها طلقة واحدة ..

لقد هبطت كالصاعقة من السماء ..

وبينما يجتمع القادة العسكريون والسياسيون ، فوجئوا بالقوات  
النازية تنقض عليهم ، فى عقر دارهم ..

وفى مقر اجتماعاتهم السرية مباشرة ..

وسقطت ( بولندا ) فى قبضة النازية ..

وهنا ، وقع ( فلوبيير ) فى أوّل خطأ ، وأكبر خطأ ، فى حياته  
كلها ..

ففور دخول النازيين إلى ( وارسو ) ، أرادوا فرض رهبتهم  
وسطوتهم منذ اللحظة الأولى ؛ لذا فقد انتقوا عشوائياً مجموعة  
من المواطنين ، وضعوهم أمام أول جدار صادفهم ، و ...

وأطلقوا عليهم النار ..

لحظتها كان ( فلوبيير ) هناك ، يرصد الموقف كله ، وكان يمكن أن يواصل عمله كصحفي يوغسلافي حر ، لولا أن تملكه الزهو ، لكونه جزءاً من ذلك الانتصار الساحق ، فاتجه نحو القائد النازي ، وصافحه في حرارة ، وقدم له نفسه ..

وكان هذا المشهد يكفي ..

فكما يحدث ، في كل احتلال ، ظهرت في ( وارسو ) مقاومة حرة ، رافضة للاحتلال ، لا يتأخر أفرادها لحظة واحدة ، في التضحية بكل غال وعزيز ، من أجل أوطانهم وحريتهم ..

ولقد رصدت تلك المقاومة ما فعله ( فلوبيير ) ، وأدركت من ابتسامته ، وحرارة المصافحة ، أنه لم يكن أبداً مجرد صحفى ، وإنما كان جاسوساً نازياً ، أيًا كانت جنسيته ..

وفي أول اجتماعاتها ، قرّرت المقاومة تلقين النازيين أوّل درس ، وإعلان وجودها في الوقت ذاته ، و ...

وقتل ( فلوبيير ) ..

وفي ليلة باردة ، تناول ( فلوبيير ) عشاءه مع القائد النازي ،

وأبلغه آخر ما توصل إليه من معلومات ، وطلب منه الإذن بالزواج من ( زوشا ) ، سكرتيرة الوزير السابق ، ثم غادر مقره ؛ ليلتقى مع حبيبته البولندية ، في البار الذي شهد أوّل لقاء لهما ..

وكانت ( زوشا ) في انتظاره بالفعل .. مع رجال المقاومة ..

فعلى الرغم من حبها الحقيقي للشباب ، إلا أن ( زوشا ) لم تنس قط أنها بولندية ، تجرى في عروقها دماء وطنها ، الذي لن تتردد في التضحية من أجله بكل شيء في الوجود ..

حتى بقلبها نفسه ..

واستقبلت ( زوشا ) ( فلوبيير ) بابتسامة كبيرة ، وشاركته كأسين ، قبل أن تقترح عليه الذهاب إلى منزلها ، وما إن غادرا المكان ، حتى انقض عليه رجال المقاومة البولندية ، وكمموا فمه ، وحملوه في سيارة صغيرة إلى أحد مقارهم السرية ، حيث فوجئ بموقفه ، وسمع بأذنيه الحكم بإعدامه ..

وهنا ، انهار ( فلوبيير ) ، وتلاشت ثقته ، وسقطت لباقته ، وراح يتوسل ، ويتضرع ، حتى انتهت تضرعاته برصاصة استقرت في رأسه ، وأنهت معها حياته الحافلة بالخيانة ..

وبكت ( زوشا ) ، كما لم تبك في حياتها قط ، ولكنها كتبت أحزانها ودموعها ، وعادت إلى عملها ، بعد أن تعاونت مع رجال المقاومة ، في إلقاء جثة الصحفي اليوغوسلافي أمام مقر القيادة النازية .. وكان هذا إعلاناً بمولد المقاومة البولندية ، التي أذاقت النازيين الأمرين ، عبر سنوات الاحتلال الطويلة ..

وفي كل مرة ، كانت المقاومة توجه ضرباتها إلى النازيين ، كان جنونهم يشتعل ، ويقومون بحملات إعداد عشوائية غاضبة ..

وهنا تضربهم المقاومة ثانية .. وثالثة .. ورابعة ..

وعلى نحو مدهش ، قامت المقاومة البولندية بتنظيم نفسها ، بمنتهى الدقة والمهارة ، وصنعت من نفسها صفوفاً ، وكتائب ، وفصائل ، واختفت في القرى ، والجبال ، والحقول ، وتوالى ضرباتها بلا انقطاع ..

وباعتراف النازيين أنفسهم ، كانت المقاومة البولندية أشبه بشوكة كبيرة حادة ، في ظهر الجيش النازي طوال الوقت ..

وخصوصاً في مرحلة اندحاره ..

فمع هزيمة الجيش النازي ، على يد السوفييت ، عند مشارف

( موسكو ) ، بدأ الرايخ الثالث تراجعاً وانسحابه ، وشن رجال المقاومة البولندية حرباً شرسة ومباشرة ، على النازيين المنهكين .. ولقد حاول النازيون الرد على هذا ، بأسلوب دموي عنيف ، وبتصعيد حملات الإعداد العشوائية ، إلا أن المقاومة لم تتوقف ، ولم تتراجع ..

ثم انهار الرايخ الثالث ، وانتحر قادته ، وأعلنت ( ألمانيا ) استسلامها غير المشروط .

وتحررت ( بولندا ) ..

تحررت بسبب مقاومة ، بدأت مع قتل جاسوس ..

جاسوس يدعى ( فلوبير ) .

\*\*\*

لم تكد الشمس تشرق ، فى صباح ذلك اليوم ، فى بدايات عام 1943م ، نروة الحرب العالمية الثانية ، حتى انعكست أشعتها الذهبية على جسم المدمرة الألمانية الجديدة التى دخلت الخدمة منذ ثلاثة أشهر فحسب ، لتكبد الأسطول البريطانى الأمريكى وغواصاتها أكبر قدر من الخسائر ، منذ تلك الضربة اليابانية المباغتة ، لميناء (بيرل هاربور) ..

ففى شموخ وقوة ، راحت المدمرة الألمانية تمخر عباب المحيط ، وعلى متنها ذلك الجهاز الجديد الذى ابتكرته العقول الألمانية فى ذلك الحين ، والذى يمتلك قدرة مدهشة ، على كشف حركة الغواصات المعالية ، فى دائرة واسعة حولها ، وربما لأول مرة فى تاريخ حروب البحار والمحيطات .

وبالنسبة لتلك الفترة فى النصف الأول من الأربعينات كان جهاز كهذا يعتبر مجهزاً فى مضمار القتال البحرى ، الذى بلغ أوجه ، فى تلك المرحلة الحرجة فى الحرب ؛ إذ كان ابتكاره بداية لتدمير عدد لا بأس به من الغواصات البريطانية والأمريكية وإتقاذ عدد مدهش من المدمرات الألمانية واليابانية ، على نحو لم يسبق له مثيل .

وفى ذلك اليوم بالتحديد ، كانت المدمرة الألمانية تشق طريقها ، نحو منطقة قريبة فى الساحل البريطانى الغربى ، حيث تجمعت بضع غواصات بريطانية أمريكية استعداداً للانطلاق نحو أهداف ألمانية ويابانية جديدة ، كما أكدت البرقية الشفرية السرية ، التى أرسلها جاسوس ألمانى رفيع المستوى فى قلب القيادة الحربية المشتركة فى (لندن) .

ولأن الغنيمية كانت ضخمة على نحو يسيل له اللعاب ، راح ضباط المدمرة النازية يبدعون استعداداتهم المكثفة حتى قبل الوصول إلى منطقة الهدف ، وأخذ القبطان يلقي أوامره هنا وهنا ..

وفجأة ، لمح أحد الضباط الجندى (رالف) وهو منهمك فى عمل ما ، عند مؤخرة المدمرة ، فصاح به فى صرامة :

- (رالف) .. ماذا تفعل هنا بالضبط ؟

وحسبما جرت العادة كان ينبغى أن ينهض (رالف) هذا فى سرعة ، وأن يرفع يده بالتحية النازية ، وهو يضرب كعبيه ببعضهما ببعض فى قوة ليفسر لضابطه ما كان يفعله هناك فى ركن المؤخرة ..

وكان العجيب أن (رالف) قد واصل عمله بسرعة أكبر دون أن يلتفت لضابطه ، أو يوليه أدنى اهتمام مما أثار غضب الضابط وجعله يندفع نحوه ، صائحاً فى ثورة :



- انهض وأجب أيها الجندي .

واصل ( رالف ) عمله لثوان إضافية ، على الرغم من ثورة ضابطه ، ثم لم يلبث أن نهض في هدوء مستفز ، قائلاً :

- لا بأس أيها الضابط ، لقد أنهيت عملي هنا .

لم يكن من المعتاد أن يخاطب جندي بحري ملتزم في البحرية النازية ، ضابطه الأكبر على هذا النحو المستهتر ؛ لذا فقد صاح فيه الضابط في حدة شديدة :

- قف بانضباط واد التحية جيداً أيها الجندي .

ولكن ( رالف ) لم يقف بالانضباط العسكري اللازم .

بل ولم يحاول حتى هذا ..

والأدهى أنه قد قام بعمل عجيب ، يعد فضيحة في أي نظام عسكري ، إذ خلع قبعته أمام ضابطه ، وابتسم في سخريّة ، قائلاً :

- لا داعي لكل هذا .. لقد انتهت مهمتي هنا .

وقبل حتى أن يرفع حاجبين ، من فرط الدهشة ، فوجئ النازي بالجندي ( رالف ) يقدم على ثالث عمل مستفز .

بل ثالث عمل جنوني تماماً ..

لقد اندفع نحو حاجز المدمرة ، ثم وثبت عبره ، ليقفز إلى مياه المحيط ويغوص فيها في سرعة ..

ووفقاً للنظم البحرية كان ينبغي أن يصرخ الضابط بكل قوته :

- رجل في البحر .

ولكن الضابط النازي لم يفعلها ، إذ اتسعت عيناه عن آخرهما وهو يحدق فيما تركه ( رالف ) خلف بكل ذهول وذعر الدنيا ..

ففي تلك اللحظة فقط أدرك الألماني أن من كان أمامه ليس حتماً أحد جنود الأسطول النازي ..

بل وليس حتى ألمانياً ..

ليس لأن ( رالف ) قد أطلق عبارة إنجليزية ساخرة وهو يقفز إلى المحيط ، ولكن لأن ما فعله عند مؤخرة المدمرة ، وما تركه خلفه هناك كان رهيباً .

رهيباً بحق ..

\*\*\*

منذ بدأت الحرب العالمية الثانية ، اشتبكت أساطيل الدول المتحاربة في معركة عنيفة ، ربما لم يشهد العالم مثيلاً بحرياً لها ، في تاريخه كله .

معركة سعى كل طرف فيها للسيطرة على البحار والمحيطات وتحجيم قدرة الخصم على التحرك فيها بحرية ، باعتبار أن النقل البحري هو الوسيلة الرئيسية ، التي كانت متاحة آنذاك لنقل الأسلحة والمعدات الثقيلة ، من مصانعها في الولايات المتحدة الأمريكية ، وحتى الجزر البريطانية التي تنقلها بدورها عبر المسارات البحرية أيضا ، لجنودها الذين يحاربون في قلب ( أوروبا ) و ( آسيا ) و ( أفريقيا ) أيضا ..

ومع ضربة ( بيرل هاربور ) ودخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحرب بثقلها كله ، أصبحت المسارات المائية هي وسيلة نقل الجنود أيضا ، إلى ساحات المحاربين ..  
وبأى ثمن ..

وكانت الحرب عنيفة إلى أقصى حد ..

المدمرات والغواصات اليابانية والألمانية ، تسعى بكل قوتها وكل ثقلها ، لإغراق حاملات الجنود والطائرات والمعدات في حين تسعى قطع الأسطول البريطانية والأمريكية لإغراق المدمرات اليابانية والألمانية ، قبل أن تنفذ مهمتها ..

ولفترة ما ، بدأ وكأن مصير الحرب كلها يتوقف على الانتصار في المعركة البحرية بالتحديد ، وخاصة بعد أن بلغت خسائر

الطرفين حدًا رهيبًا ، أصبح يهدد بدمار شامل .. وفي تلك المعركة البحرية كانت الغواصات هي السلاح الأكثر خطورة وفاعلية بلا منازع ، إذ إنها تنسل تحت سطح الماء ، ويمكنها الاقتراب في سرية ، حتى مجال رمايتها ، ثم إطلاق طوربيداتها على مدمرات الخصم في غفلة منه ..

لذا فقد أصبح الشغل الشاغل للطرفين هو تطوير الغواصات ورفع قدرتها على الأداء ومضاعفة قدرات الطوربيدات التدميرية ، و... ولكن الألمان كان لهم مسار آخر ..

مسار أكثر عبقرية ..

لقد جندوا علماءهم وعقولهم ، للفوز بهدف آخر ، ألا وهو القدرة على رصد غواصات الخصم ، قبل أن تبلغ مدى الرماية المنشودة .

وفي واحدة من أعظم روايات الخيال العلمي على الإطلاق ، إلا وهي رواية ( عشرون ألف فرسخ تحت الماء ) للكاتب المبدع ( جولي فيرن ) استقى العلماء الألمان فكرة جهاز رصد الأعماق ..

وبدعوا في تنفيذه ..

ثم انتقلوا إلى مرحلة التجريب ..

طوال شهر كامل لاحظ البريطانيون والأمريكيون أن قدرة الألمان على رصد غواصاتهم تجاوزت كل الحدود المنطقية وأنهم لا يكتفون بكشف أمرها ، قبل أن تبلغ المدى اللازم لتدميرها فحسب بل أنها ترشد طائراتها إليها أيضا فتتجه نحوها مباشرة وكأنها تعرف موضعها جيدا ، وتقصفها بقنابل الأعماق حتى تنسفها نسفاً .

وبهذا ارتفعت خسائر الغواصات الأمريكية والبريطانية إلى حد مخيف .. وكما يحدث في مثل هذه الظروف بدأت المخابرات البريطانية في دراسة الأمر ، ورصده عن قرب من خلال عملائها في قلب ( ألمانيا ) ..

ولأنها كانت متوغلة في العمق النازي بحق حصلت المخابرات البريطانية على أجوبة أسئلتها ، خلال أسبوع واحد فحسب .. وأدركت أنها تواجه خطراً داهماً ..

وهنا كان من الضروري بل من المحتم أن يجتمع رجالها ، للبحث عن حل لهذه المواجهة الجديدة ، والتي تسيدت فيها البحرية الألمانية عرش البحار والمحيطات .

كان الألمان يعملون على تطوير جهازهم الجديد ، في سرعة مذهلة ، بعد أن زودوا واحدة من أقوى وأسرع مدمراتهم

بالنموذج الأول منه ، والذي حقق بالفعل نجاحات واضحة ، خلال ما يزيد على الشهر ، وكان على البريطانيين أن يعملوا بأقصى سرعة وفي ثلاثة محاور في آن واحد .

المحور الأول هو تدمير جهاز رصد الأعماق ، الذي تحمله المدمرة الألمانية ، والمحور الثاني هو منع تطوير الجهاز ، في وقتهم على الأقل والثالث والذي اعتبرته المخابرات البريطانية أخطر وأهم المحاور ، كان الحصول على تصميمات الجهاز ، لإنتاج سلاح مماثل ، والسعى لإيجاد وسائل مضادة له ، في الوقت ذاته .

ومن أجل تلك الأهداف الثلاثة اجتمع رجال المخابرات البريطانية لثلاثة أيام متوالية ، لم يتذوقوا خلالها إلا قدر الأدنى من النوم ، الذي يبقيهم على درجة مناسبة من الوعي ، تكفي لوضع خطة شديدة التعقيد ..

والواقع أن اجتماعهم الطويل هذا كان مثمراً بحق ؛ إذ أسفر عن خطة مذهلة لتحقيق الأهداف الثلاثة ، في ضربة واحدة تقريباً .

ومن الواضح أن الجزء الخاص بمنع تطوير الجهاز ، والحصول على تصميماته الرئيسية ، كان عبقرياً وفريداً بحق إذ خضع نشر

وثائقه لبند السرية البالغة ، الذي لا يتيح كشف الأوراق قبل مرور خمسة وسبعين عامًا على نهاية الحرب العالمية الثالثة ، وهو أقصى قدر مسموح به في قانون الوثائق البريطاني ..

باختصار ، لن يمكننا معرفة ما تم بشأن المحورين الثاني والثالث قبل عام 2015 .. أما بالنسبة للمحور الخاص بتدمير نسخة جهاز رصد الأعماق على متن المدمرة الألمانية الذي أطلقوا عليها اسم (صائدة الغواصات) فقد تم نشر وثائقه كاملة .

والواقع أن البريطانيون قد بذلوا جهدًا بحق في هذه العملية المدهشة ، والتي بدأت ببرقية شفرية ، تم إرسالها إلى واحد من أهم جواسيسهم في (برلين) يطلبون منه فيها أن يمدّهم بالملفات الكاملة لكل طاقم الضباط والبحارة الذين يعملون على المدمرة .

(صائدة الغواصات) ..

ولقد أدهش ذلك المطلب جاسوسهم ، وأربكه بشدة ، فأبرق إليهم يؤكد أن كل طاقم المدمرة تم اختياره بعناية فائقة ، وبواسطة رجال (الجستابو) أنفسهم ، وأنه من الخطورة ، كل الخطورة بذل أية محاولة لتجنيد أحدهم !

وكالمعتاد ، لم تشرح له المخابرات البريطانية وجهة نظرها أبدًا ، وإنما عادت تبرق إليه بضرورة بذل كل الجهد الممكن ، لتوفير الملفات المطلوبة مهما يكن الثمن .. ومن الواضح أن ذلك الجاسوس الذي أشارت إليه الوثائق باسم (أليكس) وهو ليس اسمه الحقيقي حتمًا ، قد بذل جهدًا خرافيًا ، ليرسل إليهم صورة من تلك الملفات عبر عميل آخر سويسري الجنسية ، أطلقت عليه الوثائق اسم (شبح برن) ، ربما لأهميته وخطورته في ذلك الحين .

المهم أن الملفات قد وصلت إلى المخابرات البريطانية ، التي قضى رجالها ليلة بأكملها في مراجعة صور أفراد الطاقم ، وصور رجال مخابراتهم ، قبل أن يقع اختيارهم على جندي روسي المولد يدعى (رالف هايد نبرج) .

وذلك الاختيار لم يعتمد على دراسة عميقة لشخصية (رالف) أو حتى تحريات مسبقة عنه ، وإنما عتمد فقط على شكله وملامحه .

هذا لأن (رالف) كان يشبه إلى حد كبير ، رجلهم (إيوارد رينز) ، الذي تم اختياره للقيام بالمهمة ، نظرًا للتشابه أيضًا .

وكان من الضروري أن يتم كل شيء بسرعة ودقة ، وحزم .. وفي منتصف الليلة نفسها ، خضع (أدوارد) لعملية جراحية

تجميلية ، الغرض منها تقريب المسافة بين ملامحه ، ولامح  
( رالف هايد ينبرج ) ..

وفى صباح اليوم التالى مباشرة ، وبينما رست المدمرة  
الألمانية وخرج بحارتها للتنزه والعبث فى الميناء بعد فترة  
طويلة فى عرض البحار والمحيطات ، كان أحمد عملاء  
المخابرات البريطانية يؤدى دوره فى الخطة ، دون أن يدري  
ما يتجاوز ذلك الدور ، وربما لم يدري ، حتى لحظة وفاته .

فمع زجاجة خمر ، ووجه محتقن ، وعينين زائغتين ، اعترض  
العميل طريقى ( رالف ) وتحرش به دون سبب منطقى ، وراح  
يسب أبويه وأسرته وينعته بصفات يندى لها الجبين حتى ثارت  
ثائرة ( رالف ) فانقض عليه للاقتصاص منه بكل ما يعتمل فى  
أعماقه من غضب ثائر ..

وهنا وبدون أى مقدمات نفض العميل البريطانى عن نفسه كل  
علامات السكر الزائفة ، وتحول فى لحظة واحدة إلى مقاتل  
شرس ، بالغ النشاط والحيوية ، وثب بمنتهى الخفة ، ليلاكم  
الألمانى فى أنفه وقاعدة عنقه بمنتهى العنف ، وفى لحظة  
واحدة ، اختفى العميل البريطانى وترك ( رالف ) خلفه ، سعل  
بشدة ، ويحاول عبثاً منع الدماء التى تدفقت من أنفه المحطم  
بغزارة ..

وبسرعة تضافر رفاق ( رالف ) لنقله إلى أقرب مستشفى ،  
أو أقرب نقطة إسعاف حيث تم تضميد إصابة أنفه ، وطمأنة الطبيب  
بأن تلك الحشرجة فى صوته لن تلبث أن تزول ، عندما تتحسن  
تلك الكدمة الواضحة فى قاعدة عنقه ..

وعلى الرغم من ضماداته وكدماته ، لم يشأ ( رالف ) إفساد ليلته ،  
فخرج مع رفاقه إلى أقرب حانة ، ليقضوا سهرتهم حتى الصباح .  
ولأن المدمرة سترحل مرة أخرى فى مساء اليوم التالى مباشرة ،  
كان لابد من تنفيذ الجزء الثانى من الخطة ، دون أننى إبطاء ، على  
الرغم من أن جراح عملية ( إدوارد ) التجميلية لم تلتئم بعد .

وكان على ( إدوارد ) الذى خرج من حجرة العمليات منذ ساعات  
قليلة ، أن يقطع رحلة طويلة عبر بحر ( المانش ) حتى يبلغ الميناء  
الفرنسى الذى ترسو عنده المدمرة الألمانية قبل مطلع الفجر .

والمدهش أن عملية الاستبدال لم تكن صعبة أو مرهقة أبداً ،  
إذ كان ( رالف ) ورفاقه شبه فاقدى الوعي ، عندما وصل فريق  
المخابرات إليهم مع ( إدوارد ) فى الخامسة وسبع دقائق فجراً ..

وبكل بساطة ووسط كومة من شهود الإثبات والأصدقاء ورفاق  
السلاح ، عاد ( رالف ) إلى المدمرة الألمانية ، ليقدم تقريراً عما  
أصابه فى الميناء .

وعندما تم التأكد من اكتمال العمل وأقلعت المدمرة النازية ،  
لتواصل رحلة صيد غواصات الأمريكيين والبريطانيين كان تغييراً  
أساسياً قد حدث دون أن ينتبه إليه شخص واحد على سطحها .

لقد تم استبدال ( رالف ) الألماني النازي الوطني ، بالبريطاني  
( إدوارد ) الذي أصبح نسخة طبق الأصل منه مع الضمادات على  
أنفه ، والكدمة في قاعدة عنقه ، وذلك الصوت المتحشرج  
الأجش ، الذي لا يشبه صوت أحدهما على الإطلاق ..

وفور إقلاع المدمرة ، بدأ ( رالف ) المزيف رحلة البحث عن  
جهاز رصد الأعماق .. ومع توسط الشمس لكبد السماء بلغ  
هدفه ، وحدد موقعه ، وراجع خطته واستعد لخطة العمل المتفق  
عليها .

وفي تلك الليلة ، نام ( إدوارد ) ملء جفنه وسط جنود ألمان  
يؤمنون كل الإيمان بالفكر النازي وحتمية سحق كل ما يعاديه ..  
باختصار نام وسط أعدائه ويكفي كشف هفوة واحدة منه ،  
لينقضوا عليه ، ويمزقوه إرباً في لحظات عمله على الفور ..

وفي نقطة تغطوا تلك الحجرة ، التي تحوى جهاز رصد الأعماق ،  
زرع المتفجرات التي تم إخفاؤها بمنتهى العناية في حذائه ، و ...

ولكن ذلك الضباط النازي كشف أمره ..

وعلى الرغم من صراخ الضابط الألماني ووعيده ، أكمل ( رالف )  
عمله ، ثم هب يلقي نفسه في مياه المحيط .

ولثوان حدى الضابط النازي في المتفجرات التي تركها ( رالف )  
خلفه ، قبل أن يصرخ بكل قوته :

- قنبلة على السطح ..

ولكن صرخته لم تكتمل أبداً ، فقد قاطعها انفجار مدمر ، نسف  
مؤخرة المدمرة ودفنتها الرئيسية وجزءاً من سطحها ، يطل  
مباشرة على جهاز رصد الأعماق ..

ومع دوى الانفجار ، اندفعت الغواصات الأمريكية والبريطانية  
نحو المدمرة ، وكأنما كان الانفجار إشارتها للهجوم واستغلت  
التلف الجزئي الذي أصاب جهاز الرصد لتنطلق طوربيداتها  
نحوها في آن واحد .

وكانت أسرع مدمرة تغرق في تاريخ الحرب العالمية الثانية  
كلها ، بعد أن حولتها الطوربيدات إلى أشلاء متناثرة .

وحتى قبل أن تصل الطائرات الألمانية كانت إحدى الغواصات  
البريطانية قد التقطت ( إدوارد ) وانطلقت عائدة به إلى الوطن ..

وهكذا وصلت المقاتلات الألمانية لتجد أمامها محيط تسبح فيه

# روايات مصرية للجيب

## سلسلة الأعداد الخاصة

( ملف المستقبل .. رجل المستحيل )

صدر من هذه السلسلة :

- 1 - المعركة الكبرى . ( رجل المستحيل )
- 2 - بلا حدود . ( ملف المستقبل )
- 3 - العميل . ( رجل المستحيل )
- 4 - الحلقة الجهنمية . ( رجل المستحيل )
- 5 - الزهرة السوداء . ( ملف المستقبل )
- 6 - أسير الثلوج . ( رجل المستحيل )
- 7 - سرية للغاية . ( رجل المستحيل )
- 8 - الموت لا يأتى مرتين . ( رجل المستحيل )
- 9 - المواجهة الأولى . ( رجل المستحيل )
- 10 - ساعات الخطر . ( رجل المستحيل )
- 11 - عملية عنق الزجاجة . ( رجل المستحيل )
- 12 - الحصار . ( رجل المستحيل )
- 13 - الطيف . ( ملف المستقبل )
- 14 - تحت علم مصر . ( رجل المستحيل )
- 15 - ( س - 18 ) . ( ملف المستقبل )
- 16 - البداية . ( رجل المستحيل )
- 17 - كائنات . ( ملف المستقبل )

جثث أفراد طاقم المدمرة ، التي غاصت بجهاز الرصد إلى  
الأعماق كالحجر .

محيط من الدم ..

والهزيمة ..

بلا حدود ..

\*\*\*



د. نبيل فاروق

صراع العقول  
الذى يتفوق  
دوما على  
أعتى الأسلحة  
والمعدات

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأمداء الخاصة

حرب الجواسيس

قاهر الجواسيس



4



المؤسسة  
العربية الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمان فى مصر 500  
وما يعادله بالدولار الأمريكى  
فى سائر الدول العربية والعالم